جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

صفات المفلحين
كما صوَّرتها سورة " المؤمنون "
" دراسة بلاغية تحليلية تأملية "

الدكتور
إسماعيل محمد الأنور محمد إسماعيل
مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بجرجا

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الثامن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيِّماً، وجعله كتاباً معجزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والصلاة والسلام الأتمَّانِ الأكملان على خير رسل الله وأنبيائه محمد ﷺ أفصح من نطق بالضَّاد ، وأوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وعلى آله الأمجاد ، وأصحابه الذين اختارهم الله – عز وجل – ليكونوا حملة هذا الدين والمجاهدين فى سبيله – رضى الله عنهم ورضوا عنه – ومن سار على درْب خطاهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

وبعد

فإنَّ القرآن الكريم " هو الفصل ليس بالهزْل ، من تركه من جبَّارٍ قصمه الله ، ومن ابتغى الهُدَى فى غيره أضلَّه الله ، وهو حبلُ الله المتين ، وهو الذِّكر الحكيم ، وهو الصِّراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يَخْلَقُ على كثْرة الرَّدِّ، ولا تنقضى عجائبه ... مَنْ قال به صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ به أُجر ، ومن حَكَم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم " (١) .

هذا ، وكُلَّما أمعن المُتأملون النظر والفكر فى القرآن الكريم وجدوا أنفسهم أمام بحر من المعانى لا ساحل له ،فمعانيه متجدِّدة حيَّة تتجدَّد بتجدُّد الزمان والمكان ،ومع كونه معجزة بيانية خالدة ، فهو –كذلك – معجزة تشريعية ربَّانية يُهذِّب أخلاق الأُمَّة ، ويسمو بقيمها ،ويوضِّح لها عقيدتها، ويرسم طريقها فى الحياة ،ويُحدِّد تصوُّرها للكون، إذا هى أخذت به ،وجعلته منهجها ، ودستور

(١) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى للإمام الحافظ ابن العربى المالكى جـ١١ ص٣٠ ،٣١ (كتاب : ثواب القرآن – باب : ما جاء فى فضل القرآن – الحديث رقم ٢٩١١)- نشر / دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان – ط / أولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

حياتها ؛ إذ إنَّ الأُمَّة بحاجة ماسَّة لتدبُّر كلام ربها ، وفهم معانيه ؛ لذلك انصرفت إليه جمهود علماء اللغة والبيان لمعرفة أساليبه ، وبلاغة بيانه ، وتحليله ،أملاً فى الوقوف على أسرار إعجازة ،كُلٌّ بحسب ذوقه وطاقته وبشريَّته ؛ لأنه من المعلوم لديهم أنَّ القرآن الكريم " جمع بين وجوه الحسن ، وأسبابه ، وطرقه ، وأبوابه " (١) .

ومن يرجع إلى القرآن الكريم يجد فى مواضع جمَّة منه، يُحدثنا عن الإيمان مُجسَّداً فى أخلاق وفضائل ، بما يفيد أن قيمة الشخصية المؤمنة ، تتمثل فى إيمانها الذى يؤدِّى إلى فلاحها فى الدُّنيا والآخرة ، وأنَّ هذا الإيمان لن يتحقَّق إلاَّ بالسلوك القويم المبنى على الاتصاف بالفضائل ، والابتعاد عن الرذائل ، وأن الاتصاف المذكور ،لابد أن يكون له أثره البالغ ،ودورُه المهم فى بناء مجتمع طاهر عفيف (٢) ، بما تحمله هاتان الكلمتان من مضامين من شأنها إقامة مجتمع تتحقَّق فيه صفات الكمال الإنسانى المنشود ، والذى دعا إليه القرآن الكريم ، وأرشدت إليه السُّنَّة النبوية الشريفة ،ولمَّا كان الأمر كذلك ،وكانت الآيات التى يدور معناها حول فلاح المؤمنين ،وصفاتهم جدَّ كثيرة، وقد تنوَّعت فيها الأساليب وتعدَّدت ، تلك الأساليب التى يكون البحث فيها من خير ما تفنى فيه الأعمار ، ومن أجلِّ ما يُتقرَّب به إلى الواحد الدَّيان ،آثرت أن تكون تلك الدِّراسة واحدةً من الدراسات التطبيقية التى تتناول جانباً من جوانب صفات المؤمنين المُفلحين فى إحدى سور القرآن الكريم ؛ للنَّظر والتأمُّل فى تلك الصِّفات ،ولكى أصل إلى مُبتغاى فيما ذكرتُ جعلت تلك الدراسة بعنوان: (صفات المفلحين كما صوَّرتها سورة المؤمنون) " دراسة بلاغية تحليلية تأمُّلية " .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى – تحقيق / السيد أحمد صقر ، ص٢٧٦ – ط / دار المعارف – الخامسة ١٩٩٧م.

(٢) وإلاَّ فإنَّ العبادة إنْ لم تثمر فى الخلق والسلوك، فإنها حينئذ تكون عبادة مدخولة لا قيمة لها ولا وزن فى حياة العابدين .

وقد حاولْت فى تلك الدِّراسة بيان ما فى التعبير القرآنى من أسرار بلاغية ، مُستعيناً فى ذلك بما يُفهم من كلام مفسِّرينا جزاهم الله عنَّا خير الجزاء ، ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام هو : أنَّ سورة (المؤمنون) قد تناولها بالدراسة البلاغية باحثون جادُّون فى مقدِّمتهم أستاذنا الدكتور بسيونى عبد الفتاح فيود، فى بحث عنوانه (من هدى القرآن الكريم " تفسير بلاغى لسورة المؤمنون " ، والدكتورة /عائشة فريد، فى بحثها :(من بلاغة سورة المؤمنون)، ذلك إلى جانب كتاب للدكتور فاضل صالح السامرائى، بعنوان : (لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل)، تناول صاحبه فى جزء منه :(الآيات الأولى من سورة المؤمنون موازناً بينها ، وبين الآيات المتشابهة معها من سورة المعارج ،وقد أفدت من البحثين الأول والثالث ؛ معترفاً لصاحبيهما بالفضل والسبق ، غير أنِّى وجدت بعض الدقائق والأسرار البلاغية التى تشتمل عليها الآيات المتناولة ، أردت أن أشرف بتسجيلها بقلمى ، بعد أن اهتديت إلى تلك الدَّقائق ،وهذا الأسرار بعقلى ، مستأنساً بما ألمح إليه أهل التحقيق من بلاغيين ومفسِّرين فى كلامهم حول ما ميَّز الله – عز وجل – به المؤمنين من النعوت والأوصاف التى تكون سبباً فى فلاحهم دنيا وآخرة ، سائلاً المولى – سبحانه – أن أكون قد وُفِّقت إلى ما اهتديت ُ إليه من أسرار ودقائق ، وأن يوفِّق أهل العلم للبحث عمَّا فاتنى من تلك الأسرار التى تضمَّنتها الآيات الكريمة .

<u>وتتضح أهمية الموضوع بالبحث فيما يلى :</u>

أولاً : أنَّه متعلِّق بالقرآن الكريم الذى هو المعجزة الخالدة .

ثانياً : أنَّ مثل هذا النوع من الدراسات لبعض الآيات القرآنية يؤدِّى بالضرورة إلى الكشف عن مزايا النَّظم القرآنى عن طريق ما يحويه من لطائف بيانية دقيقة ، يتميَّز بها النظم المذكور عن غيره .

ثالثاً : بدراسة تلك الآيات ندرك أين نحن من التحلِّى بالصفات والفضائل التي تضمَّنتها ؛ لكى نكون من المفلحين ، وندرك كذلك كم وكيف تخلَّت عنها الكثرة الكاثرة من أفراد الأمة ومجتمعاتها ، حتَّى تقهقر إيمانها إلى أن فقدت سيادتها وريادتها ،وقيمتها ، وعزَّها ، ومجدها بين أمم وشعوب الأرض؟

رابعاً : هذه الدِّراسة أنموذج من التطبيق المقيَّد برسم العلاقة بين معانى القرآن الكريم وألفاظها ،كما أن الدراسة المذكورة أنموذج طيِّب لتوظيف البلاغة فى الكشف عن البلاغة العُليا في النَّص القرآنى .

خامساً: لم أجد فى مكتبة الدراسات البلاغية مثل هذه الدراسة المستقلَّة – فيما أعلم – وإن كانت هناك بعض الرشفات المُتعلِّقة بصفات المفلحين ، والمُتناثرة هُنا وهُناك.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتى فى مقدِّمة وتمهيد ، ومبحثين للنَّص المنوط به البحث يتبعهما خاتمة ، وفهارس للمصادر والمراجع ،وأخرى للموضوعات المتعلقة بالبحث .

أمَّا **المقدِّمة** : فتناولت فيها أهمية الموضوع ، وأسباب اختيارى له ، وخطة البحث، والمنهج الذى سلكته فى كتابة هذا البحث .

وأمَّا **التمهيد** : فعنوانه : (بين يدى البحث) وتحدَّثت فيه عن مطالب أربعة :

المطلب الأول: تناولت فيه :التعريف بسورة (المؤمنون) فى القرآن الكريم من حيث اسمها ، وترتيبها فى المصحف الشريف ، ومكان نزولها ، وفضلها ، ومناسبتها لما قبلها ، وأغراضها ومقاصدها، وسبب تسميتها بما سُمِّيت به .

والمطلب الثانى : خصَّصته للحديث عن الغاية من ذكر أوصاف المؤمنين فى القرآن الكريم .

أمَّا **المطلب الثالث** : فألقيت فيه الضوء على علاقة صفات المؤمنين الواردة فى مطلع السورة الكريمة بموضوعاتها .

والمطلب الرابع: كان عن التلازم بين أوصاف المؤمنين فى موضوعاتها .

ثم تأتى بعد ذلك الدراسة والتحليل لصفات المفلحين كما صوَّرتها السورة الكريمة ، وقد جاءت تلك الدِّراسة فى مبحثين :

المبحث الأول: بعنوان :(المعنى العام للآيات التى تضمَّنت صفات المفلحين فى السورة الكريمة) وقد كان هذا المبحث تمهيداً للذى يليه ، حيث أبنت فيه عن أنَّ الآيات المذكورة ركَّزَتْ على جانب من السلوكيات مع بيان جزاء الملتزمين بها ،واضعةً للمؤمنين سبيل الفلاح وطريقه .

والمبحث الثانى :عنوانه :(تأمُّلات فيها تضمَّنته الآيات الكريمة من أسرار بلاغية)، وقد جاء هذا المبحث متمِّماً لصورة البحث ، حيث قام المبحث المذكور بتجلية المعانى القرآنية الخاصة بالصِّفات التى اشتملت عليها تلك الآيات من خلال الدِّراسات البلاغية التى هى عماد الدراسة وأهم وأبرز أجزائها .

وختمت هذا البحث **بخاتمة** سجَّلْتُ فيها خُلاصة البحث وأهم نتائجه .

وبالطَّبع تأتى بعد ذلك **الفهارس الفنِّية الخاصة** بمصادر البحث ومراجعه ، متبوعة بفهارس للموضوعات .

وقد كان عملي فى هذا البحث على النحو التالى :

١- قراءة النَّص القرآنى قراءة تأمُّلية دقيقة ، متناولاً الآيات الكريمة آية آية تناولاً من خلال التَّذوُّق الفنى ، مستعيناً باللطائف البلاغية المُختلفة التى تكشف عن أسرار النَّص القرآنى ، بعد تحسُّس الجماليات البيانية التى اهتديت إليها من خلال إطالة النَّظر فيها كتبه المفسِّرون والبلاغيون والباحثون القدماء منهم والمعاصرون .

٢- محاولة التَّدبُّر البيانى لكل آية على حدة ،من خلال النظر إلى سياقها ومقامها الذى وردت فيه ،مفسِّراً إياها تفسيراً بيانياً عن طريق الرَّبط بينها وبين ما سبقها من ناحية ، وبينها وبين ما لحقها من ناحية أخرى ؛ مستدلاً بذلك الصنيع على وحدة الموضوع متمثِّلاً فى (السياق ، والسياق ، واللحاق)؛ ذلك

توصُّلاً لدقة التعبير القرآني فى بيانه ونظمه ، ولعلاقة الآى بعضها ببعض ، بصفة أنَّ النَّص بناءٌ واحدٌ متماسكٌ .

٣- تحليلي للآية الكريمة يكون بما يُفسِّرها من القرآن أو السُّنة النبوية الصحيحة، أو منهما معاً ، أو بما ورد فى أسباب نزول الآية ، فإن لم أجد فبما ثبت من أقوال المحقِّقين من أهل العلم الفضلاء (مفسِّرين ، وأصوليين ، ومُحدّثين ، وبلاغيين) مِمَّن لهم صلةٌ وثيقة بكتاب الله – عز وجل – وسُنَّة نبيه ﷺ فى كتاباتهم وأفكارهم ، ذلك فى استظهار بعض المعانى التى أقوم بعرضها ؛ لأعضِّد بها رأيى .

٤- إذا احتمل الكلام معنيين أو أكثر ، وكان حمله على أحدهما ، أو أحدها أوضح وأشدَّ موافقة للسياق كان الحمل عليها أولى .

٥- القيام بالرجوع إلى القراءات المُختلفة الواردة فى الآية الكريمة ، إنْ وجدت تلك القراءات ، مُحلِّلاً إيَّاها كاشفاً عن دلالة النَّظم فيها ، وعن وظيفته التعبيرية بما يخدم السياق ، أو الوجه الذى وردت عليه القراءة ، وذلك حتى يخرج البحث فى صورة مرضيَّة يرتضيها القارئ والباحث على السواء .

٦- بيان ما يُثيره الحرف الواحد ؛ أو الكلمة القرآنية من معان كثيرة لا نجدها إذا ما استُبدل ذلك الحرف ، بحرف آخر أو اللفظة القرآنية بلفظة أخرى ؛ للدِّلالة على أنَّ الإعجاز القرآنى يتكشَّف لنا من خلال إيثار لفظة على أُخرى ، أوحرف على آخر ، ومن مراعاة الفروق الدقيقة بين الألفاظ؛ باعتبار أنَّ القرآن الكريم يختار من الألفاظ ماهو أقوى دلالة على المعنى المُراد، بحيث لو استُبدل لفظ أوحرف بآخر لاختلَّ المعنى ، وضاع المراد منه ، ومثل ذلك يُقال فى الجمل القرآنية ،وفى موضع الحذف والذكر، وفى الفواصل القرآنية، حيث إنَّ كُلَّ كلمة ، وكُلَّ حرف ،بل إنَّ كُلَّ جملة فى القرآن الكريم متمكِّنةٌ فى موضعها ،غير قلقة ولا نابية ولا مضطربة ، ولكنَّها مناسبة لسياقها ،متلائمة مع الغرض الذى سيقت من أجله، والموقف الذى يتطلَّبها ؛ ومن ثمَّ فهى تتجلَّى آثارها فى النظم ؛لإحداث التأثير المطلوب فى نفس المتلقِّى .

٧- وأخيراً وليس آخراً : استدعاء الهمَّة فى الكشف عمَّا يتعلَّق بالدقائق والأسرار الخاصة بعلم المتشابه اللفظى لبعض الآيات القرآنية ، مع الإحاطة بمعرفة يسرِّ التغاير أو التقارب فى النظم بين الآيتين أو الثلاث إذا كان بينها أو بينها تشابه لفظى، ذلك من خلال تتبُّع سياق الآيات ومساقاتها حسب ورود كُلِّ آية ، وتذوُّقها فى سياقها " وكمال تأليفها ،ودقة ترتيبها على نحو لايتأتى إلاَّ فى أسلوب القرآن الكريم الذى عُرف بانتظامه العجيب ،ونسجه البليغ على مستوى الأدوات والصيغ والتراكيب "[1] الدَّالة على أنَّ في كُلِّ آية شواهد ناطقة لرعاية مقتضى الحال ، وداعية المقام .

وبعد :

فإنى أحمد الله – عز وجل – على ماوفَّق وأعان ، وأرجو أن أكون قد وُفِّقت فيما إليه قصدتُ ، وأن ينفع اللهُ – تعالى – بعملى هذا ، فهو وحده يشهد أننى لم آل جهداً ، ولم أدَّخر وسعاً فى إخراج هذا العمل المتواضع على هذا النحو الذى جاء عليه فى صورته هذه ، كما أننى لا أستطيع الادعاء بأنَّ الموضوع قد استوعب كُلَّ عناصره ، واستوفى كُلَّ شئً يخصُّه ، فهذا ادعاء لا يتفق مع الرُّوح العلمية ، إذ إنَّ الكمال لله – عز وجل – وحده ، وإنما أستطيع أن أقول : إننَّى بذلْتُ جُهداً مُخلصاً ، فإن كان التوفيق قد حالفنى ، فذلك فضل من الله ومِنَّة ، وإن كانت الأخرى فمن نفسى ، وحسبى أننى أخلَصْتُ النِّيَّة ، وبذلتُ قُصارى جهدى . واللهَ أسأل يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم .

كما أسأله – سبحانه – أن يوفِّقنا دائما لخدمة لغة القرآن الكريم ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، إنَّه نعم المولى ونعم النصير. (ربَّنا عليك توكَّلْنا وإليك أنبنا وإليك المصير)

دكتور / إسماعيل محمد الأنور محمد إسماعيل

---

(١) وجوه الاستبدال فى القرآن الكريم " دراسة لغوية وصفية تحليلية " للدكتور / عز الدين محمد الكردى ، ص١٩٤ – نشر: دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط / أولى ١٤٢٨ه / ٢٠٠٧م .

بسم الله الرحمن الرحيم

النص الكريم

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الآيات (١ : ١١) من سورة المؤمنون

تمهيد

بين يدي البحث :

من باب الوفاء بحق المعنى للنَّص الكريم وقبل الخوض في التحليل البلاغي الذي هو نهج هذه الدراسة وغايتها ، يَحْسُنُ بي أن أُطوِّف بالحديث حول عدَّة مطالب :

المطلب الأول

التعريف بسورة (المؤمنون) في القرآن الكريم

من حيث : (اسمها – ترتيبها في المصحف الشريف – مكان نزولها – فضلها – مناسبتها لما قبلها – أغراضها ومقاصدها – سبب تسميتها بما سميت به) .

أولاً : **اسمها**:

المشهور في اسمها (سورة المؤمنون)[١]، ويذكرها بعض المفسرين باسم (سورة المؤمنين)[٢] ، فالأوَّل على اعتبار " حكاية لفظ (المؤمنون) الواقع أوَّلها في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ } فَجُعِل ذلك اللفظ تعريفاً للسورة " [٣] الكريمة ، وعَلَماً عليها ، والثاني من منطلق كون لفظ (سورة) مُضافاً إلى (المؤمنين) [٤] ؛ لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنَّهم قد أفلحوا .

---

(١) جُلُّ المفسِّرين على ذلك ، وقد وردت في المصحف الشريف بهذا الاسم .
(٢) ينظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي – تحقيق د / صالح بن نمران الحارثي ، وآخر ٣ / ٤٢١ ط / دار المنار – السعودية – أولى ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م ، ينظر : تفسير القاضي البيضاوي ضمن (حاشية شيخ زادة) ٢ / ٣٩٦ ط / دار صادر – بيروت – غير مؤرخة ، وروح المعاني للآلوسي ١٨ / ٢ – ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – رابعة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨ / ٥ ط / الدَّار التونسيَّة للطباعة والنَّشر – غير مؤرخة .
(٤) يُنظر : السابق .

هذا، والتسميتان المذكورتان قد وردتا في السُّنَّة المُطهَّرة ، فهي تسمية توقيفية .

ففي صحيح البخاري جاء ما نصُّه : " ويُذكر عن عبد الله ابن السَّائب : قرأ النبي ﷺ (المؤمنون) في الصُّبح ، حتى إذا جاء ذِكْرُ (موسى وهارون) ، أو ذِكْرُ (عيسى) أَخَذَتهُ سَعْلَةٌ [١] فركع " [٢] .

ثانيا : **ترتيب السورة في المصحف الشريف** :

سورة (المؤمنون) في الترتيب المُصحفي هي السورة الثالثة والعشرون من سور القرآن الكريم ، وتجئ في ترتيب السور عقب سورة (الحج) ، وذُكِر في المُصحف أنها [٣] نزلت بعد سورة (الأنبياء) ، وقبل سورة (السَّجدة) [٤] .

ثالثاً : **مكان نزول السورة** :

أجمع العلماء على أنَّ السورة الكريمة مكّية ، واستثنى بعضهم (أربع عشرة آية) بدءاً من قوله تعالى : {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} إلى قوله سبحانه : { حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } [٥] .

---

(١) سُعلةٌ : بفتح (السين) من السَّعال ، ويجوز ضمُّها ، والسَّعلة : الشَّهْقَة ، أو الشَّرقة . ينظر : فتح الباري لابن حجر – تحقيق / محب الدين الخطيب ، وهو بصدد تعليقه على الحديث المذكور ، وشرحه له ٢/ ٣٠٠ ط / دار المطبعة السَّلفية – ثالثة ١٤٠٧هـ ، ويُنظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للإمام القسطلاني٢/ ٩٥ – نشر/دار صادر – ط/المطبعة الكبرى الأميرية – سادسة ١٣٠٤ هـ .

(٢) صحيح البخاري مع كشف المُشكل للإمام ابن الجوزي – تحقيق / د / مصطفي الذَّهبي ١ / ٣٤٧ (كتاب : الأذان – باب : الجمع بين السُّرتين في الرَّكعة) – طبع ونشر / دار الحديث بالقاهرة – غير مؤرخة .

(٣) أي سورة (المؤمنون) .

(٤) ينظر : البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ١٩٣ نشر / مكتبة دار التراث بالقاهرة – غير مؤرخة ، والاتقان للسيوطي ١ / ١٠ ، ١١ .

(٥) الآيات (٦٤ : ٧٧) من سورة (المؤمنون) ، وينظر : بصائر ذوى التمييز في الطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادى – تحقيق الأستاذ / محمد على النَّجار ١ / ٣٢٩ ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – ثانية ١٤٠٦ هـ ، وينظر : الاتقان ١ / ١٦ ، وروح المعاني ١٨ / ٢ ، تفسير القاسمي المُسمَّى (محاسن التأويل) ـ ١٢ / ٤٣٨٦ ط / دار إحياء الكتب العربية – الحلبى – غير مؤرخة .

وقال آخرون : كُلُّ السُّورة مكية إلا ثلاث آيات فإنَّهُن مدنيات ، وهى قوله تعالى : { ولَوْ رَحِمْنَاهُمْ وكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . ولَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ومَا يَتَضَرَّعُونَ .حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}(١) .

رابعاً : فضل سورة المؤمنون :

وعن فضل سورة (المؤمنون) ، وردت آثار في السنة النبوية المطهَّرة تدل على ذلك الفضل منها :

١- ما ذكره الإمام البخاري في كتابه : (الأدب المفرد) قائلاً : حدَّثنا عبد السلام قال : حدَّثنا جعفر عن أبى عمران عن يزيد بن باينوس قال : دَخَلْنا على عائشة – رضى الله عنها – فقلنا : يا أُمَّ المؤمنين ، ما كان خُلُقُ رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خُلُقُه القرآن (٢) ، تقرءون سورة المؤمنين، قالت: اقرأ {قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ }، قال يزيد: فقرأت: { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ} إلى {لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } قالت: كان خلق رسول الله ﷺ(٣) .

وواضح أنَّ السيِّدة عائشة – رضى الله عنها – أبرزت لنا فيما قالته – عِظَم فضل السورة الكريمة ، مشيرة إلى أخلاق رسول الله ﷺ التي ينبغي على كُلِّ من

---

(١) الآيات (٧٥ : ٧٧) من سورة (المؤمنون) ، وينظر : حاشية الصاوي على الجلالين ٣ / ٩٣ ط / دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبى) – غير مؤرَّخة .

(٢) أي كان متمسكاً بآداب القرآن وأوامره ونواهيه ، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف ، فكان ﷺ يرضى لرضا القرآن الكريم ، ويسخط لسخطه ، ويُسارع ﷺ إلى ما حثَّ عليه القرآن الكريم ، وبالجملة فقد كان ﷺ يُفَسِّرُ القرآن الكريم بقوله ، وعلمه ، وسلوكه – (ينظر : غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول – بحاشية التاج الجامع للأصول للشيخ / منصور على ناصف ٢ / ٦٢ ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – غير مؤرَّخة)، وينظر أيضاً : (موسوعة أخلاق القرآن للدكتور / أحمد الشرباصي المجلد الأول١/ك (مقدِّمة المؤلِّف) ط / دار الرائد العربي – بيروت – لبنان – ثانية ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

(٣) الأدب المفرد للإمام البخاري – باب : من دعا الله أن يُحسِّن خُلُقه صـ ٩٣ – نشر / مكتبة الآداب ١٩٧٩ م ، ويُنظر : تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣ / ٢٣٧ – نشر : مكتبة التراث الإسلامي ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

آمن بالله ﷻ رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن دستوراً ، وبمحمَّدٍ ﷺ نبياً ورسولاً ، أن يتخلق بها ، تلك الأخلاق التي كان من بينها ما دلَّت عليها الآيات التي افتُتحت بها (سورة المؤمنون) ، والمُتضمِّنة لعدَّة صفات كان يتصف بها رسول الله ﷺ، تلك الصِّفات التي إذا التزم بها المسلم كان من أحسن الناس أخلاقاً ، وأحبَّ الخلق إلى الله ﷻ وإلى قائد الأمة رسول الله ﷺ يدُلُّنا على ذلك قوله ﷺ في الحديث الشريف : " إنَّ مَن أحبِّكُم إليَّ وأقربِكم منِّى مَجْلِساً يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقاً . .. الحديث " [١] .

وبعد هذا العرض الوارد في شأن فضل سورة (المؤمنون) ، يمكن القول : بأنَّ من حقِّ رسول الله ﷺ ، أن يُحب تلك السورة الكريمة ، ويوصِى أُمَّته بحبِّها ، وأن يُقوِّموا أنفسهم بتربيتها على ما ورد فيها من صالح الخِلال وعظيم الصِّفات ، كيف لا ؟ وهى تحمل للرسول ﷺ ولأمته من بعده بشرى عظيمة متمثِّلة في الوعد بالفلاح في الدُّنيا والآخرة ، لمن ينتفع بالصِّفات والسلوكيات والأخلاق الواردة في مطلع السورة الكريمة ، ويُطبِّقها على نفسه تطبيقاً عمليَّاً ، دونما أي تهاون في شيء منها ، هذا الفلاح ينتهى حتماً بالفوز بدخول الجنَّة في الآخرة تصديقاً لوعد الله ﷻ حيث قال تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ . والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . والَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ. والَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ . الَذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [٢] .

---

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ٨ / ١٧٤ (كتاب : البرِّ والصِّلة) – باب : (ما جاء في معالى الأخلاق) – الحديث رقم ٢٠٢٣ (ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان) – أولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .
(٢) الآيات (١ – ١١) من سورة المؤمنون .

خامساً : مُناسبة السورة الكريمة لما قبلها :

هذا ، وما يعنينا في هذا المقام هو ما يختص بسورة (المؤمنون) من ناحية البحث عن وجوه التناسب والارتباط بينها ، وبين سورة (الحجِّ) الواردة قبلها في الترتيب المصحفي[١] ، على الرَّغم من تباين وتغاير زمان ومكان السورتين، فسورة (الحج) نزلت بعد الهجرة بـ (المدينة) ، وسورة (المؤمنون) نزلت عقب سورة (الأنبياء) قبل الهجرة بـ (مكة) ، وذلك على نحو ما أشار إليه المُحققون من أهل العلم [٢] ، ذاهبين إلى أنّ للقرآن الكريم ترتيبين :

أحدهما : نزولي [٣] ، **والآخر** : ترتيب مصحفي وتلاوة ، وأنَّ كُلاًّ منهما اقتضته الحكمة الإلهية ، فالأول : إنَّما كان على حسب الوقائع والأحداث ،

---

(١) حيث إننا ألفينا فيما سبق (في صدر هذا البحث) أنَّ سورة (المؤمنون) في الترتيب المصحفي هي السورة (الثالثة والعشرون) سور القرآن الكريم ، وأنَّها جاءت في الترتيب المذكور عقب سورة (الحج) .

(٢) العلماء على أنَّ كُلاً من السُّورتين (الأنبياء والمؤمنون) مكيٌّ ، وأنَّ الأولى منهما اختُصَّت باسم توقيفي (الأنبياء) ، ولم يُذكر لها سوى هذا الاسم ، والثانية وُسِمت بـ (المؤمنون) ، وهو أيضاً الاسم التوقيفي الذى عُرفت به على نحو ما مرَّ بيانه في صدر هذا البحث . (وينظر : البرهان في علوم القرآن ١ / ١٩٣ ، والاتقان ١ / ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٩٤) .
ويبدو – والله أعلم – أنَّ السِّر في نزول سورة (المؤمنون) عقب سورة (الأنبياء) يتمثل في أنَّه : لمَّا كان الأنبياء – عليهم السلام – أعلى درجة في القُرْب من الله ﷻ وفي الإيمان به – سبحانه – وكان الذى يلى (الأنبياء) في تلك الدرجة هم (المؤمنون) بهم وبرسالاتهم التي أرسلوا بها من قِبَل خالقهم – جَلَّ وعلا – ترتَّب على ذلك ورود سورة خاصة لكل منهما في القرآن الكريم ، يتم فيها ذِكْر أحوالهم التي تُميِّزهم عن غيرهم ، وكذلك الأحداث والوقائع المتعلِّقة بشأن كُلٍّ مما ناسب مجيء السُّورة الثانية (المؤمنون) مُرتَّبة على الأولى (الأنبياء) في النزول لِشدَّة ارتباط أحدهما بالأخرى .

(٣) ليس من شأني هذا البحث عن وجوه التناسب والارتباط بين موضوعات كُلٍّ من سورتي (الأنبياء والمؤمنون) ، باعتبار أنَّ الثانية منهما ، مُرتبة على الأولى في النزول ، إذ إنَّ في ذلك خروجاً عن مجال البحث ، فضلاً عن أنه يؤدى إلى اتساعه ، ولكن يكفي فقط أن أشير إلى أنَّ المتدبِّر الواعي الحصيف إذا نظر في آيات كُلٍّ من السورتين الكريمتين ، وقارن بينهما يقف على الكثرة الكاثرة من وجوه الارتباط العامة بين موضوعات كُلٍّ ، وأنَّ كُلاً منهما تختص بموضوعات لا تختص به السورة الأخرى ، ذلك بالإضافة إلى أنَّ كُلَّ سورة بذاتها لها وحدتها الموضوعية.

والترتيب الثاني مبنيٌّ على الحكمة والتأصيل [١] ، ومن ثم كان مجيء سورة (المؤمنون) تالياً لسورة (الحج) في الترتيب المُصحفي .

إذ إنَّ المتدبِّر في المجيء المذكور ، يلحظ أنَّه كان في غاية الدِّقَّة والإحكام ، حيث إنَّ العلاقة بين كُلٍّ من السورتين جدٌّ وثيقة ، ويبرُزُ لنا ذلك من خلال دراسة آيات وموضوعات كُلٍّ منهما ، تلك الدِّراسة التي تُجلِّي لنا وجوها ، من التناسب تستدعي التَّأمُّل والاعتبار ، وتدُلُّ على حُسن تجاور السورتين الكريمتين ، وتلاحمهما ، وتناسقهما ، وتلازمهما ، وعلى صِحَّة ترتيب سورة (المؤمنون) على سورة (الحج) ، وأنَّه ليس بالإمكان وضع غيرهما موضعهما، فالسورتان متكاملتان ، حيث إنَّ بعضاً مِمَّا ورد في سورة (الحج) جاء مُجملاً وغير مفصَّل ، فجاءت سورة (المؤمنون) مُتأخِّرة عليها في الترتيب، لبيان ما أُجمل ، ولتفصيل ما لم يُفصَّل في سابقتها [٢] .

سادساً : أغراض ومقاصد السورة الكريمة :

لمَّا كانت هذه السورة (مكِّية) – كما سبق أن ذكرت [٣] – كان لها اهتمام خاص بالجانب العقائدي ، شأنها في ذلك شأنُ أخواتها من السُّور المكِّية

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن ١/٢٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، /٢٣٤ : ٢٣٧ ، /٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩، ٢٦٠ ، وينظر : الإتقان ١ / ٤٠ ، ٤١ ، / ٦٠ : ٦٢ ، ٢ / ١٠٨ .

(٢) قال الإمام (أبو إسحاق الشاطبي) : " المدنيُّ من السُّور ينبغي أن يكون مُنزَّلاً في الفهم على المكِّي ، وكذلك المكِّيُّ بعضه مع بعض ، والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلاَّ لم يصح ، والدليل على ذلك : أنَّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبنيٌّ على المكِّيِّ ، كما أنَّ المُتأخِّر من كُلٍّ واحد منهما مبنيٌّ على مُتقدِّمه ، دلَّ على ذلك الاستقراء ، وذلك إنَّما يكون ببيان مُجمل ، أو تخصيص عموم ، أو تقييد مُطلق ، أو تفصيل ما لم يُفصَّل ، أو تكميل ما لم يظهر تكميله " – الموافقات في أصول الشريعة للإمام (أبي إسحاق الشاطبي) – شرح وتحقيق فضيلة الشيخ / عبد الله دُراز ٣ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ – نشر / دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط / أولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م ، وينظر : تناسق الدُّرر في تناسب السور للإمام السيوطي – تحقيق / عبد الله محمد الدرويش / ٢٤ ، ٢٥ – نشر / عالم الكتب – بيروت – لبنان – ط / ثانية ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .

(٣) وذلك عند الحديث عن مكان السورة الكريمة .

الأخرى التي تهتم بالقضايا المُتعلِّقة ببناء العقيدة ، و" تدور آياتها حول محور تحقيق الوحدانية، وإبطال الشِّرْك، ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه"(١)، والتي تتميَّز بطابع خاص في الأسلوب والمضمون ، وهذا الطابع يمكن الإشارة إليه على سبيل الإجمال في أمور ثلاثة – وهى خصائص سورة (المؤمنون) وما على شاكلتها من سائر السور المكية – ذلك على نحو ما جاء على لسان الإمام الشاطبي حينما قال : " وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة ، وإن اشتملت على معانٍ كثيرة ، فإنَّها مِن المكِّيات ، وغالبُ المكِّي أنَّه مُقرَّرٌ لثلاثة معانٍ ، أصلها معنىً واحد ، وهو الدُّعاء إلى عبادة الله تعالى :

أحدها : تقرير الوحدانية لله الواحد الحقِّ ، غير أنَّه يأتي على وجوه ، كنفي الشريك بإطلاق ، أو نفيه بقيد ما ادَّعاه الكُفَّارِ في وقائع مُختلفة ، من كونِه مُقَرِّباً إلى الله زُلْفي ، أو كونه وَلَدا ، أو غير ذلك من أنواع الدَّعاوى الفاسدة .

والثاني : تقرير النُّبوَّة للنبي محمد – عليه الصلاة والسلام – وأنَّهُ رسول الله إليهم جميعاً ، صادق فيما جاء به من عند الله إلاَّ أنَّه واردٌ على وجوه أيضاً، كإثبات كونه رسولاً حقَّاً ، ونفي ما ادعوه عليه من أنَّه كاذِبٌ ، أو ساحر ، أو مجنون ، أو يُعَلِّمُه بشر ، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعناهم .

والثالث : إثبات أمر البعث والدَّار الآخرة ، وأنَّه حقٌّ لا ريب فيه ، بالأدلَّة الواضحة ، والرَّدُّ على من أنكر بكل وجه يُمكن الكافر إنكاره به ، فَرَدَّ بكل وجه يُلزِم الحُجَّةَ ويُبكِّت الخصم ، ويوضِّح الأمر .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٦ ، وينظر : الموافقات للإمام الشاطبي ٣ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المُنَزَّل من القُرآن بمكَّة في عامَّةِ الأمر ، وما ظهر ببادئ الرأي خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب ، والأمثال والقصص ، وذكر الجنَّة والنار ، ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك .

فإذا تقرَّر هذا ، وعدنا إلى النَّظر في سورة المؤمنين مثلاً ، وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه إلاَّ أنَّه غلب على نسقها ذكرُ إنكار الكُفَّار للنبوَّة . . . وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ، ترفُّعاً منهم أنْ يُرسل إليهم من هو مثلُهم ، أو يَنال هذه الرُّتبة غيرهم إن جاءت ، فكانت السورة تُبيِّن وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها ، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى ... " [١] .

سابعًا : **سبب تسمية السورة الكريمة بما سُمِّيت به** :

أهل التحقيق من العلماء الفضلاء من سلفنا الصالح – رضى الله عنهم – الذين قيَّضهم الله ﷻ لخدمة القرآن الكريم ، ذهبوا إلى أنَّ كُلَّ سورة من الكتاب العزيز سُمِّيت باسمها الخاص بها " بتوقيف من النبي ﷺ وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار " [٢] ، وهذا يعنى أنَّ لكل سورة من سور القرآن الكريم اسماً سمَّاها به رسول الله ﷺ [٣] .

وفيما يتعلق بسورة (المؤمنون) فهي من السور التي لم يُذكر لها إلا اسم واحد توقيفي (المؤمنون) على الحكاية ، و (المؤمنين) على الإضافة ،

(١) الموافقات في أصول الشريعة – المُجلد الثاني ٣ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .
(٢) الإتقان ١ / ٥٢ .
(٣) ينظر : تفسير الطبرى المُسمَّى بـ (جامع البيان في تأويل القرآن) – تحقيق / أحمد محمد شاكر ١ / ١٠٠ – نشر / مؤسسة الرسالة – ط / أولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

وهذ هو الغالب عليها [١] – شأنها في ذلك شأن كل السور القرآنية [٢] – واسمان اصطلاحيان هما : (الفلاح ، وقد أفلح) ، وهذان الاسمان من إطلاقات بعض المفسِّرين الاجتهادية ، على نحو ما مر بيانه ، من أنَّ فواتح السور القرآنية يمكن أن تطلق على أنَّها أسماءٌ لها [٣] ، باعتبارها أظهر مُسمَّاها ، فهذه الفواتح تُميِّز كُلَّ سورة عن الأخرى .

إذ إنَّ السورة الكريمة لمَّا جاءت مفتتحة بالإخبار عن فلاح المؤمنين { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [٤] وسمها بعض المفسِّرين باسم (الفلاح) والبعض الآخر باسم (قد أفلح) [٥] ، حيث إنَّ الاقتناع المذكور – من وجهة نظرهم – هو أظهرُ مسمَّاها ، وعَلَمُ عليها ، فهو الذى يُميِّزُها عن غيرها من السور .

ولا يخفى ما بين اسمها التوقيفي (المؤمنون) ، والاسمين الاصطلاحيين المشار إليهما من صِلةٍ وثيقة ، إذ إنَّ الإخبار عن المؤمنين بفلاحهم ، إنما كان

---

(١) إنَّما كان الاسم التوقيفي هو الغالب على تلك السورة الكريمة ، لكثرة الأحاديث الدَّالة على غالبية هذا الاسم لها ، تلك الأحاديث الواردة على ألسنة بعض الصَّحابة – رضى الله عنهم – ولا شك في أنَّ ما ورد على ألسنتهم من تسمية للسورة الكريمة ، ليس من خواطرهم ، وإنَّما كان مِمَّا حفظوه عن رسول الله ﷺ بعدما نطق به ، كما هو واضح من الحديثين الواردين في صدر هذا البحث ، ومما رواه النسائي في مسنده من " أنَّ النبي ﷺ صلَّى يوم فتح مَكَّة في قُبُل الكعبة ، فخلع نعليه، فوضعهما عن يساره ، فافتتح بسورة (المؤمنين) ، فلمَّا جاء ذكر موسى) ، أو (عيسى) – عليهما السلام – أخذته سعْلة فركع " – سنن النسائي ٢ / ١٧٦ (باب : قراءة بعض السُّور) .

(٢) وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطي قائلاً : " إنَّه ثبت أنَّ جميع السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار " ، والحديث الوارد في شأن سورة الفاتحة ، والذى ذكره الإمام الطبرى على نحو ما أسلفت منذ قليل ، وكما هو واضح أيضاً من قول النبي ﷺ : (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه) – صحيح البخاري ٣ / ٥٨١ (كتاب : فضائل القرآن – باب : من لم ير بأساً أن يقول : سورة البقرة ، وسورة كذا ، وكذا) – الحديث رقم ٥٠٤٠ ، وقوله ﷺ : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) – السابق ١ / (كتاب : الأذان – باب : وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر وفي السفر) – الحديث رقم ٥٧٦ ، وينظر أيضاً : ما ورد في بابى (أسماء سور القرآن) ، و (فضائل القرآن) من خلال كتاب : الإتقان ١ / ٥٢ : ٥٦ ، ٢ / ١٥١ : ١٥٦ .

(٣) سبقت الإشارة إلى ذلك في صدر هذا البحث .

(٤) الآية رقم (١) من سورة (المؤمنون) .

(٥) ذلك على اعتبار أنَّه ليس هناك سورة أخرى في القرآن الكريم كله مفتتحة بما افتُتحت به تلك السورة الكريمة .

بسبب اتصافهم بالصِّفات المذكورة لهم التي هي مدعاة لفلاحهم ، والواردة في شأنهم في مطلع السورة الكريمة .

وباستعراض ما سبق ذكره من آراء لبعض أهل العلم والبيان ، وبالتأمُّل فيها نلحظ أنَّها اتفقت جميعها على أنَّ هُناك عظيم اعتلاق بين اسم السورة الكريمة، وبين مضمونها المتمثِّل في موضوعها، ومقصدها ، وأهدافها ، وأنَّ اختيار لفظ (المؤمنون) اسماً لها لم يجئ مُجازفة ، وإنما كان إعلاء لشأن المؤمنين المفلحين ، ورِفعةً لمكانتهم بذكرهم ، فمن أجلِ ذلك وردت سورة في القرآن الكريم باسمهم متضمِّنةً لصفاتهم المادحة لهم ، تلك الصفات التي يتحقَّق بها إيمانهم الذى يكون سبباً لأمنهم ، وسعادتهم ، وفلاحهم في الدُّنيا والآخرة ، وأنَّ ذلك الاسم المذكور للسورة الكريمة مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الكُلِّى المُهيمن على تلك السورة ، ودالٌّ على المُراد، ومنبئ عن المقصود [١] .

وملخص القول هو: أنَّ قارئ الآيات الإحدى عشرة الأولى من فاتحة السورة الكريمة ومطلعها – والتي لم تُستفتح سورة بمثل ما افتُتحت به – يُدرك مناسبة ذلك المطلع لمقصودها الأعظم المتعلِّق بها ، وهو إبراز جانب من صفات المؤمنين متلوَّة بجزائهم الموعود ، ومستقبلهم النَّضير ، تلك الصِّفات " التي تدور حول تحديد المؤمن – الذى يُريده الله ﷻ – بمن يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخُلُق ، وصلاح العمل ، وبمن يكون في ذلك كُلِّه مثالاً صادقاً ، وصورةً صحيحةً لأوامر الله وإرشاداته " [٢] ، ذلك من خلال الإخبار عن فلاح المؤمنين ، وتوجيههم إلى الأخذ بأسباب ذلك الفلاح .

---

(١) ينظر : الإمام البقاعي (جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم) إعداد / الأستاذ الدكتور / محمود توفيق محمد سعد ، ص ٢٠٤ – بدون ذكر لدار النَّشر ط / أولى ١٤٢٤هـ .
(٢) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) – للإمام الأكبر / محمد شلتوت ص ٥٦٨ – ط/ دار الشروق – الحادية عشرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

وبعد :

من خلال ما سبق يُمكن القول : إنَّ المُتأمِّل في نظم السورة الكريمة ، وفي بدائع ترتيبها ، يُدرك أنَّ لها نصيباً من اسمها ، فالسورة كُلَّها تتحدَّث عن الإيمان ودلائله وقضاياه ، وقد أبانت عن الفرق بين مَنْ سلكوا الطريق السوىِّ ، وتعلَّقت أبصارهم بالآخرة ، فاستشعروا عظمة الإيمان ، واطمأنت قلوبهم ، وتمسَّكوا بشمائله وخلاله ، بعد أنْ صدَّقوا رُسلَهم ، فكانت لهم البُشْرى بالفلاح في الدُّنيا والآخرة ، تلك البشرى التي يفوزون فيها بالجنَّة ونعيمها الخالد – أقول – أبانت عن الفرق بين هؤلاء ، وبين أولئك الذين أعرضوا ونأوا عن ذلك النهج السَّوِىِّ ، فرفضوا الإيمان بالله ﷻ ، وجحدوا فضل الله عليهم ، وتمرَّدوا على هداياته ، بعد أنْ كذَّبوا رُسله ، سواءٌ أكان أولئك من الأمم البائدة ، والقرون الماضية ، أم من الذين رفضوا الاسلام ، وكذَّبوا نبيَّه ﷺ إذ إنَّ أولئك مصيرهم كالح ، ولا فلاح لهم ، ويبؤون بالنار والخلود فيها ، فيا خيبة مسعاهم ، ويا حسْرةً على غفلتهم .

فهناك إذاً : تباين وتقابل بين المؤمنين وغيرهم من حيث الوعد بالفلاح للمؤمنين ، وتبشيرهم بالثواب العظيم على طاعتهم لله ﷻ والخسران والهلاك لغيرهم ، فمصير كُلٍّ مختلف ، فالفرق واسعٌ بين كُلٍّ من المآلين ، وأنهما كالنقيضين ، فالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنُه الضِّدَّ ، وبضدِّها تتميَّز الأشياء .

وبذا يتأكَّد لنا أن اسم السورة (المؤمنون) جاء بمثابة السِّمة ، والعلامة التي تميِّز الموسومين بتلك السِّمة أكمل تمييز ، عن غيرهم من المكذبين الضالين، ذلك من خلال ذِكرْ سِير وشمائل ومصير كُلٍّ ، فشتان ما بين الفريقين ، في الصِّفات وفي المآل ، فاستحقَّ الفريق المتميِّز ، أنْ تكون السورة الكريمة واردةً باسمه ، لشرفه وفضله ، وقبوله للحق ، بخلاف الفريق الآخر ، تقبيحاً لفعله ، وتشنيعاً لسلوكه ، وسوء مصيره (والعياذ بالله) .

المطلب الثاني

الغاية من ذكر أوصاف (المؤمنين) في القرآن الكريم

إنَّ الذى يتدبَّر كتاب الله – تعالى – ويُعطيه حقَّه من التَّأمُّل والاستبصار يلحظ أنَّ أوصاف أهل الإيمان وفضائلهم وسجاياهم وطبائعهم قد حفل بها القرآن الكريم ، ، وجدَّ في ذكرها بكثرة كاثرة ، في مواضع متعدِّدة من سوره ، لغاية سامية وجليلة ؛ باعتبار أنَّ هذه الأوصاف ، وتلك الفضائل علامات تُبيِّن الطريق السَّويَّ من غيره ، فهي وسيلة من وسائل تهذيب النُّفوس المؤمنة ، وتزكيتها ، واستمالتها ، وتوجيهها إلى التّمسُّك بالهدى الرَّبَّانيِّ المُتمثِّل في الأخلاق الفاضلة ، وتربية تلك النُّفوس على ما ينبغي أن تكون عليه من طاعة لأوامر الله ﷻ واجتناب لنواهيه ، ذلك من خلال الحثِّ على اتصاف تلك النفوس بعظيم المحامد ، وجميل الخِلال ، والخصال التي هي مِنْ صُلْب الدين الحنيف ، والتي بها يتحقَّق الإيمان الذى أمر الله ﷻ به عباده ، وتتجلَّى الغايات النبيلة التي بها يتقرَّب الإنسان إلى ربِّه – سبحانه – إذ إنَّ هذه الصِّفات في مجموعها تقوم " بإبراز السلوك الأخلاقي الصحيح المُصاب للعقيدة الصحيحة " [(١)] ، ولعلَّ هذا ما نفهمُه من قول الله ﷻ : { إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ويُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}[(٢)]، ومن قوله سبحانه : { ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ورَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ولا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خَسَاراً } [(٣)] .

على أنَّ هذه الخِلال والمحامد ورد ذكرها في القُرآن الكريم بأساليب متباينة ، ذلك طبقاً لتغاير الأحوال ، وتفاوت المقامات .

---

(١) دراسات قرآنية ، ص١٣٩، وينظر: موسوعة أخلاق القرآن للدكتور / أحمد الشرباصي ص ١ (مقدِّمة المؤلف) / ك ، ل .
(٢) الآية رقم (٩) من سورة (الإسراء) .
(٣) الآية رقم (٨٢) من السورة نفسها .

يقول الإمام الأكبر (الشيخ محمود شلتوت) في ذلك :" ... نجد القرآن حينما يذكر أوصاف المؤمنين يقتصر مرَّة ويطيل أخرى على حسب المقام الذى سيقت لأجله الأوصاف ، ، والذى يستوعب الآيات يجدها ، تدور حول تحديد المؤمن – الذى يريده الله – بمن يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخُلُق ، وصلاح العمل ، وبمن يكون في ذلك كُلِّه مثالاً صادقاً ، وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته . . . " (١) .

على أنَّه قد " جَرَتْ سُنَّة الله في القرآن أنَّه إذا ذكر كلمة (مؤمنين) أو ما يلتقى معناها كـ (متقين)(٢) أو (مُخبتين)(٣) " (٤)، أو (عباد الرحمن)(٥)، أو (مُحسنين) (٦) ، " أَرْدَفَها بذكر جملة من الصِّفات التي تناسب المقام مِمَّا يتحقَّقُ به مدلول تلك الكلمة " (٧) ، وهذا يعنى أنَّ كُلَّ نوع من الصِّفات في أي سورة ، إنما يكون ذكره ؛ طبقاً لرعاية مقتضى الحال ، وداعية المقام ، باعتبار أنَّ أوصاف أهل الإيمان متعدِّدة ، وأنَّهم يتراوحون في درجات الإيمان المتفاوتة ، فـ (المتقون) لهم أوصاف خاصة بهم ، و (المُخبتون) لهم أوصافهم ، و (عباد الرحمن) لهم ما يُميِّزُهم من الصِّفات ، و (المُحسنون) أهل للتَّحلِّي

---

(١) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ، ص ٥٦٧ .
(٢) وذلك على غرار ما ورد ذكره في قوله تعالى : { الم . ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . . . } الآيات (١ : ٥) من سورة البقرة ، وقوله تعالى : { لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ... } إلى قوله تعالى : { أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ } الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة ، وقوله تعالى : { وسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ...}الآيات (١٣٣: ١٣٥)من سورة آل عمران
(٣) على نحو ما هو وارد في قوله تعالى : { وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ . الذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...} الآيتان (٣٤ ، ٣٥) من سورة الحج .
(٤) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ، ص ٥٦٧ .
(٥) كالآيات الواردة في شأن صفات عباد الرحمن (٦٣ : ٧٦) من سورة الفرقان .
(٦) وذلك كما هو الشأن في الآيات (٣ : ٥) من سورة لقمان .
(٧) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ، ص ٥٦٧ .

بخلال ومحامد تليق بمقامهم ، وهكذا فإنَّ لِكُلٍّ درجته ، وسِماته التي يتميَّزُ بها عن غيره ، على الرَّغم مِنْ أنَّ لفظ (المؤمنين) شامل لِكُلِّ هؤلاء ، إذ إنَّ (الإيمان) هو القاعدة الأساسية التي ينطلق منها الطائعون لله ﷻ إلى تلك الدرجات المتفاوتة (التقوى ، والإخبات ، وعباد الرحمن ، والإحسان) .

* * * * * *

المطلب الثالث

علاقة صفات المؤمنين الواردة في مطلع السورة الكريمة بموضوعها

سبق أن أشرت إلى أنَّ سورة (المؤمنون) من السور المكية التي تهتم بالقضايا المتعلِّقة ببناء العقيدة الصحيحة ، تلك العقيدة النقية الخالصة من أي شائبة ، والمبنية على الإيمان الصحيح بالله ﷻ وحده ، وباليوم الآخر ، وأنَّ ذلك الإيمان هو القضية الكبرى لمضمون السورة ومحورها الأصيل [١] ، ذلك على اعتبار أنَّ تلك السورة الكريمة ، ذات وحدة موضوعية خاصة ، شأنها في ذلك شأن كُلِّ سور القُرآن الكريم [٢] .

هذا ، ولمَّا كانت هذه السورة – على نحو ما سبق ذكره – تتألَّف من عِدَّ معاقد ، أو حلقات متصلة ، ومتناسقة ، وأنَّ كُلَّ حلقةٍ جاءت كالمهاد لها بعدها ، وكالتَّكمُلة لما قبلها ، وكان حديث السورة الرئيس منصبَّاً على الإيمان ، ودلائله ، وقضاياه ، متضمِّناً مجموعة من الدروس الخاصة بالعقيدة ، ذلك تأصيلاً لتلك

---

(١) قد أشرت إلى ذلك قبلاً عند الحديث عن سبب تسمية سورة (المؤمنون) بما سُمِّيت به ، وعند الحديث – كذلك – عن أغراض ومقاصد السورة الكريمة .

(٢) وهذا ما قرَّره كل من (الإمام البقاعي) ، وصاحب (الظلال) حيث يقول الأوَّل : (كُلَّ سورة لها مقصد واحد يُدار عليه أوَّلُها وآخرها ، ويُستدَلُّ عليها فيها ، فتُرتَّب المُقدِّمات الدَّالة عليه على أتقن وجه ، وأبدع نهج ، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استُدِلَّ عليه ، وهكذا في دليل الدليل ، وهلُمَّ جرّاً ، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتداءً ، ثم انعطف الكلام إليه ، وعاد النَّظر عليه ، على نهج بديع ومرقى غير الأوَّل منيع ، فتكون السُّورة كالشَّجرة النَّضيرة العالية والدَّوْحة البهيجة الأنيقة الحالية المُزيَّنة بأنواع الزِّينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدُّرِّ ، وأفنانها مُنعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر ، وكُلُّ دائرة منها لها شُعبة متَّصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة بما بعدها ، وآخر السُّورة قد واصل أوَّلها كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها ، فصارت كُلُّ سورة كدائرة كُبرى مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ البديعة النَّظم العجيبة الضَّم بلين تعاطف أفنانها ، وحُسن تواصل ثمارها وأغصانها) – مصاعد النظر ١ / ١٤٩ .

– أمَّا صاحب (في ظلال القرآن) فقد كان يُعنى بهذه الوحدة الموضوعية مشيراً إليها في كُلِّ سورة بذاتها ، فما من سورة إلاَّ ويتحدَّث عن وحدتها الموضوعية في بداية تناوله لها ، ثم يؤكِّد على ذلك أثناء تأويله للآيات مشيراً إلى وجوه التناسب بين الآيات ، ومنها إلى ما يدلُّ على وثاقة الاعتلاق بين أجزاء السورة القرآنية ، وبين خاتمة السورة ومطلعها .

العقيدة في نفوس أصحابها ، ومتناولاً الكثير من القضايا الإيمانية المُتعلِّقة بمنهج المؤمنين – من بداية السورة حتى نهايتها – بما في ذلك حقيقة الإيمان مقرونة بدلائل التوحيد كما عرضتها الرُّسل الذين أرسلهم الله ﷻ إلى الأمم الخالية مبشِّرين ومُنذِرين ، داعين أقوامهم إلى عبادة الله ﷻ والإيمان به وحده ، ذلك بلسان واحد : { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [١] ، مع عرض مواقف وشبهات المُكذِّبين برُسلِهم ، وبيان عواقبهم الوخيمة التي ألمَّت بهم ، ذلك بالإضافة إلى موقف المُشركين من الرسول ﷺ ... أ . هـ [٢] – أقول : ولمَّا كان حديث السورة الكريمة منصبَّاً على ما ذكرت – وكان الإيمان بالله ﷻ وحده هو الرَّكيزة الكبرى التي تقوم عليها عقيدة الإنسان ناسب، ذلك كُلُّه افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالى:{ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ...} إلى قوله تعالى:{ أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ. الَذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [٣] .

إذ إننا لو أحسنَّا التَّأمُّل ، وَوُفِّقنا إلى التبصُّر فيما ورد ذكره في هذه الافتتاحية ، لوجدناها قد عدَّدت لنا مجموعة من الخصال التي تَبرُزُ لنا من خلالها سِمات وملامح المؤمنين إيماناً صحيحاً ، الذين هم أصحاب " السلوك الأخلاقي الصحيح المصاحب للعقيدة الصحيحة " [٤] التي هي الموضوع الرئيس للسورة الكريمة ، والذى أكَّدت على تقريره ، وبذا تكون تلك الخصال بمثابة التعريف للمؤمنين الحقيقيين الذين ترتبط سلوكياً تهم بعقيدتهم التي أرادها الله ﷻ لعباده ، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ الآيات المذكورة – كما هو واضح – قبل أن تُعدِّد أوصاف هؤلاء المؤمنين استهلَّت الحديث واستفتحته بما يُفيد تبشريهم ، مُقرِّرة لهم الفلاح بهذا

---

(١) جزء من الآية رقم (٢٣) ، والآية رقم (٣٢) من سورة (المؤمنون) .
(٢) ينظر ذلك كُلَّه بالتفصيل فيما أوردته عن سبب تسمية السورة الكريمة بما سُميت به .
(٣) الآيات (١ : ١١) من سورة (المؤمنون) .
(٤) دراسات قرآنية – محمد قطب ، ص ١٣٩ .

التوكيد { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [١] ، ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ ، بل جاءت تلك الصِّفات متلوَّةً ببيان " غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين " [٢] المتصفين بها ، وجزائهم الموعود الذى يستحقونه ، ومكانهم يوم القيامة { أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ . الَذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [٣] ، وهذا يعنى أنَّ فلاح هؤلاء المؤمنين يكون في الدنيا ، وفي الآخرة ، ففي الأولى يكون " باتباع المنهج الحق الذى يُطهِّر القلب ، ويُطهِّر السلوك ، ويرفع الإنسان فوق الدَّنس " [٤] الذى يعيش فيه غيرهم ممن لا يتصفون بهذه الصِّفات التي تكون سبباً في الفلاح ، وفي الثانية (الآخرة) يكون الفلاح الأكبر لهؤلاء المؤمنين ، وهو : وراثة جنة الفردوس ، والخلود فيها ، للتَّرَقُّل في نعيمها .

ومن خلال كُلِّ ما سبق ذكره : تبيَّن لنا أنَّ هناك صِلةً وثيقة بين ما ورد في مطلع سورة (المؤمنون) من صفات تخصُّ المُفلحين من أهل الإيمان ، وبين موضوع تلك السورة الكريمة ، وأنَّ الصِّفات المذكورة جاءت كالمُقدِّمة لموضوعها ، وكالتنبيه على المقصود منه ، وهو أنَّ مجتمع المؤمنين لا يمكن أن يقي نفسه من الشرور ، والآثام التي كان يقترفها المُكذِّبون لرسلهم من لدن (نوح) عليه السلام حتى (خاتم المرسلين) ﷺ إلاَّ بالاتصاف بما ذُكر في مطلع السورة من صفات تُحدِث أثراً طيِّباً في السلوك الإنساني إذا قرَّت في نفوس المُتلقين لها ، وتمسكوا بالاتصاف بها ، إذ إنَّ التَّمسُّك المذكور يُخلِّص تلك النفوس من كُلِّ رجس ، ودنس يُبعد الإنسان عن طاعة خالقه (جلَّ وعلا)،وبهذا التخلُّص يُقْدِمُ أصحاب تلك النفوس بكل همَّةٍ على المسارعة في فعل الخيرات .

---

(١) الآية (١) من سورة (المؤمنون) .
(٢) في ظلال القرآن – المجلد الرابع ص ٢٤٥٧ .
(٣) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة (المؤمنون) .
(٤) دراسات قرآنية ، ص١٩٨ .

على أنَّ السورة الكريمة قد شاع فيها ما شاع من الحديث عن منهج الأنبياء والمُرسلين في الدَّعوة إلى الله وتقواه بما تقتضيه تلك التقوى من إفراده – سبحانه وتعالى – بالعبادة ، وسبحت السورة في ذلك سبحاً طويلاً مُشيرة إلى أنَّ هُناك سُلَّة من البشر كانت قد طغت وتجبَّرت على أنبيائها ورُسلها . . . فحاق بهم ما حاق من الهلال والطرد من رحمة الله [١] ، وترتب على ذلك عدم فلاحهم الذى كشف عنه قوله تعالى : { ومَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ } [٢] .

كُلُّ ذلك ، للدِّلالة على أنَّ هُناك تبايناً وتقابلاً بين المؤمنين الذين يستحقون الفلاح ، وغيرهم ممن لا يستحق تلك الصفة المادحة ، وأن مصير كُلٍّ مختلف ، ومن ثمَّ تتوجَّهُ النفوس المؤمنة إلى ما يُناسبها فتسارع إلى التحلِّي بما يكون سبباً لفلاحها في مقابل التَّخلِّى عَمَّا يؤدى بها إلى الهلاك .

وبذا نُدرك أنَّ العلاقة جدٌّ وثيقة بين ما ورد في أوَّل السورة الكريمة من خصائص تَخُصُّ المؤمنين المُفلحين ، وبين الموضوع الذى تضمَّنته السورة الكريمة ، وعالجته في تضاعيفها .

على أنَّ كُلَّ ما ذكرتُه في هذا الشأن هو ما أدَّى إليه بذل الوسع في محاولة التوصل لإدراكه عن طريق الفكر والتَّدبُّر والقراءة ، والله – سبحانه وتعالى – أعلم بالصواب .

---

(١) حيث قضى الله بإغراق المُكذِّبين لرسولهم من قوم (نوح) ، فقال سبحانه مُخاطباً سيدنا (نوح) : { ولا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } الآية ٢٧ من سورة (المؤمنون) ، وحكم على آخرين بنوع آخر من العذاب ، حيث قال الله ﷻ في شأنهم : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } الآية ٤١ من سورة (المؤمنون) ، وقال جلَّ جلاله في شأن فرعون وملائه الذين كذَّبوا (موسى وهارون) : { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ } الآية ٤٨ من سورة (المؤمنون) ، وقال جل شأنه مُشيراً إلى بُعد هؤلاء الأقوام المُكذبين من رحمة الله ﷻ : { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} الآية ٤٤ من سورة (المؤمنون) .

(٢) الآية (١١٧) من سورة (المؤمنون) .

المطلب الرابع

التلازم بين أوصاف (المؤمنين) في موضوعاتها

يجدر بي – قبل الولوج في دراسة صفات المؤمنين الواردة في السورة الكريمة بلاغياً – أنْ أشير إلى أنَّ هذه الصفات التي هي محلُّ الدراسة لا تُعطينا من أوصاف أهل الإيمان المذكورة في القرآن الكريم إلاَّ بضعاً منها ، وهذا يعني أنَّ الصِّفات التي نحن بصدد الحديث عنها ليس القصد من ذكرها هو الاستيعاب ، أو الحصر ، وإلاَّ فإنَّ هُناك صفاتٍ أُخر للمؤمنين جِدٌ كثيرة ومتنوِّعة ، عرض لها القرآن الكريم بأساليب متباينة ومُختلفة في مواطن جمَّة من سُوَرِه ، ولكلٍّ نوع من تلك الصِّفات سياقه . ومقامه ، ومقتضاه الذى يكشف عن معناه ويوجب تعيينه بالذِّكر ، دون غيره ، كُلٌّ بحسب موقعه في السور التي تناولته ، وموضوعه الوارد بشأنه في القرآن الكريم – ذلك على نحو ما أسلفت [١] منذ قليل – حيث إنَّ تلك الصِّفات ورد ذكرها تفصيلاً في آيات متفرِّقة من الكتاب العزيز، ذلك على حسب الوقائع والدواعي المتباينة تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً [٢] .

أقول : إنَّ الصِّفات المذكورة ليس القصد منها الاستيعاب والحصر ، ولكنَّها أمثلة خُصَّت بالذكر لبروز دورها في السياق الواردة فيه ، حيث جاءت تلك الصِّفات في مكانها من السورة الكريمة ، مرتبطة تماماً بما ورد في خواتيم سورة (الحج) السابقة في الترتيب المُصحفي على سورة (المؤمنون) وكأنَّ اللاحق

---

(١) وذلك عند الحديث عن (الغاية من ذكر أوصاف " المؤمنين " في القرآن الكريم) .

(٢) وذلك حسبما ارتأى أئمة أهل العلم ، مشيرين إلى أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت نزول أكثر آيات القرآن نزولاً مُفرَّقاً على قلب نبيِّنا محمد ﷺ على فترات متباينة ، ومتباعدة ، مقترنة بالوقائع والأحداث ، في ثلاث وعشرين سنة ، أي منذ بعثة النبي ﷺ إلى أن توفي – عليه الصلاة والسلام – ينظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٢٨ : ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، والإتقان ١ / ٣٩ : ٤٤ .

امتداد للسابق ، على نحو ما أوضحت أثناء الحديث عن مناسبة سورة (المؤمنون لسورة الحج) .

هذا ، ولمَّا كانت قضيَّة الإيمان قضيَّة أساسية من أجلها خُلِق الإنس والجن ، كما نصَّ على ذلك القرآن الكريم : { ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [١] كان الإيمان كُلاًّ لا يتجزَّأ ، لأنَّ القيم الإيمانية لا ينفصل بعضها عن بعض في حياة المؤمنين الخُلَّص .

وهذا يعنى أنَّ صفات المؤمنين الواردة بكثرة في القرآن الكريم ، والتي لم يُنصَّ عليها في سورة (المؤمنون) ، وإنْ كانت – تلك الصفات – ليست في الأصل داخلة فيما ذُكِر من صفات تناولتها السورة الكريمة ، إلاَّ أنَّ الصِّفات التي هي محل الدِّراسة لازمة لِما لم تُذكَرْ معها ، وذُكِرت في مواضع آخر [٢] ، إذ إنَّ المؤمن المتصف بما ورد ذكره في سورة (المؤمنون) من عِظيم المَحامد وجميل الخصال ، إذا أراد – ذلك المؤمن – أن يكون مؤمناً حقاً ، صادقاً في إيمانه – المستوجب للفلاح – ثابت العقيدة ، واضح اليقين ، فعليه أن يكون مُهيَّئاً لأن يتوافر فيه جميع ما ذُكِر من أوصاف وسجايا وطبائع تتعلَّق بالمؤمنين ؛ باعتبار أنَّ تلك الأوصاف من المقاصد الشرعية الدَّاخلة تحت أعمال الإيمان ، والتي من خلالها يتحقق بها للعبد وصفُ العبودية الحقَّة ، والقيام بمواجبها ، سواءٌ أكانت تلك الأعمال واردةً في كتاب الله ﷻ أم في سُنَّة رسوله ﷺ حيث إنَّ صفات المؤمنين جميعها لا يتم بعضها بدون بعض ، وأنَّ الإيمان المُطلق يستلزم جميع الأعمال الصالحة على التمام والكمال ، وبلا استثناء ، على نحو ما هو مُبيَّن في

(١) الآية رقم (٥٦) من سورة (الذاريات) .
(٢) ذلك بحسب السياقات والمقامات التي اقتضتها ، إذ إنَّ لكل صفةٍ معنى ، ولكلِّ معنى سياقه ومقامه الذى يقتضيه ، بحيث لا يصلح ذكرُ صفة مكان أخرى .

الكتاب العزيز ، أو في سُنَّة النبي الكريم ﷺ إذ إنَّه لا يكون لأحد إيمان تام صادق إلا بالالتزام بذلك ، وبذا يتميَّز المؤمن الحقيقي عن غيره [١] .

تأكيد السُّنَّة على التلازم بين أوصاف (المؤمنين) في موضوعاتها :

هذا ، وإذا كان القرآن الكريم قد عرض لصفات المؤمنين في مواضع متعدِّدة من سوره ، وأكَّد في الحثِّ على التحلِّي بها ، باعتبار أنَّ تلك الصِّفات وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل المتمثِّل في إيمان الناس بخالقهم ، وطاعته ، وتبيِّن لنا من خلال العَرْضِ المذكور أنَّ هذه الصفات جميعها يتعلَّق بعضها ببعض ، وأنَّ في القرآن الكريم علامات وإشارات واضحة تدُلُّ على أنَّ ثَمَّةَ تلازُماً بيْن أوصاف المؤمنين في موضوعاتها – أقول إذا كان القرآن الكريم قد كشف لنا عن ذلك التلازم – فإنَّ السُّنة النبوية المُطهَّرة قد أقبلت من وراء القرآن ، لتؤكِّد لنا على ضرورة التلازم المذكور ، والحثِّ عليه ، ذلك للدِّلالة على أنَّ الإيمان المُطلق مستلزِمٌ لجميع الأعمال الصالحة .

ومن الأمثلة الكاشفة عن ذلك :-

١- ما بيَّنه النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام ذلكم الحديث المشهور الذى تبيَّن لنا من خلاله أنَّ الدِّين وأهله يجمع بين درجات ثلاث (الإسلام ، والإيمان ، والإحسان) حيث فرَّق النبي عليه السلام بين المُسمِّيات المذكورة ، وكان مما جاء في هذا الحديث : " ... يا مُحمد أخبرني [٢] عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) يُنظر : الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (على سبيل المثال) الصفحات : / ١٤ : ٢٠ ، / ٣٢ : ٣٨ ، / ١٠٣ ، ١٠٤ ، / ١١٣ : ١١٩ ، / ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، / ١٩١ : ١٩٣ ، / ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، / ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ص، ٢٣٦ : ٢٣٨ ، / ٢٦٧ : ٢٦٩ ، / ٢٧٦ : ٢٧٩ ، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز – ط / أولى ١٤٢٥ هـ – ١٤٢٥ م ، وينظر أيضاً : جامع العلوم والحكم – تحقيق / الدكتور محمد بكر إسماعيل / ٤٢ ، ٤٣ ط / فيصل عيسى الحلبى – بدون تأريخ .

(٢) المُستخبر هو : سيدنا جبريل (عليه السلام) .

الإسلام : أنْ تشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله ، وتُقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ... فقال فأخبرني عن الإيمان قال [١] : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، ورُسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه . . . فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبُدَ الله كأنَّك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك . . . الحديث " [٢] .

فهذا الحديث وإنْ كان مسوقاً لبيان أصل كُلٍّ من الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وخصال وموجبات كُلٍّ ، وما يندرج تحتها من أعمال ، وأنَّها في مجموعها تُمثِّل الدِّين الذى أراده الله ﷻ لعباده [٣] ، إلاَّ أنَّ هذا الدِّين يقتضى من أتباعه الالتزام بصفات أُخر – لم تُذكر في هذا الحديث – لا يتم بدونها ، إذ إنَّ تلك الصِفات من صُلْب هذا الدِّين ولوازمه ، وداخلة تحت واجباته ، وذلك الالتزام إنَّما يكون إذا أراد العبْدُ توثيق علاقته بالله ﷻ وأن تكون تلك العلاقة سليمة ومستديمة، فقام بالواجب الذى يفرضه عليه دينه ، وتستوجبه عقيدته ، من الاستقامة على السلوك السَّوىِّ وأدائه على الوجه الذى ينبغي .

ولكى يسمو العبد بإسلامه وإيمانه ، لابد أن يتحوَّل هذا الإسلام ، وذلك الإيمان إلى سلوك عمليٍّ في حياة ذلك العبد ، وأن يكون إسلامه وإيمانه له أثره في السلوك المذكور ، وذلك من خلال الربط بيْن ما ذُكر في الحديث السابق، وبين ما رسمه النبي ﷺ في توجيهاته لأتباعه من أُمته ، وهو يُشرِّع لهم أمر دينهم

---

(١) القائل هو : رسول الله (ﷺ) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١ – كتاب : الإيمان ، باب – بيان الإيمان والإسلام والإحسان / ٢٠٢ (بهامش إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) نشر / دار صادر / ط / المطبعة الكبرى الأميرية – ببولاق – سادسة ١٣٠٤ هـ ، وأخرج هذا الحديث أيضاً البخاري ، في صحيحه في كتاب – باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام . (ينظر : صحيح البخاري ١ / ٤٣ – الحديث رقم ٥٠) .

(٣) يدُلنا على أنَّ هذه الثلاثة (الإسلام ، والإيمان ، والإحسان) جماعُها الدين قول النبي ﷺ في نهاية الحديث المذكور مشيراً إلى السائل : " فإنَّه جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم " .

فيما ذكر ﷺ على لسانه الكريم من أحاديث أُخرى – وهى من الكثرة بمكان – ورد فيها جزئيات وشرائط متباينة للدين ، ومقتضيات وواجبات تقتضيها ، وتتطلَّبها أركان الإسلام وأصوله ، وحقائق الإيمان ومبانيه المذكورة في الحديث السالف الذكر ، باعتبار أنَّ هذه لازمة لتمام تلك ، وأنَّ المُقتَضَى شرط في صِحَّة المُقْتَضِى ، وفي ثبوت حُكْمه من ناحية الكمال ، أو الصلاح [١] ، هذا الشرط يتمثَّلُ في فعل كُلِّ ما هو واجب [٢] ، وترك كُلِّ ما هو مُحرَّمٌ [٣] ، ذلك على نحو ما ورد تفصيله في السُّنَّة النبوية المُطهَّرة ، في غير حديث جبريل ﷺ [٤] الذى سبقت الإشارة إليه ، حيث إنَّ الناظر في النصوص النبوية الشريفة المُتأمِّل فيها يُدرك تمام الإدراك أنَّها نصَّت على أنَّ كُلاًّ من الإسلام و " الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده " [٥] ، وقد كان ذلك النَّص في مواضع كثيرة لا تُحصى.

---

(١) وهذا يعنى أنَّ ما ذُكِر في حديث جبريل ﷺ من أركان الإسلام ، وحقائق وأصول ومبانٍ للإيمان يُمثِّلُ قواعد الدِّين وكُلِّياته ؛ باعتبارها أصلاً لابُدَّ منه ، وأنَّ هذا الأصل مستلزمٌ لما تُرك في الحديث المذكور ، وورد ذِكْرُه مُفصَّلاً في أحاديث أُخرى من أمور جعلها الشارع الحكيم شرطاً في ثبوت حُكْم كُلٍّ من الإسلام والإيمان من الناحيتين المذكورتَيْن ، أعنى ناحية كمالهما أو صلاحهما ، مع ملاحظة أننا لو استعرضنا جميع ما ورد في البيان النبوي الشريف من أقوال للنبي ﷺ وأفعال له ، وتقريرات لوجدنا أن كُلَّ ما جاء به الرسول الكريم ، ودعا إليه غاية في الكمال والصلاح ، وينظر : الإيمان لابن تيمية ، ص ٢٠ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ . وينظر كذلك : الخصائص الفنية في الأدب النبوي للدكتور / محمد بن سعد الدُّبل ، ص ١١٠ – نشر / مكتبة العبيكان – الرِّياض ثانية ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

(٢) أي مِمَّا أمر به الله ﷻ أو أمر به الرسول ﷺ وحثَّ على فعله .

(٣) المقصود بـ (المُحرَّم) هُنا : ما نهى عنه الله ﷻ وحذَّر منه ، أو حثَّ على اجتنابه النبي ﷺ ونفَّر منه .

(٤) وإن دَلَّ هذا فإنَّما يدُلُّ على أنَّ فعل الواجبات وترك المُحرمات ثمرة من ثمرات العمل بأركان كُلٍّ من الإسلام والإيمان الواردة في الحديث المذكور ، ودليل على هذا العمل . ينظر : الإيمان لابن تيمية ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ١٥٢ .

(٥) السابق ص ١٢٦ .

وبعد :

فلعلِّى أسهبتُ بعض الشيء في التأكيد على أنَّ هُناك تلازماً بين أوصاف المؤمنين في موضوعاتها ، ذلك من خلال ما ورد ذكره في القرآن الكريم ، وفي السُّنَّة النبوية المُطهَّرة ، على أنَّ ذلك الإسهاب كان لابد منه ، لأنَّه يُمثِّل خلفية ضرورية لمن يُريد التَّصدِّي لدراسة بعض أوصاف المؤمنين دراسة بلاغية (سواءٌ أكانت تلك الأوصاف واردة في القرآن الكريم ، أم في السُّنَّة النبوية الشريفة) ، ذلك للدِّلالة على أنَّ صفات المؤمنين من المقاصد الشرعية ، وأنه لا يتم بعضها بدون بعض ، حيث إنَّ الإيمان المُطلق يستلزم جميع الأعمال الصالحة التي من خلالها يتحقَّق للعبد وصف العبودية الحقَّة التي هي كُلٌّ لا يتجزَّأ .

الدراسة والتحليل لصفات المُفلحين كما صورتها سورة " المؤمنون "

وتتضمن تلك الدراسة مبحثيه :

المبحث الأول

المعنى العام للآيات التى تضمنت صفات المفلحين في السورة الكريمة

المبحث الثاني

تأمُّلات فيما تضمنته تلك الآيات من أسرار بلاغية

المبحث الأول

المعنى العام للآيات التي تضمنت صفات المفلحين في السورة الكريمة

عندما نُمعن النَّظر في الآيات التي هي مجال الدراسة نجدها تبرز لنا سمات الأمة المؤمنة ، وأنَّها " تدور حول تحديد المؤمن – الذى يُريدُه الله – بمن يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخُلُق ، وصلاح العمل ، وبمن يكون في ذلك كُلِّه مثالاً صادقاً ، وصورة صحيحة ، لأوامر الله وإرشاداته " (١) ، فأرشدت تلك الآيات إلى ما ينبغي أن يتحلَّى به كُلُّ مؤمن في مُجتمع المؤمنين ، كاشفة عن جملة من الصِّفات ، والخلال الحميدة ، التي حثَّ عليها الشرع الحنيف ، والتي إن استشرت في نفوس أتباع المجتمع المذكور استقام حاله ، ونال رضا الله ﷻ وسَعِد في العاجل ، والآجل ، ذلك لِما لهذه الصفات من دور ناهض وفاعل في بناء كُلٍّ من الفرد والمُجتمع بناءً فاضلاً عَقَدِيّاً ، وسلوكيَّاً ، وباعتبارها أساسيَّات حقيقية في الإيمان ، وأنَّ الاتصاف بها بُرهان على صِدْقه في قلوب الخُلَّص من المؤمنين ، ولذا فإنَّ من تمسَّك بهذه الصِّفات ، وعمل بمقتضاها ، وحافظ على ذلك كان مؤمناً كامل الإيمان ، وكان الفلاح حليفه في دُنياه ، وفي أُخراه ، أمَّا من افتقد هذه الصفات ، ولم تتوافر فيه ، فلن يكون له نصيب في هذا الفلاح ألبتَّة ، وإنْ أدَّى شعائر الإسلام ، وأقام حدوده .

على أنَّ تلك الآيات في توجيهها النفوس المؤمنة إلى الأخذ بأسباب الفلاح، قامت بعرض تلك الأسباب بالطريق التي يُقرُّها في القلوب ويُمكِّنُها من النفوس ، بحيث يستفرغ المؤمن جهده في التَّمسُّك بهذه الأسباب مجتمعة ، دون تجزئة ، أو إخلال بواحدٍ منها ؛ لأنها في مجموعها مصدرٌ أصيل للفلاح الدُّنيوي

(١) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ص ٥٦٨ .

والأُخروي ، باعتبارها من قواعد الإيمان وأساسياته ، ومن ثم فإنَّ الإخلال المذكور يتبعه بالضرورة إخلال في تلك القواعد ، وهذه الأساسيات .

كيف لا ؟ والناظر في الآيات الكريمة المتأمِّل فيها يلحظ أنَّ هذه الأسباب عُرِضت بصورة مؤثِّرة ، وموحية ، حتى يتمكَّن المؤمن من تصوُّرها ، حيث جمعت"بين العقيدة المستقِرَّة في القلب ، والسلوك الأخلاقي المُصاحب لها في الواقع المشهود " [١] ، لئلاَّ يُظنَّ أنَّ الإيمان " مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب " [٢] ، إذ إنه والحالة هذه لم يكن الإيمان ذا قيمة ، فلابد إذاً أن يظهر لهذا الإيمان أثره على الجوارح ، وفي السلوك ، والأخلاق ، والأقوال ، والأفعال [٣] ، حتى يكون إيماناً صحيحاً مستقِرَّاً في قلب ذي عقيدة سليمة .

بيان ذلك :

استهلَّت الآيات الكريمة حديثها ببشارة مؤكَّدة للمؤمنين على أنَّ الفلاح مُقرَّرٌ لهم { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ }[٤] .

والمعنى :

فاز وسَعِد بثواب الله ﷻ المؤمنون ، أي الذين صدَّقوا بالله وبوحدانيَّته ، وبملائكته ، وكتبه ، ورُسله ، واليوم الآخر [٥] .

---

(١) دراسات قرآنية ، ص١٤١ .
(٢) دراسات قرآنية ، ص ١٤٠ .
(٣) ينظر : السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، وينظر أيضاً : المؤمنون (آيات وأحاديث) ، ص ٥ .
(٤) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .
(٥) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن للإمام الطَّبرسي ٧ / ١٤٠ منشورات : محمد علي بيضون (دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان) ط / أولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م ، وروح المعاني ٧ / ٥ .

ثم تمضى الآيات بعد ذلك في بيان ما يقتضيه الفلاح المذكور ، مشيرة إلى صفات المبشَّرين به ، وسماتهم ، وملامح إيمانهم ، فتصفهم وصفاً مطوَّلاً ، يُعنَى بإبراز الجانب السلوكي لأولئك المؤمنين ، موحياً إيحاءً واضحاً أنَّ هذه السمات ، وتلك الملامح خصائص أخلاقية ، وأنَّها من جهة هي ثمرة الإيمان ، وأنَّ الإيمان – من جهة أُخرى – هو سلوك عملي ملموس يُترجم عن العقيدة المكنونة في نفوس أصحابها [١] .

فقد بيَّنت (الآيات) أنَّ أوَّل صِفة من صفات المؤمنين المفلحين ، بعد إيمانهم هي : (الخشوع في الصلاة) ، وهذا يعنى أنَّ الشأن في (الصلاة) ليس قاصراً على وظائفها الظاهرة من (قيام ، وقراءة ، وركوع ، وسجود) ، ونحو ذلك مما هو ظاهر فيها، وإنما لابد أن تكون تلك الوظائف مصحوبة بـ (الخشوع) المتمثِّل في " حضور القلب ، وتدبُّر القراءة ، وفهم معانيها ، واستشعار الخضوع والتواضع لله عند الركوع والسجود ، وامتلاء القلب بتعظيم الله وتقديسه عند التكبير والخواطر الدنيوية ، والإعراض عن حديث النَّفس في ذلك ، بل يكون الهمُّ في الصلاة مقصوراً على إقامتها كما أمر الله ، فإنَّ الصلاة مع الغفلة ، وعدم الخشوع والحضور لا حاصل لها ، ولا نفع لها " [٢] .

فالخشوع في الصلاة إذاً هو : " أوَّل مظهر للمؤمن الصادق " [٣] ، وذلك بـ " أن تكون صلاته – وهى اللحظة التي يقف فيها مُتعبِّداً لربَّه ، ذاكراً له في قلبه ، مُتصلاً به بروحه – تكون صلاته هذه اشعة بما يُنبئ عن صدق الصلة بالله، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة " [٤] .

---

(١) ينظر : دراسات القرآنية / ١٣٩ ، والمؤمنون آيات وأحاديث) ، ص ١٢ .
(٢) النصائح الدينية ، ص ٢٨ .
(٣) دراسات قرآنية ، ص١٣٩ .
(٤) السابق .

ثم عرضت الآيات بعد ذلك الصِّفة الثانية لهؤلاء المؤمنين ، وهى " صفة سلوكية أُخرى ذات دلالة " [١] ، تلك هي : (أنهم عن اللغو معرضون) ، فالمؤمن الصادق لابد أن ينأى بنفسه عن (اللغو) في القول ، والفعل ، لفداحته، ولأنَّه (أي اللغو) " لا يُنبئ عن نفس جادَّة ، والإيمان الصحيح يورث النَّفس الجد بما يُشعرُها من ثقل التَّكليف وجِدِّيَّته " [٢]، ولا يستقيم اللَّغو " مع جدِّية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه " [٣] ، ذلك فضلاً عن أنَّه قد يصل بالإنسان إلى حدِّ الابتعاد عن الدِّين ، والتَّخلِّي عن الإيمان .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى السِّمة الثالثة الخاصة بهؤلاء المفلحين ، وهى كما وردت { والَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [٤] ، إذ إنَّ إيمانَهم أدَّى بهم إلى إقبالهم على الله في صلاتهم بخشوع ، وخضوع ، وإلى إعراضهم عن اللغو في كُلِّ مناحي الحياة ، وكُلُّ ذلك كان مدعاة إلى أن تكون نفوس هؤلاء زاكية في حياتهم وفي مجتمعاتهم ، خاليةً من الرذائل والخبائث ، ومن كُلِّ ما هو ذميم ، وفاعلةً لتطهير القلب والمال من أدران الشُّح والبُخل ، ذلك بالإضافة إلى تنقية القلوب ، وتطهيرها من أمراضها المعروفة كالبغض ، والكراهية ، والحقد ، والحسد ، والاشتهاء في الحرام ، وغير ذلك مِمَّا هو مؤذٍ ومشين .

ثم أشارت الآيات إلى علامة رابعة من علامات المؤمنين المفلحين ، وذلك في قوله تعالى : { والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}[٥] .

---

(١) دراسات قرآنية ، ص١٣٩ ، ١٤٠ .
(٢) السابق ص ١٤٠ .
(٣) السابق ص ١٤٠ .
(٤) الآية ٤ من سورة (المؤمنون) .
(٥) الآيتان (٥ ، ٦) من سورة (المؤمنون) .

إذ إنَّ من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم – مع إيمانهم بالله ﷻ – وخشوعهم في الصلاة ، وإعراضهم عن اللغو ، وفعلهم من أجل تزكية نفوسهم من أدران الشُّح والبُخل ، وغير ذلك من المعايب والقبائح وبسبب كُلِّ هذا – هم واقون أنفسَهم وأُسَرَهم ومجتمعاتِهم من السُّقوط في مهاوى الرذيلة بفعل الخطيئة، " فهم لفروجهم حافظون لها من الوقوع في الزِّنا والحرام ملتزمون جانب العفة والطهارة ، وحفظ الفروج إلاَّ من زوجاتهم وإمائهم المملوكات فإنَّهم غير مؤاخذين " (١) .

فهم إذاً " لابد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس ، فلا يتعدُّون حدود الله " (٢) ، تزكيةً لنفوسهم ، وتطهيراً لقلوبهم ، وصوناً للأنساب ، وحفظاً للأعراض ذلك عن طريق " حفظ الفروج من دنس المباشرة في غير الحلال ، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال ، وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب" (٣) ، فهذا هو ديدن المؤمنين المُفلحين الذين هم أهل لذلك النظام المشروع الذى أحلَّه الله ﷻ لهم ، ذلك دون غيرهم الذين يتجاوزون الحدود بالاعتداء على الأعراض ، بطريقة لا يُقرُّها الشرعُ الحنيف ، ويأباها كُلُّ ذي عقل حصيف ، هؤلاء الذين قال الله – تعالى – في شأنهم : { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ } (٤) .

ثم تبين الآيات عن مَنْقَبة خامسة لهؤلاء المؤمنين المفلحين ، حيث قال الله ﷻ في شأنهم : { وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ رَاعُونَ }(٥) ، فمن شمائلهم حفظ الأمانات وأدائها ، ومراعاة العهود والمواثيق وعدم نقضها .

---

(١) المؤمنون (آيات وأحاديث) ، ص ١٩ ، ويُنظر : في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٥ .
(٢) دراسات قرآنية ، ص١٤٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٥ .
(٤) الآية رقم ٧ من سورة (المؤمنون) .
(٥) الآية رقم ٨ من سورة (المؤمنون) .

وخصوصية أخرى يتميَّز بها هؤلاء تلك هي التي أخبر الله ﷻ عنها بقوله: { والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [١] ، فهم إذاً " لا يُفوِّتون الصلاة كسلاً ، ولا يُضيِّعونها إهمالاً ، ولا يُقصِّرون في إقامتها كما ينبغي أن تُقام ، إنَّما يؤدُّونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسُّنن ، مستوفية الأركان والآداب ، حيَّة يستغرق فيها القلب ، وينفعل بها الوجدان " [٢] .

وينتهى سياق الآيات بالتأكيد على ما بدأت به من أنَّ الفلاح محقَّق لأولئك الجامعون لهذه الصفات والسِّمات مقطوع بحصوله لا محالة ، فقال سبحانه مشيراً إلى بُعد مكانتهم ومكانهم يوم القيامة : { أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ . الَذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [٣] .

إذ إنَّهم لما أفلحوا في الدُّنيا باتباعهم المنهج الحق الذى يصل القلوب بالله ﷻ وارتبطت قلوبهم وتعلَّقت نفوسهم بتلك الصِّفات على أساس من الإيمان بخالقهم – جل وعلا – وكان ذلك الإيمان قد تغلغل في تلك القلوب ، وخالط بشاشتها ، بعد اطمئنان النفوس به ، ظفروا في الآخرة بالفوز والفلاح ، واستحقُّوا بذلك وراثة الجن (جنَّة الفردوس) ، والاستقرار فيها بلا زوال .

" وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين ، وليس بعدها من غاية تمتدُّ إليها عين أو خيال " [٤] .

---

(١) الآية رقم ٩ من سورة (المؤمنون) .
(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٦ ، ٢٤٥٧ .
(٣) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة (المؤمنون) .
(٤) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٧ .

وخلاصة القول :

أنَّ الآيات المذكورة تُركّز على جانب من السلوكيات مع بيان جزاء الملتزمين بها ، فهي (الآيات) تضع للمؤمنين سبيل الفلاح وطريقه ، ومن يرغب في هذا السبيل ، فعليه أن يتعهَّد تلك الآيات ويعرف مغزاها ، وأن يشمِّر عن ساعد الجد بعمل الطَّاعات والاجتهاد في العبادة ، والإكثار من العمل الصَّالح ، والتَّقرُّب إلى الله ﷻ بفعل الخشوع في الصَّلاة ، وبالإعراض عن اللغو ، وبفعل الزكاة ، وبحفظ الفروج بالابتعاد عن الزِّنا ، وبأداء الأمانات وحفظها ، وبمراعاة العهود ، وبالمحافظة على الصلاة ، ذلك حتى يكون جديراً بدخول جنَّة الفردوس ، إذ إنَّ الطريق إليها طويل يحتاج إلى زاد كثير من التقوى ، والأعمال الصالحة .

وقد آن لي أن أستمدَّ من الله ﷻ العون والتوفيق ، لتجلية بعض مُراداته – سبحانه – فيما ورد من تلك الصِّفات ، ذلك من خلال إنعام النَّظر ، والتَّدَبُر في الآيات التي تضمَّنتها ، لاستظهار بعضٍ من أسرارها البلاغية ، بحسب ما يفتح الله به علينا ، وبما يرزقنا من الفهم ، سائلاً إيَّاه – سبحانه – أن يمنحنا العون والعزم ، والسَّداد في القول ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وأن يُهيِّئَ لنا من أمرنا رَشَدَاً (سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم) .

* * * * * *

المبحث الثاني

تأمُّلات فيما تضمَّنته تلك الصِّفات من أسرار بلاغية

١ – فائدة تصدير الصفات بقوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمنُونَ } ودلالة مفهومه على العبرة بإيمان المفلحين والقصد من فلاحهم :

بادئ ذي بدء يُمكن القول بأن الناظر في تلك الآيات التي اشتملت على الصِّفات المذكورة فيها ، يلحظ أنها جاءت في عبارات قصيرة محدودة دقيقة ، بحيث يسهُل وقعها على الأسماع ، ويشتدُّ أثرها في نفس كُلِّ مؤمن ، أو في نفس كُلِّ من كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد ، ذلك بالإضافة إلى أنَّ التعبير عن هذه الصفات قد جاء بأسلوب الحقيقة الذى لا يحتمل التَّجوُّز ، أو التَّوسع لأنها (أي الصفات المذكورة) تتصل بالعقيدة ، وبها تتمُّ ، فيجب على كُلِّ مؤمن الاتصاف بها ظاهراً وباطناً ، وعلى أكمل وجه ، حتى يظفر بالفلاح في دنياه ، وفي أخراه .

على أنَّ كُلَّ من له أدنى صلة بالبيان العربي ، لو نظر في كُلِّ آية من تلك الآيات على حدة ، مُمْعِناً التَّأمُّل فيها ، مُحاولاً التَّدبُّر لها ، مُتفرِّساً في جُزئيَّاتها ، واقفاً على المقصود منها ، لإدراك أنَّ كُلَّ آية وإن كانت وجيزةً في مبناها ، إلاَّ أنها عظيمة في معناها .

ومن بلاغة هذه الآيات كذلك مجيؤها مُحكَمةُ الصِّياغة ، والنسيجِ اللغوي للمعاني التي تضمَّنتها هذه الصياغة ، إذ " إنَّ مدار البلاغة ومبناها إنما هو رعاية جانب المعنى وجزالته ، ثم تطبيق اللفظ على ما يقتضيه المقام " [(١)] ، ومن المعلوم عدم انفصال اللفظ عن المعنى ، ومن المعلوم كذلك أنَّ بلاغة القول

---

(١) حاشية شيخ زاده جـ ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

تقتضى إيجاز العبارة ، وكثافة الدِّلالة ، وكُلٌّ من الإحكام والإيجاز من سِمات البلاغة القرآنية ، تلك السِّمات التي تُعدُّ خصائص أصيلة في القرآن الكريم .

ولنا أن نُلاحظ – كذلك – في الآيات الكريمة براعة ترتيب الصِّفات التي ينبغي على المؤمن الاتصاف بها ، ومدى الدِّقة البلاغية في عطف بعضها على بعض ، وفي الإبلاغ عنها بعبارات تُركِّزها في نفوس المؤمنين ، لتعلق بأذهانهم وقلوبهم حيث تعاونت المفردات والجمل ، وتآزرت الفنون ، ولَبِس كُلٌّ منها ثوباً من الصِّياغة والنَّظم المُعجز الذى يجعله في أعلى درجات البلاغة والإعجاز ، وكُلُّ هذا هو ما سأحاول – إن شاء الله – قدْر استطاعتي الاعتناء بإبرازه ، والكشف عنه بتأمُّل في الصفحات التالية .

فأقول مستعيناً بالله جل شأنه : قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ (١) .

والمتأمَّل في هذا القول الكريم يلحظ أنَّه يُقرِّر حقيقة مؤدَّاها أنَّ المؤمنين من أهل الفلاح ، مِمَّا يستلزم إثارة الشعور وتحريك العواطف الجياشة في نفوسهم، باعتبار أنَّ الفلاح مقصد من المقاصد العظيمة التي تحضُّ المؤمنين على فعل الطاعات (٢) ، وذلك تفخيماً لشأنهم .

---

(١) الآية رقم ١ من سورة المؤمنون .

(٢) وذلك على نحو ما شاع ذكره في القرآن الكريم من آيات كثيرة توضِّح لنا ذلك ، ومن بين الآيات قوله تعالى : { وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الآية ٣١ من سورة (النور) ، وقوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الآية رقم ٧٧ من سورة (الحج) ، وقوله تعالى : { فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } جزء من الآية ٦٩ من سورة (الأعراف) ، وغير ذلك من الآيات كالآية (١٨٩) من سورة (البقرة) ، والآيتان (١٣٠ ، ٢٠٠) من سورة (آل عمران) ، والآيات (٣٥ ، ٩٠ ، ١٠٠) من سورة (المائدة) ، والآية (٤٥) من سورة (الأنفال) ، والآية (١٠٠) من سورة (الجمعة) ، وغير ذلك كثير .

إذ إنَّه لمَّا كانت السورة الكريمة مكِّيَّة – كما سبق أن رأينا [١] – وكانت قد نزلت وقت تأسيس الدعوة إلى التوحيد بدأت بقوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ} ؛ تمهيداً لغرس الإقبال على الإيمان في النفوس ، وتهيئة لاستقبال أسباب ذلك الفلاح ، وشحْذاً لهمم المُتلقِّين ، ودفعاً لهم لمتابعة ما يأتي بعد ذلك من آيات ، حرصاً على معرفة الأسباب المُرتبطة بهذا الفلاح ، فإذا ما تابع المُتلقِّي قراءته لتلك الآيات ، سُرعان ما يتكشَّف له أنها جامعة للعديد من الصِّفات التي يجب أن يتحلَّى بها كُلُّ مؤمن لكى ينال هذا الفلاح الذى كفله الله ﷻ للمؤمنين .

فالآية المذكورة إذاً جاءت "وطاءً ومهاداً للحديث عن أوصاف المؤمنين"[٢]، واصفة إيَّاهم وصفاً مجملاً يُحدِّد مصيرهم بالثناء البالغ عليهم { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ} [٣] ، لما لهذا الثناء من أثر عظيم في نفوسهم ، باعتبار أنَّ هذا الثناء وسيلة من وسائل التشويق والإيقاظ ، طلباً لتقرير المعنى ، إذ إنَّ المُخاطب بمجرَّد سماعه للآية المذكورة تتشوَّق نفسه إلى معرفة ما يُحقِّق لها سعادتها ، ويجلب لها فلاحها ، فإذا ما وقف عليه " بعد الطلب له ، أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى وبالمزيَّة أولى ، فكان موقعه من النفس أجلَّ وألطف " [٤] ، ومن ثم تحصل الفائدة لدى كُلِّ ذى لُبٍّ استقرَّ في ضميره واعتقاده أنَّ هناك من السلوكيات ما تجعله ينخرط في زُمرة هؤلاء المؤمنين المفلحين ، وحينئذ يتحقَّق عنده الدافع للوصول إلى هذه الغاية السَّامقة ، من خلال تمسُّكه

---

(١) وذلك عند الحديث عن مكان نزول السورة الكريمة .
(٢) من أسرار التعبير القرآنى (دراسة لسورة الأحزاب) للدكتور / محمد أبي موسى ص ٩٨ – ط دار الفكر العربي ١٩٧٥م .
(٣) الآية رقم ١ من سورة (المؤمنون) .
(٤) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر – تحقيق / ريتر ، ص ١٢٦ – نشر / مكتبة المتنبي– ط/ ثانية ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

بهذه السلوكيات ، باعتبار أنَّ الفلاح في الدُّنيا والآخرة هو غاية كُلِّ مؤمن .

وبذا ندرك أنَّ الفائدة التي من أجلها بدأت الآيات بالإخبار عن فلاح المؤمنين تتمثل في أنَّ هذا الإخبار جاء تمهيداً لمضمون طلب التَّحلِّي بعدة صفات تُميِّز المؤمنين عن غيرهم ، وأنَّ هذا التمهيد يهدف إلى إغراء المؤمنين بالفضل، وترغيبهم في الفوز بالفلاح ، والمبادرة إليه ، باقتناص أسبابه الآتية بعد [١] ، والعمل بموجبها ، ذلك على سبيل ما يُعرف عند أهل البلاغة والبيان بـ (براعة الاستهلال) الذى هو ضرب من ضروب الكلام التي تلفت انتباه المُتلقِّي ، وتستحضر ذهنه ، إثارة لوعيه ، لمتابعة أطراف الكلام ، والإصغاء إليه ، حتَّى يعيه ، ويتمكَّن في نفسه فضل تمكُّن [٢] .

ويمكن القول – بالإضافة إلى ما سبق – أنَّ التصدير بالآية المذكور نوع من أنواع البيان الذى يُسمَّى بالاستدراج ، والذى عرَّفه التَّنوخي بقوله : "... وهو

---

(١) أعنى الأسباب المتمثِّلة في التَّحلِّي بالصِّفات التي تضمَّنتها الآيات (٢ : ٩) من سورة (المؤمنون) .

(٢) ولذلك عدَّ الإمام السيوطي أسلوب (براعة الاستهلال) نوعاً من أنواع (حسن الابتداء) بل جعل الأول ذروة سنام الثاني الذى هو نوع من أنواع بدائع القرآن ، وضرب من ضروب حسن مطالع السور ، وفواتحها ، وقال عن هذا الحسن مُعرِّفاً إيَّاه: " وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين . وهو أن يُتأنَّق في أوَّل الكلام ، لأنَّه أوَّل ما يقرع السَّمع ، فإنْ كان مُحرِّراً قَبِل السَّامع قبلَ الكلام ووعاه ، وإلاَّ أعرض عنه ، وإن كان في نهاية الحُسن ، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ ، وأرقِّه ، وأجزله وأسلسه ، وأحسنه نظماً وسبكاً ، وأصحِّه معنى وأوضحه ، وأخلاه من التَّعقيد والتَّقديم المُلبس ، أو الذى لا يُناسب ، وقالوا : قد أتت فواتح جميع السور على أحسن الوجوه وأكملها . . . " .
ـ ويواصل الإمام السيوطي مشيراً إلى (براعة الاستهلال) معرِّفاً إياها بقوله : " ومن الابتداء الحسن نوع أخصُّ منه يسمى : " براعة الاستهلال ، وهو : أن يشتمل أوَّل الكلام على ما يُناسب الحال المُتكلَّم فيه ، ويُشير إلى ما سيق الكلام لأجله " – معترك الأقران ١ / ٧٥ ، ويُنظر : الإتقان ٢ / ١٠٦ ، ويُنظر : الإيضاح للخطيب / ٢٤١ ، ٢٤٢ ، والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان للإمام الطيبي – تحقيق الدكتور/ هادى عطية مطر الهلالي / ٤٥٦ نشر/ مكتبة النهضة المصرية ط / أولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

استمالة المُخاطَب بما يؤثرُه ويأنسُ إليه ، أو بما يُخوِّفه أو ما يُرغِّبه قبل أن يُفاجئه المُخاطِب بما يُطلب منه ..." [١] .

وبناءً على ما ساقه التَّنوخي من تعريف للاستدراج يتجلَّى لنا أنَّ الآيات الكريمة بدأت باستحضار الثواب الذى ينتظر المؤمنين ، وتبشيرهم بأنَّ لهم مطلق الفلاح ، ذلك لاستمالتهم بما يؤثرونه ، ويأنسون إليه ، ويرغبون فيه ، وذلك قبل أن يُفاجأوا بما يُطلب منهم من الاتصاف بالخلال الحميدة ، إذ إنَّ الفلاح مِمَّا يرغب فيه كُلُّ مؤمن ، فهو غاية دافعة إلى الاتصاف بالصِّفات الواردة بعد ، والتي هي وسيلة للوصول إلى هذا الفلاح الذى يستلزم الإيمان ، والإيمان لا يحصل كاملاً من العبد إلاَّ عند اتصافه بتلك الصفات .

ورحم الله الإمام عبد القاهر حينما كشف عن قيمة التقديم وفوائده قائلاً : " هو بابٌ كثير الفوائد ، جمُّ المحاسن ، واسع التَّصرُّف بعيد الغاية ، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه ، ويُفضى بك إلى لطيفة " [٢] .

هذا ، وقد كان مرَّ بنا أنَّ قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ } [٣] ، وما تلاه من الآيات التي نحن بصدد الحديث عنها ، إنَّما جاء امتداداً لما ورد ذكره في خواتيم سورة (الحج) ، وتفصيلاً لما أُجمل في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [٤] ، حيث إنَّ هذا النداء الإلهيَّ تضمَّن إرشاداً للمؤمنين ، وتعليماً لهم بأنَّ الفلاح مرجوٌّ ومُتوقَّعٌ

---

(١) ويواصل التنوخى كلامه هذا بقوله : " وهو باب واسع ، وهو أن يُقدِّم المُخاطِبُ ما يعلم أنَّه يؤثرُ في نفس المُخاطب من ترغيب ، وترهيب ، وإطماع وتزهيد . . . ". الأقصى القريب في علم البيان للإمام زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخى ، ص ١٠٣ ، ط / مطبعة السعادة – أولى ١٣٢٧ هـ .

(٢) دلائل الإعجاز – تحقيق / محمود محمد شاكر ، ص ١٠٦ – نشر / مكتبة الخانجي بالقاهرة – غير مؤرَّخة .

(٣) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .

(٤) الآية ٧٧ من سورة (المؤمنون) .

ثبوته لمن استجاب للأوامر الأربعة – المذكورة في الآية الكريمة – وقام بتنفيذها، فمَنْ عَشِق الفلاح لابد أن يحرص على عدم التَّفريط في أي من هذه التوجيهات الأربعة[١] ، ولمَّا قام المُنادى عليهم بوصف الإيمان { يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا } بالاستجابة للأمر الإلهيِّ ، مُنفِّذين التوجيهات المذكورة ، عشقاً للفلاح الذى منَّاهم الله ﷻ به ، مُعلِّلاً ما طُلِب منهم بتحقيقه ، جاء قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ} مشفوعاً بما ورد بعده من آيات [٢] ، مَدْحاً لهؤلاء [٣] ، وبعثاً للاطمئنان في نفوسهم ، إذ إنَّ هذا القول الكريم يُقرِّرُ ويؤكِّد فضل الله – تعالى – عليهم بثبوت وتحقُّق ما كان قد توقَّعوه ، ورَجَوْه من الفلاح الذى لا يُنازعهم فيه أحد ، " ففي آية الحج كان التَّوقُّع والتَّرجِّي ، أمَّا هُنا فتنفيذ وحصول " [٤] .

ومن ناحية أخرى، جاءت الآيات الواردة بعد قوله تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ}، لتُبيِّن المقصود من العبادة ، وفعل الخير المأمور بهما المُنادَى عليهم[٥]، ذلك لكى يكمُل فلاحهم، في الدُّنيا بما ينالُهم من عِزٍّ ورفعة، بسبب استجابتهم لأوامر الله ﷻ على سبيل الطاعة له – جَلَّ جلاله – وفلاحهم في الآخرة بوراثة جنة الفردوس ، والخلود فيها ، حيث وعدهم الله – سبحانه – بذلك [٦] .

---

(١) أعنى الأوامر الأربعة المصحوبة بالنداء الوارد في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الآية ٧٧ من سورة (الحج) .

(٢) أعنى الآيات (٢ : ١١) التي تُمثِّل مطلع سورة (المؤمنون) .

(٣) أي الذين فعلوا ما أمروا به تصديقاً بالفلاح الذى وُعِدوا به (ذلك على نحو ما نصَّت عليه الآية ٧٧ من سورة " الحج ") بحسب وعد الله الصادق .

(٤) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، للدكتور / فاضل صالح السَّامرائي – ١٢٠ ط / دار عمَّار للنشر والتوزيع – عمَّان – خامسة ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .

(٥) ينظر :ما سبق ذكره عن التقاء الآيات الإحدى عشرة الأولى (المفتتح بها سورة المؤمنون) مع خاتمة سورة (الحج) قبلها ، وذلك أثناء الحديث عن مناسبة سورة (المؤمنون) لما قبلها، ويُنظر : الكشاف ٣ / ١٧٠ ، والبحر المحيط لأبى حيان ٧ / ٥٤٥ ، ٥٤٦ ط – دار الفكر ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م ، ونظم الدرر ٥ / ١٨٦ ، وتفسير أبى السعود ٤ / ٣٦ ، وتفسير روح البيان للشيخ / إسماعيل حقي ٦ / ٦٦ ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – سابعة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

(٦) دلَّنا على ذلك قوله تعالى في شأن هؤلاء : { أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ.الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } الآيتان (١١ ، ١٢) من سورة (المؤمنون) .

وهذا يعنى أنَّ الاستجابة المذكورة كانت بمثابة التَّأهيل لذلك الفلاح ، تلك الدرجة عالية المنزلة التي لا يطمح في الرُّقىِّ إليها إلاَّ الخُلَّص من المؤمنين الذين يرغبون في الوصول إلى أعلى ذراها ؛ احتفاءً بها ، ومن ثمَّ انتقلت الآيات بعد ذلك إلى بيان صفات هؤلاء المفلحين في مطلع السورة الكريمة [١] ، وحسْبُ المؤمن أن يعلم أنَّ التحلِّي بتلك الصِّفات يكون سبباً للفلاح .

وبالتَّأمُّل في قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ } [٢] نلحظ أنَّه جاء في بنية تركيبيَّة مُحكمة ، حيث اعتمدت صياغته على عِدَّة وسائل تأثيرية بلاغية تُقوِّى مضمونه ، وتُكسب معناه حتميَّة وتقريراً يحمل في طيِّه أنواعاً من البشائر المناسبة لما في نفوس هؤلاء المؤمنين – الذين ورد الخبر في شأنهم – من تحرٍّ للبشرى التي كانوا ينتظرونها ، وهى القطع بفلاحهم [٣] ، ذلك بالإضافة إلى ما تتضمَّنه تلك الوسائل من دلالة الإثارة لنوازع الرغبة في نفوس المتلقِّين ، بعثاً لهم على التحلِّي بالصِّفات التي تضمَّنتها الآيات المذكورة بعد [٤] ، حتى ينالوا النصيب الأوفر ، والحظ الأسمى من الفلاح المتمثِّل في وراثة جنَّة الفردوس [٥] .

.

---

(١) أعنى سورة (المؤمنون) .

(٢) الآية رقم ١ من سورة (المؤمنون) .

(٣) حيث إنَّ هؤلاء المؤمنين كانوا مؤملين مثل هذه البشارة ، ناظرين إليهما نظرة المستثبت فيما سبق لهم من رجاء فلاحهم كالذي في قوله تعالى : { وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } جزء من الآية رقم ٧٧ من سورة (الحج) فكانوا لا يعرفون تحقق أنَّهم أتَوْا بما أرضى ربهم ، ويخافون أن يكونوا قد فرَّطوا في أسبابه ، وما علَّق عليه وعْده إياهم . (ينظر : التحرير والتنوير ١٨ / ٨ ، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة – تحقيق / أحمد عبد الله القرشي رسلان – المُجلَّد الثالث / ٥٦١ (بدون ذكر لدار النَّشر أو الطبع) ط / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .

(٤) أي الآيات (٢ : ٩) من سورة (المؤمنون) .

(٥) وذلك على نحو ما أخبر سبحانه وتعالى في قوله تعالى : { أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ . الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة (المؤمنون) .

إذ إنَّ أوَّل ما تبدأ به الآية الكريمة هو : التوكيد المُشعر بشدَّة العناية بالمعنى المؤكَّد ، حيث صُدِّرت الآية بالحرف (قد) ، ليُفيد ثبوت وتحقُّق ما كان مُتوقَّع الثُّبوت من قبل [١] ، ولتنبيه المتلقي إلى وجود جملة تالية لهذا الحرف ، وأنَّ هذه الجملة تتضمَّن أمراً له أهمِّيَّته ، وهو ما يُجلب انتباه المُتلقِّين إلى الإصغاء والإنصات ، للتَّدبُّر والتَّفكُّر فيما يُلقى على مسامعهم ، مِمَّا يؤدِّى بهم إلى تتابع أطراف المعنى ، ومُكوِّناته عبر مدى مُتَّسع من التركيز ، ومن ثم يتمكَّن الخبر في النفوس فضل تمكُّن .

ولنا أن نُدرك أنَّ (قد) يؤتى بها في الكلام لمعانٍ كثيرة [٢] ، وأنها في الآية الكريمة – التي معنا – لم تدخل على المُتوقَّع ، لإفادة كونه مُتوقَّعاً ، ، بل لتقريبه من الحال ، وجعل فلاحهم أمراً مُحقَّقاً ، ذلك لأنَّ القوم كانوا قد توقَّعوا علم حالهم عند الله ﷻ[٣]، لتأثُّرهم بصفة الإيمان التي نودوا بها في آية (الحج).

هذا ، ولو كان جيء بالنَّص الكريم مُجرَّداً من التصدير بـ (قد) وقيل مثلاً (أفلح المؤمنون) لكان معناه : الإخبار بفلاح المؤمنين فيما مضى من الزمن ، إلاَّ أنَّ ذلك الزمان قد يكون بعيداً ، وقد يكون قريباً من الزمان الذى نحن فيه ، ولكن لمَّا كان المراد : (أنَّ الفلاح المتوقَّع يحصُل ثبوته في الحال الآتية ، وأنَّ المؤمنين صائرون إليه بالفعل) ، وتأكيد ذلك الأمر ، وتقريره في نفوس

---

(١) حيث إنَّ المُنادَى عليهم في خواتيم سورة (الحج) بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا . . . الآية } كانوا يتوقَّعون البشارة بالإخبار بثبوت الفلاح لهم ، فجاء قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } دالاً على ثبات ما توقعوه . ينظر : (البرهان في علوم القرآن ٤ / ٣٠٥ ، وتفسير أبى السعود ٤ / ٣٦ ، وروح المعاني ١٧ / ٤ ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ م – والبحر المديد المجلد الثالث / ٥٦١) .

(٢) ذكر الزركشي أنَّ (قد) " تأتى لخمس معان : التَّوقُّع ، والتقريب ، والتقليل ، والتَّكثير ، والتحقيق " – البرهان في علوم القرآن ٤ / ٣٠٥ .

(٣) ينظر : السابق ٤ / ٣٠٥ : ٣٠٨ ، ونظم الدُّرر ٥ / ١٨٢ .

المُخبر عنهم ، زيادة في كرم الله ﷻ عليهم – أقول لمَّا كان هذا هو المُراد – جاء التَّصدير بـــ (قد) ولا شك أنَّ هذا أبلغ في الصِّفة من مجيء الفعل مُجرَّداً [١] .

ومِمَّا يزيد الأمر تأكيداً التعبير بالفعل الماضي (أفلح) الدَّال على تحقُّــق وقوع الفعل وحصوله ، " وكأنَّه لِشدَّة تحقُّقه وثبوته كأنَّه قد مضى وتقضَّى فأشبه الماضي في تقريره " [٢] .

وعلى الرَّغم من مجيء الفعل (أفلح) ماضياً ، للدِّلالة على أنَّ الفلاح قد تم حدوثه بالفعل – على النحو الذى رأينا – إلاَّ أنَّ ذلك الفلاح قد جاء مطلقاً دون تقييد بزمان ولا مكان ، ولا بضرب معيَّن من ضروب هذا الفلاح ، لتذهب النفس في المُراد كُلَّ مذهب ، وهذا هو المُناسب للخُلَّص من المــؤمنين الــذين تغلغــل الإيمان في قلوبهم ، وصار صفة راسخة في نفوسهم وسجيَّة دائمة في طبائعهم ، كما يُشعرنا بذلك لفظ (المؤمنون) [٣] المسند إليهم الفلاح المذكور ، ذلك علــى اعتبار أنَّ الإيمان الثابت في القلوب والمُتغلغل في النفوس ، ولا يتزعزع عنها ، يُحقِّق لأصحاب تلك النفوس المخلصة في إيمانها جميع ضروب الفلاح في شــتَّى مجالاته ، في أي وقت ، أو في أي مكان ، أو في أي موقف ، سواء أكــان ذلــك الفلاح متعلِّقاً بالدُّنيا ، أم بالآخرة .

وقد أومأ العلاَّمة (الطاهر بن عاشور) إلى هذا الذى ذَكرْتُ حينما قال : " ... فإنَّ الفلاح غاية كُلِّ ساع إلى عمله ، فالإخبار بفلاح المــؤمنين دون ذكــر

---

(١) يُنظر : شرح المُفصل لابن يعيش – المجلَّد الثاني ٨ / ١٤٧ – توزيع مكتبة المتنبي – بدون تأريخ ، وينظر : تفسير الحدَّاد المُسمَّى بـــ (كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل) لأبى بكر الحدَّاد اليمنى – تحقيق د / محمد إبراهيم يحيى ٥ / ٥ ، ٦ – ط / دار المدار الإسلامي ٢٠٠٣ م .
(٢) الطراز للعلوى تقديم د / إبراهيم الخولي ٢ / ٢٦٩ – ط / الهيئة العامة لقصــور الثقافــة – بدون تأريخ .
(٣) ذلك على نحو ما سيأتي توضيحه عن سرِّ التعبير بهذا اللفظ (المؤمنون) ، بدلاً من غيــره ، كأن يُقال مثلاً : (قد أفلح الذين آمنوا) .

متعلِّق بفعل الفلاح يقتضى في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب ، فكأنَّه قيل :(قد أفلح المؤمنون في كُلِّ ما رغبوا فيه) " [١] .

أضف إلى ذلك : مجيء الفعل (أَفْلَحَ) على وزن (أفعل) ، دون مجيئه على وزن (فَعَلَ) فلم يقُل مثلاً (قد فَلَحَ) ، إنما كان ذلك ، لأنَّ الصيغة المذكورة على جهة الزيادة فيها من المُبالغة في تحقُّق وقوع الفعل ما فيها ، بخلاف الصيغة البديلة ، ذلك على اعتبار أنَّ زيادة المبنى تدُلُّ على زيادة المعنى على نحو ما هو مُقرَّر في المعقول ، وفي العربيَّة [٢] ، وهذا يعنى أنَّ الفلاح أمرٌ ثابت ومحقَّق لهؤلاء المؤمنين إلى أن صار صفة لازمة لهم ، على وجه من التأكيد ، ولا مشاحة في ذلك .

يقول الطاهر بن عاشور : " والفلاح : الفوز وصلاح الحال ... والفعل منه (أفلح) أى : صار ذا فلاح ، وإنمَّا اشتق منه افعل بواسطة الهمزة الدَّالة على الصيرورة "[٣] .

ولاشك في أنَّ اقتران الفعل المذكور – في صورته التي جاء عليها – بالحرف (قد) جعل الفعل ذا قدْر ، وأكسب الخبر تحقيقاً مُكثَّفاً ، ومزيداً من التأكيد الذى تبرز قيمته في تثبيت المعنى في نفوس المُتلقِّين ، وإثارة همَّة كُلِّ مؤمن ، وتقوية عزيمته على أن يتعهَّد موجبات الفلاح المذكور ، وأن لا يتخلَّى عنها ، إذ إنَّ المؤمن إذا ترسَّخ في وجدانه أنَّ الفلاح يكون لهُ إذا سلك سبيله ، وقام بفعل موجباته ، تاقت نفسه إليه ، وتحقَّقت الرغبة لديه في الاندفاع – ولو

---

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٨ .
(٢) يُنظر : البرهان للزركشي ٣ / ٣٤ .
(٣) التحرير والتنوير ج ١ ص ١٦٣ ، تعليقاً على قوله تعالى : { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الآية ٥ من سورة البقرة .

بشق الأنفس – تجاه هذا الفلاح ، لكى يناله ، مِمَّا يترتَّبُ على هذا النوال دخول الساعي إليه في زمرة المؤمنين المفلحين .

وليس معنى هذا أن التَّأكيد المذكور كان لاحتمال شكٍّ أو إنكار من المسند إليهم الفلاح ، وهم (المؤمنون) ، فهُم يعتقدون اعتقاداً جازماً – لا ريب فيه – بأنَّ كُلَّ ما يُخْبِرُ به المولى – سبحانه – صدق ، ولا يحتمل كذباً ، ومن ثمَّ فَهُمْ ليسوا في حاجة إلى تأكيد من هذه الناحية ، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ التأكيد يتناسب والمقام تمام المُناسبة ، لأنَّ السورة الكريمة – على نحو ما تبيَّن لنا – كانت قد نزلت في الفترة المكِّية وقت تأسيس الدَّعوة ، وكان لها اهتمام خاص بالقضايا المتعلِّقة ببناء عقيدة التوحيد ، وترسيخها وتوطيدها في النفوس [١] ، مما يتطلَّب تأكيد ما يُلقى على مسامع المتلقِّين ، للدِّلالة على أهمِّية الأمر المؤكَّد الذى يؤنِّس الله به قلوب عباده المؤمنين ، والذى يجب أن يكون المُخاطَب على عِلم به ، ولزيادة تثبيت ما بُشِّروا به وتمكينه في نفوسهم ، حتى لا يزول عن خاطرهم ؛ لفخامته ؛ ولِعظم شأنه ، مما يؤدِّى إلى الرَّبط على قلوبهم بثبات نفوسهم على ما هم عليه من أسباب تحفظ لهم إيمانهم ، وبقبول ما يُلقى على مسامعهم – بعد ذلك – من توجيهات تضمن لهم الفلاح ، إذ إنَّه بهذا الثبات ، وبذلك القبول يصير الفلاح ملازماً لهم لا يتزحزح عنهم قيد أنمُلة ، ومن ثم يكون التأكيد في الآية الكريمة ليس لدفع شك ، أو إزالة إنكار كان قد ترسَّب في أذهان جماعة المُخاطبين ، وإنما هو تقرير للوعد بالفلاح " واعتناءٌ به وتثبيته في نفوس الجماعة ، وإغراء لها بالنهوض ، والإسراع إلى دائرته ، ثمَّ إنَّ فيه

(١) يُنظر : ما ذُكِر في صدر هذا البحث عن مكان نزول السورة الكريمة ، وما ذُكِر كذلك عن أغراضها ومقاصدها .

تكريماً للمذكورين ، من حيث عناية الحق جلَّ جلاله بوعدهم وسوقه في مساق التأكيد " [١] .

وفي ذلك كُلِّه إشارة إلى غاية التكريم والتشريف الذى يناله المسند إليه (المؤمنون) بسبب التأكيد على فلاحهم ، لاستحقاقهم له ، وفي الوقت نفسه فيه تعريض بغيرهم الذين لا ينالون هذا الشرف ، لإعراضهم عمَّا يتصف به المستحقون له ؛ لإنَّ إسناد الفلاح مؤكَّداً للمؤمنين الذين وَرَدَ الخبر في شأنهم ، يُشعر بأنَّ غيرهم ليسوا بمفلحين ، ذلك على سبيل ما يُعرف لدى البلاغيين باسم (التَّعريض) الذى عرَّفوه بقولهم : " المعنى الحاصل عند اللفظ لا به " [٢] ، وعلى نحو ما هو معروف عند الأصوليين بـ (دليل الخطاب) ، والمسمَّى لديهم بـ (مفهوم المخالفة) ، وحدُّ هذا المفهوم عندهم هو : " ثبوت نقيض حُكم المنطوق به للمسكوت عنه " [٣] .

وهذا بدوره يجرُّنا إلى القول بأن أسلوب الآية الكريمة يزيد معناه على لفظه ، ذلك على نحو ما هو مُقرَّر في عُرْف البلاغيين باسم (الإيجاز بالقِصَر) أو (إيجاز البلاغة) ، وهو سِمَةٌ من سمات البلاغة القرآنية ، وبيانه عندهم : " هو الذى تزيد فيه المعاني على الألفاظ وتفوق " [٤] .

---

(١) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) ص ٢١٩.
(٢) الطراز للعلوى ١ / ٣٨٣ .
(٣) أصول التشريع الإسلامي للأستاذ/ على حسب الله ص ٣٢٢ – ط / دار الفكر العربي – السادسة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، ويُنظر: الإبهاج في شرح المنهاج للسُبكي – تحقيق / الدكتور شعبان محمد إسماعيل ١ / ٣٦٩ وما بعدها – نشر : مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م ، وشرح الكوكب المنير للفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار – تحقيق : د / محمد الزُّحيلي ، والدكتور / نزيه حمَّاد – المجلَّد الثالث ص ٤٨٩ – نشر /مكتبة العبيكان – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م، وإرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول للإمام الشوكاني ، ص ١٧٩ – ط / دار الفكر – غير مؤرخة .
(٤) الطراز ٢ / ١٢٦ ، ١٢٧ .

فالآية وإن كانت جملة واحدة مُكوَّنةً من ثلاث كلمات (قد – أفلح – المؤمنون) ، وقد جيء بها في الظاهر نصًّا على حُكمٍ واحد يتعلَّق بالمؤمنين – صراحة – وهو الإخبار عنهم بالتأكيد على فلاحهم ، إلاَّ أنَّها من جانب آخر ، ومن طَرْفٍ خفي قد تضمَّنت حُكْماً آخر يتعلَّق بغير المؤمنين تعريضاً ، وهو : الحُكمُ عليهم بعدم الفلاح .

ولو رُحنا نحاول التعبير عن هذين الحُكميْن بصياغة جليَّةٍ دون اختصار مُخِلٍّ ، أو إطناب مُمِلٍّ ، لاقتضى ذلك منَّا التعبير بأكثر من ضعف نَصِّ الآية الكريمة ، كأن يُقال مثلاً عن الحُكميْن اللَّذيْن تضمنَّتهما :

١- إنَّ المؤمنين مُفلحون .

٢- غير المؤمنين ليسوا بمفلحين [١] .

والنَّاظر في هذين الحُكْميْن يلحظ أنَّ الأول منهما فيه دلالة على أنَّ المؤمنين أهل للمدح ، والحُكم الثاني يحمل في طيِّه ذمًّا لغيرهم .

ولاشك في أنَّ الوقوف على هذيْن الحُكميْن ، يجعل المؤمن على بيِّنةٍ من حقيقة أمره ، إذا اختار ما يُناسبه منهما ، دون أدنى تهاون فيما ينفعه ، وهذا أدعى لاستجابته للأسباب التي يترتّبُ عليها الفلاح المذكور .

---

(١) هذا الحكم مفهوم من معنى الآية الكريمة ، وصُرِّح بما يدُلُّ عليه في آيات أُخَر كثيرة ، ورد فيها الفلاح منفيًّا عن (الكافرين ، والظَّالمين ، والمُكذِّبين ، والساحرين ، والذين يفترون على الكذب) ، ومن هذه الآيات : قوله تعالى : { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ } جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة (المؤمنون) ، وقوله سبحانه : { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ } جزء من الآية رقم ١٧ من سورة (يونس) ، وفي نفس السورة أيضاً قوله :{ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ } جزء من الآية رقم ٦٩ ، وقوله تعالى : { ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ } تذييل الآية رقم ٧٧ ، وقوله : { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } جزء من الآية رقم ٢١ من سورة (الأنعام) ومن الآية رقم ٢٣ من سورة (يوسف) ، وقوله سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ } من الآية رقم ١١٦ من سورة (النحل) ، وقوله جل جلاله : {ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} من الآية رقم ٦٩ من سورة (طه) ، وقوله جلَّ شأنه : { ويْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ} من الآية رقم ٨٢ من سورة (القصص) .

وبذا تظهر لنا دقَّة التعبير القُرآني وبلاغته الهادفة إلى تمكين الحقائق وتقريبها من النفوس ، ذلك عن طريق التأكيد – المُشار إليه – مُقترناً بالإيجاز – على نحو ما رأينا – وقد كان من لطائف هذا الأخير أيضاً في الآية الكريمة ، مجيؤها مشتملة على كلمتين ، إحداهما : المُسند (أفلح) المُتضمِّن للجزاء ، والثانية : المسند إليه المتمثِّل في اسم الفاعل (المؤمنون) ، ذلك الوصف المُشتمل على السَّبب [١] (الحدَث) الموجب لذلك الجزاء ، وفاعل ذلك الحدث في آن واحد ، ولا شك في أنَّ استحضار الجزاء ، ومستحِقِّه ، والفعل الموجب له في الكلمتين المذكورتين مِمَّا يُساعد على بقائهما في الأسماع والعقول ، وعلى تثبيت مضمونهما وتوطيده في النفوس ، وهذا من أعجب اللطائف المبنيَّة على الإيجاز[٢] في الآية الكريمة .

على أنَّ الآية الكريمة تتضمَّن لوناً آخر من الإيجاز البلاغي ، وهو (الإيجاز بالحذف) ، حيث إنَّ الأصل في الآية أن يُقال : (قد أفلح القوم المؤمنون)، ولكن حُذِف الموصوف (القوم) وقامت الصِّفة (المؤمنون) مقامه ، للإشارة إلى أنَّ الصفة هي غرض الكلام ومقصوده ، ومن ثم تتوفَّر العناية بها ، ويتعلق الغرض من المدح بالإخبار عن الفلاح بها [٣] ، إذ إنَّه يتعلَّق بالإيمان الذى هو صفة للموصوفين ، ذلك فضلاً عمَّا يُحقِّقه الاكتفاء بذكر الصِّفة من إيجاز بحذف المعلوم ، وهذا هو ما نصَّ عليه التنوخي حينما قال : " فالاهتمام بهذه الصِّفة وشيوعها أغنى عن ذكر الموصوف ههنا ، فلو ذُكِر في مثل هذا الموضع ، لكان كالفضلة التي لا حاجة إليها " [٤] ، ولذلك " كان الكلام مع حذفه [١] أدخل في

(١) ينظر : حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الرَّاضي على تفسير البيضاوي) ٦ / ٣١٩ – ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – (غير مؤرخة) .
(٢) أي الإيجاز الموسوم بـ (القِصَر) الذى سبقت الإشارة إليه منذ قليل .
(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٥٤ .
(٤) الأقصى القريب ، ص ٦٢ .

الإعجاز ، وأحسن في الاختصار والايجاز ، وأبلغ في تأليفه ونظمه ، وأحلى في سياقه وعذوبة طعمه " (٢) ، إذ إنَّ الخبر لما كان يتناول قضية محدَّدة ، وحقيقة واحدة تتمثَّل في فلاح أهل الإيمان كان الإيجاز لها أنسب .

هذا ، ومِمَّا ينبغي لنا أن نُطيل النَّظر فيه ونتأمَّله فضل تأمُّل ، هو إيثار التَّعبير بالفعل (أَفْلَحَ) دون غيره من البدائل الأخرى مِمَّا هو بمعناه من الألفاظ المُتداولَة المألوفة كـ (فاز) ، و (سَعِد) ، و (نَجَحَ) ، فلم يُقل مثلاً : (فاز المؤمنون) ، أو (سَعِدَ المؤمنون) ، أو (نَجَحَ المؤمنون) (٣) ، وما ذلك إلاَّ لأنَّ

---

(١) أي : مع حذف الموصوف في الآية الكريمة .

(٢) الطراز ٢ / ١١٠ ، ١١١ .

(٣) حيث إنَّ جُلَّ المُفسِّرين واللغويين ذهبوا إلى أنَّ مادة (ف ل ح) ومشتقاتها تتضمَّن معانٍ كثيرة من بينها : (الفوز) ، و (السعادة) ، و (النجاح) .

ـ يقول الإمام الطبري في تأويله لقوله تعالى : { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الآية ٥ من سورة البقرة – يقول : " أي أولئك المُنْجَحون المُدركون ما طلبوا عند الله – تعالى ذكره – بأعمالهم وإيمانهم بالله ، وكتبه ، ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنَّة ، والنجاة ممَّا أعدَّ الله – تبارك وتعالى– لأعدائه من العقاب" . تفسير الطبري ١ / ٢٥٠، وقال الإمام أبو السَّعود في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } الآية ١ من سورة (المؤمنون) : " ... المعنى : قد فازوا بكل خير ونجوا من كلِّ خير ... " . تفسير أبى السعود ٤ / ٣٦ ، وقال أبو حفص الدمشقي في معنى الآية نفسها : " قال ابن عباس : قد سعد المُصدِّقون بالتوحيد وبقوا في الجنَّة " . اللُّباب في علوم الكتاب ١٤ / ١٦٦ ، وقال الإمام البقاعى في معنى (أفلح) : " أي فاز وظفر الآن بكل ما يريد ونال البقاء الدَّائم في الخبر " . نظم الدرر ٥ / ١٨٢ .

ـ وذكرت الدُّكتورة عائشة عبد الرحمن أنَّ ابن الأزرق سأل ابن عباس عن معنى الآية التي معنا فقال : فازوا وسَعِدوا . نظر : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٣٤١ – ط / دار المعارف – ثانية ١٩٨٧ م .

ـ وقال الرَّاغب الأصفهاني : " والفلاح : الظَّفَرُ وإدراك بُغية ، وذلك ضربان : دُنيوي وأخروي ، فالدُّنيوي : الظَّفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدُّنيا ، وهى : البقاء والغِنى والعزُّ ... وفلاح أخروي : وذلك أربعة أشياء بقاء بلا فناء ، وغِنى بلا فقر ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ ، وعِلْمٌ بلا جهل ... " . المفردات في غريب القرآن ٢ / ٤٩٧ – نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة – الرِّياض م ط / أوبى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

ـ وجاء في لسان العرب : " الفَلَحُ والفلاح : الفوزُ والنجاةُ والبقاء في النعيم والخير . . . والفلاح : الفَوْزُ بما يُغْتَبطُ به ، وفيه صلاح الحال . . . وقومٌ أفلاح : مُفلحون فائزون ... وفي حديث الأذان : حيَّ على الفلاح يعنى هَلُمَّ على بقاء الخير ، وقيل : حيَّ أي عجِّل وأسْرِع على الفلاح ، معناه : إلى الفوز بالبقاء الدائم ... فلاحٌ في موازينه يوم القيامة : أي ظَفَرٌ وفوْزٌ " ١٠ / ٣١٦ – فلح ، وفيه أيضاً : " الفَوْزُ : النَّجاءُ والظَّفَرُ بالأمنية والخير " ١٠ / ٣٤٧ – فوز ، و " النُّجح والنجاح : الظَّفَر بالشيء . . . يُقال : نَجَحَ إذا أصاب طَلِبَتَهُ ، ونَجَحت طَلِبَتُه وأنجَحَتْ ، وما أفْلَحَ فلان ولا أَنْجَحَ . . . ونَجَحَ أمْرُ فلان : تيسَّر وسَهُل ، فهو ناجح . . . " ١٤ / ٤٤ نجح .

الفعل (أفلح) له دلالته وروحه في التركيب الواردة فيه ، فهي مُتمكِّنة منه ، فعلى الرَّغم من أنَّ هُناك تشابهاً في دلالات الأفعال المذكورة جميعها بما فيها الفعل (أفلح) وتقارباً بين معانيها ، إلاَّ أنَّ إيثار الفعل المذكور إنما كان ، لأنَّه يؤدِّى نصيبه من المعنى المُراد في الآية أقوى أداء ، بخلاف أي من الأفعال البديلة (فاز – سعد – نجح) وما شابهها ، فإنَّه ليس أهلاً لتوفية المعنى حقَّه ، إذا ما وُضع مكان (أفلح) [1] .

<u>والسِّر البياني لما ذكرتُ يُمكن توضيحه فيما يلى</u> :

١- أنَّ كُلاًّ من الفوز ، والسَّعادة ، والنَّجاح ضرب من ضروب الفلاح ، وهذا الضرب مرهون بضرب آخر من ذلك الفلاح ، ذلك على اعتبار أنَّ الفلاح ضربان، أحدُهما : دنيوي ، والآخر: أُخروي[2] ، وأن الضَّرب الأول وسيلة للثاني وسبب

---

(١) ولذلك أشار العلماء إلى أنَّ من خصائص الإعجاز البياني في القرآن الكريم الدِّقة في اختيار المفردة القرآنية ، أو اللفظة المُناسبة ، بحيث لا يمكن لغيرها من المترادفات أن تحلَّ محلَّها . فها هو ابن الأثير يشير إلى أنَّ من خصائص الإعجاز القرآني اختيار اللفظة المُلائمة للمعنى ، بحيث لا يمكن استبدالها بغيرها ، وإن اشتركت معها في المعنى اللغوي ، فيقول : "... ومن عجيب ذلك أنَّك ترى لفظتين تدُلاَّن على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال . . . إلاَّ أنَّه لا يحسُن استعمال هذه في كُلِّ موضع تُستعمَل فيه هذه ، بل يُفرَّق بينهما في مواضع السَّبك ، وهذا لا يُدركه إلاَّ مَنْ دقَّ فهمُه ، وجلَّ نظرُه " – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لـ (ضياء الدين بن الأثير) – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ١ / ١٥٠ نشر / المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٥ م .
وفي الشأن ذاته يقول العلاَّمة (مصطفي صادق الرافعي) :" لا جرمَ أنَّ المعني الواحد يُعبَّر عنه بألفاظ لا يجزئ واحدٍ منها في موضعه عن الآخر ، إن أُريد شرط الفصاحة ، لأنَّ لكل لفظ صوتاً رُبما أشبه موقعه من الكلام ، ومن طبيعة المعنى الذى هو فيه ، والذى تُساق له الجملة ، ورُبَّما اختلف ، وكان بغير ذلك أشبه ، فلابُدَّ في مثل نظم القرآن من إخطار معانى الجمل، وانتزاع جملة ما يُلائمها من ألفاظ اللغة ، بحيث لا تَندُّ لفظة ، ولا تتخلَّف كلمة ، ثم استعمال أمسِّها رحماً بالمعنى ، وأفصحها في الدِّلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النَّسق ، وأبدعها سناءً ، وأكثرها غناءً ، وأصفاها روْنقاً وماءً ، ثُمَّ اطِّراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه ... في الكلمة وفي الحرف من الكلمة ، حتى يجئ ما هو كأنَّه صيغ جملةً واحدة في نَفَسٍ واحد ..." . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ . نشر / دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ط / ثامنة ٢٠١٤ م .

(٢) أشار الراغب الأصفهاني في مفرداته إلى هذيْن الضَّربيْن ، وقام بالتمييز بينهما ، مشيراً إلى ماهيّة كُلَّ (ينظر: ما ذكرته عن ذلك – في الحاشية – منذ قليل . المفردات ٢ / ٤٩٨ – فلح ، هذا ، وإن المُتتبع لما ورد ذكره في القرآن الكريم من آيات عُنِيت بتناول مادَّة (الفلاح) ومشتقَّاتها ، يلحظ إيراد تلك المادَّة إثباتاً للفلاح الدُّنيوي والأخروي لكلَّ من (المؤمنين والمُتقين ، والصابرين والمجاهدين ، وحزب الله ، والذين على هُدي من ربِّهم) كالآيات : (١،٢،١٠/ المؤمنون – ١٢ / الأعلى – ٩ / الشمس – ٥ ، ١٨٩ / البقرة – ١٠٤ ، ١٣٠ ، ٢٠٠ / آل

له ، والضرب الثاني غاية للأوَّل، ومتوقِّفُ عليه ، ومُسبِّبٌ عنه، إذ إن العبد حينما ينضبط في دُنياه ، ويظفر بالإيمان الحقيقي بالله – عز وجل – ذلك الإيمان المُقيَّد بجميع شروطه المعروفة لدي كل مؤمن ، ويكون العبد كما أراد له خالقه – سبحانه – أن يكون ، فيعيش ناهضاً بفعل ما أمره به مولاه – جل شأنه – مُنتهياً عمَّا نهاه عنه ، مُتحلِّيا بالصِّفات التي يجب أن يتحلَّى بها كُلَّ مؤمن بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّد ﷺ نبيَّاً ورسولاً ، على أنْ تكون تلك الصِّفات متضمَّنة الصِّفات التي هي محلُّ الدراسة والتي "صُدِّرت بها السورة التي عنوانها الفلاح"[١]، حيث إنّ تلك "الصِّفات جليلة القدر عظيمة الأثر " [٢][٣] ؛ باعتبار أنَّ التَّحلِّي بها جميعها – دون الإخلال بواحدة منها – عنوان دالٌّ على التَّحلِّي بغيرها مِمَّا ذُكِر في مواضع شتي من القرآن الكريم من صفات تخُصُّ المؤمنين[٤] – أقول

عمران – ٣٥ ، ٩٠ ، ١٠٠ / المائدة – ٨ ، ٦٩ ، ١٥٧ / الأعراف – ٤٥ / الأنفال – ٨٨ / التوبة / ٧٧ / الحج – ٣١ ، ٥١ / النور – ٦٧ / القصص – ٣٨ / الرُّوم – ٥ / لقمان – ٢٢/ المجادلة – ٩ / الحشر – ١٠ / الجمعة – ١٦ / التغابن) .

ـ ويلحظ كذلك مجيء تلك المادَّة نفيا لكلِّ من الفلاحيْن (الدُنيوي والأخروي) عن (الكافرين ، والظالمين ، والمكذّبين ، والساحر ، والذين يفترون على الله الكذب) ، ويتمثَّل ذلك في الآيات : (٢١ ، ١٣٥ / الأنعام – ١٧ ، ٦٩ ، ٧٧ / يونس – ٢٣ / يوسف – ١١٦ / النحل – ٢٠/ الكهف – ٦٩ / طه ١١٧ / المؤمنون – ٣٧ ، ٨٢ / القصص) ، على أن أية واحدة في القرآن الكريم ورد فيها الفعل (أفلح) بمعني فاز وغلب ؛ قصداً إلى الفلاح الدُّنيوي وفقط ، وقد كان ذلك في قوله تعالى حكاية عما جاء على لسان قوم فرعون ؛ تحريضاً على الاجتماع والاتفاق فيما بينهم على ما ينفعهم في مُناصبة (موسي) عليه السلام – ومباراته ، حيث قال سبحانه : { فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} – الآية ٦٤ من سورة طه – والمعني : لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلَّا جئتم به ، ولا تختلفوا فتضعفوا ، وائتوا صفَّاً واحداً ؛ لمباراة موسي وهارون متسابقين متساوين في السَّباق ، وجدُّوا في ذلك الأمر ؛ لأنَّ الاصطفاف أهيب في صدور الرَّائين ، ومن ثم يستعلي أمركم عليهما فتفلحوا ، يقول الراغب الأصفهاني : (فيصح أنَّهم قصدوا به الفلاح الدُّنيوي وهو الأقرب " . المفردات جـ ٢ ص ٢٩٨ ، وينظر : الكشاف جـ ٣ ص ٧٠ ، ٧١ ، ونظم الدرر ٥ / ٢٨ ، والإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٣٤١، ٣٤٢ .

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي الجوهري ١١ / ٩٦ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، ط رابعة ١٤١٢ هـ ، ١٩٩١م .

(٢) قد سبق أنْ أشرت إلى سبب من أسباب جلالة قدر هذه الصفَات ، وعظم أثرها ، وذلك عند الحديث عن فضل سورة (المؤمنون) فلينظر : ما ذكرته هُنَاك من الأحاديث الواردة في فضل هذه الصفات خصوصاً ، وفي فضل السورة الكريمة المتضمّنة لها عموماً .

(٣) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١١/ ٩٦ .

(٤) إنما كان الأمر كذلك ؛ لأنَّ هُناك تلازماً بين صفات المؤمنين في موضوعاتها ، فما ذكر منها في موضع ، لازم لما لم يُذكر معه ، وذُكر في موضع آخر .

: إذا وُفِّق العبد في دُنياه ، وسار على الهدْى الرَّباني ، منضبطاً في الالتزام بالسلوكيات المذكورة – كان ذلك فلاحاً له في الدَّنيا يؤدِّي به إلى فلاحه في الأخرة، حيث الفوز والنجاح في أن يكون أهلاً لحلول رضوان الله – عزَّ وجل – عليه ، ورحمته له ، تصديقاً لوعده – سبحانه – لهذا الأهل باستحقاقه وراثة جنة الفردوس ، وسعادته بالخلود فيها ؛ للتَّمتع بنعيمها الذي لا يزول ، ومن ثم يكون المُخبرُ عنهم بالفلاح في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ } [١] أراد الله – عز وجل – لهم أن يجمعوا بْين الفلاحيْن (فلاح الدُّنيا) ، و (فلاح الآخرة) ، وهذا يعني أنَّ من توافرت فيه صفات (الخشوع في الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، وفعل للزكاة ، وحفظ فرجه إلا من زوجه ، أو ملك يمينه ، وحفظ الأمانات ، ومراعاة العهود ، والمحافظة على الصلاة) يكون قد أفلح حقَّاً في كُلَّ من دنياه ، وأُخراه ، أفلح في دنياه ، ذلك بأن عاش فيها مُحقِّقاً الهدف الذي خُلق الإنسان من أجله ، على نحو ما بيَّن لنا المولي – عز وجل – في قرآنه قائلاً : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [٢] ، وأفلح في أُخراه ، وذلك بأن نجا من العذاب ، وتمتعَّ بجزيل الثواب في جنة الفردوس الذي وعده الله – سبحانه – بوراثتهما في قوله { أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [٣] إذ إنَّه والحالة هذه يكون قد فاز وسعد بتلك الجنَّة بعد أن نجح في مهمَّته ، سالكاً – في الدُّنيا – سلوك عباد الله المؤمنين المُنتفعين بالباقيات الصَّالحات ، حيث قال جلَّ شأنه : { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً } [٤] .

ونخلص من كُلَّ ما سبق إلى أنَّ الإخبار عن المؤمنين بفلاحهم في بداية سورة (المؤمنون) بقوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ } [٥] فضلاً عن أنه [١]

وقد سبق – في هذا البحث – الحديث عن ذلك باستفاضة ، وذلك تحت عنوان : (التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها) – فلينظر هناك .

(١) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .
(٢) الآية ٥٦ من سورة (الذاريات) .
(٣) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة (المؤمنون) .
(٤) من الآية رقم ٤٦ من سورة (الكهف) .
(٥) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .

جاء منسجماً مع ما ذُكر في خواتيم سورة الحج [٢] إلَّا أنَّ هناك فائدة أخرى مُترتَّبة على إيثار الفعل (أفلح) على غيره من الألفاظ مما هو من شأنه من الممكن أن يقوم مقامه في تأدية المعنى المُراد [٣] من نحو (فاز) ، (سعد) ، و (نجح) ، تلك الفائدة هي : أنَّ لفظ (أفلح) من الفلاح الذي ينتظم أمرين معاً:

أحدهما : (الفلاح الدنيوى) المُتمثَّل في التَّمسُّك بالمنهج الرَّباني ، والعمل به ؛ إذ إنَّ الذي هداه الله عز وجل – وتمسَّك بالمنهج المذكور ، ولم يتخلَّ عن تشريع السَّماء يكون قد أفلح في دُنياه .

وثاني الأمرين (الفلاح الأخُروى) حيث " تكفَّل به الله – سبحانه – للمؤمنين أن يُدخلهم الجنَّة والنعيم المقيم " [٤] إزاء فلاحهم " في الدنيا باتباع المنهج الحق الذي يُطَهِّرُ القلوب ، ويُطَهِّرُ السلوك " [٥] وبذا يكون فلاح المؤمنين في دنياهم وسيلة ، وسبباً لفلاحهم المطلق في الآخرة ، متمثلاً في نجاحهم بالفوز بالجنة وسعادتهم فيها ، ويكون الفلاح الأول سبباً للثاني – على النحو الذي عرفت – وليس العكس ؛ إذا إن الفوز المذكور يقتضي الأخذ بأسبابه من منظور العقل والمنطق ، لذلك أثر القرآن التعبير بلفظ (أفلح) – في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها – بدلاً من التعبير بأي من الألفاظ (فاز ، وسعد ، ونجح) تلك الألفاظ التي لا تدل إلا على بيان العاقبة ، فحسب ، باعتبار أن الفلاح

---

(١) أي الإخبار المذكور .
(٢) حيث جاء التعبير بالفعل (تفلحون) في قوله تعالى { يا ايها الذين أمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون } الآية ٧٧ من سورة الحج – وفي سورة المؤمنون جاء التعبير بالفعل (أفلح) .
(٣) وذلك من وجهة نظر المُتلقي ؛ لما بين الفعل المذكور ، وبيْن تلك الألفاظ من رحم ماسَّة ..
(٤) دراسات قرآنية ص ٢٩٢ .
(٥) السابق .

في الدنيا هو الذي يؤهل صاحبه إلى الاتصاف بكُلٍّ[١] في الآخرة لا العكس ولما كان الامر كذلك جيء بلفظ (أفلح) كعنوان لِعلوِّ شأن المؤمنين في دُنياهم ؛ لتمسكهم بالهدى الرباني ، وفي أخراهم ؛ لفوزهم بالجزاء الحسن الذي ينتظرهم .

يدلنا على كل ما ذكرت ما ورد في القرآن الكريم من آيات مستعمل فيها مشتقات مادتي (الفوز) ، و (السعادة) في بيان عاقبة الذي من شأنه الإيمان بالله –عز وجل – والاستجابة لطاعته، تلك العاقبة المتمثلة في الوقاية من سوء العذاب يوم القيامة، ومن الحزن، وفي حلول فضل الله – سبحانه – ورحمته، ورضوانه بالمؤمنين المُتقين، الذين يؤول مصيرهم إلى دخول الجنات الخلود فيها .

وهذه الآيات هي :

{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ[٢] وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }[٣] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا[٤] }[٥] .

{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[٦].

---

(١) أي بكل من الفوز والسعادة والنجاح .
(٢) أي فاز بدخول الجنة والخلود فيها .
(٣) الآية ١٨٥ من سورة (آل عمران)
(٤) أي فاز فوزاً عظيماً بنجاته من العذاب العظيم يوم القيامة ، ونال الثواب الكبير الدائم الأبدي ، ينظر : التفسير الكبير للرازي ١ / ٣٦٤٨ .
(٥) الآيتان (٧٠ ، ٧١) من سورة الأحزاب .
(٦) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة (النساء) .

{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (١) .

{ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٢) } (٣) .

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(٤) .

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(١) وَفِي الآخِرَةِ (٢) لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ(٣) ذَلِكَ(٣) هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (٤) .

---

(١) الآية ١١٩ من سورة (المائدة) .

(٢) معنى قوله تعالى (مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ) : أي من وفقه الله – عز وجل – لصرف العذاب عنه ، وتجنب أسبابه فهو قدر الله له الرحمة العظمي وهي : النجاة من النار ، ويشر له أسباب تلك الرحمنة ، وفي قوله تعالى : (وذلك الفوز المبين) الإشارة موجهة إلى الصرف المأخوذ من قوله (من يصرف عنه) وإنما كان الصرف عن العذاب فوزاً ، لأنه إذا صرف عن العذاب في ذلك اليوم ، فقد دخل في النعيم في إذا صرف عن العذاب في ذلك اليوم ، فقد دخل في النعيم في ذلك اليوم ، حيث قال تعالى (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) جزء من الآية رقم١٨٥ من سورة ال عمران ينظر : البحر المحيط ٦٩/١، والتحرير والتنوير ٤٥٨/٤ .

(٣) الآية ٧٢ من سورة (التوبة) .

(٤) والمقصود بالبشري في الدنيا : ما بشر الله – عز وجل – به عباده المؤمنين المتقين من إخبارهم بما يظهر سرورهم ، وذلك في غير مكان من كتابة الكريم ، من مثل قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) الآية ٢٥ من سورة البقرة ، وقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) الآية ٣٠ من سورة فصلت فكان عطاء (لهم البشري عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة) .الكشاف ٢ / ٣٤٤ ، ومن ذلك قوله ﷺ(ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقيل له : يا نبي الله : أكراهية الموت فكلنا يكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه ، وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه .... الحديث) صحيح مسلم ١٠ / ١١٧ ، ١١٨ ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ...

{ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[٥]} [٦] .

{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُوَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٧].

{ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [٨] .

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِه[٩]وذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}[١٠] .

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [١١] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

---

(١) والمرد بالبشري في الاخرة : (أن تلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرو من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرأون منها ، وغير ذلك من البشارات) الكشاف ٢ / ٣٤٤ .

(٢) ذلك : إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين – السابق .

(٣) الآيتان (٦٢ ، ٦٤) من سورة (يونس) .

(٤) أي الفائزون بالنعيم في الجنة – ينظر: تفسير القاضي البيضاوي بحاشية شيخ زادة ج ، ص٤٣٥ .

(٥) الآية ٥٢ من سورة (النور) .

(٦)أي نالته رحمة الله – عز وجل – يوم إذ تدخله عدن في يوم القيامة – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٤٧٩ .

(٧) الآية ٩ من سورة (غافر) .

(٨) الآيتان (٥٦ ، ٥٧) من سورة (الدخان) .

(٩) في رحمته : أي في جنته ؛ لأن الدخول حقيقة في الجنة دون غيرها من أقسام الرحمة ، فعبر بالرحمة وأريد الجنة ؛ لأن الرحمن حالة فيه ، من باب المجاز المرسل الذي علاقته (الحالية)، والمجاز بها يحصل من تسمية الشيء الذي يحل فيه ، فلما كانت الجنة محل الرحمة أطلق عليها الرحمة – والله اعلم ، ينظر : روح البيان ٨ / ٣٥٢ .

(١٠) الآية ٣٠ من سورة (الجاثية) .

(١١) الآية ١٢ من سورة (الحديد) .

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(١) .

{ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} (٢).

{ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} (٣).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} (٤) .

{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٥) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ} (٦).

{ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ(٧) لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }(٨)(٩)

---

(١) الآية ١٠ : ١٢ من سورة (الصف) .
(٢) الآية ١١١ من سورة (المؤمنون) .
(٣) الآية ٢٠ من سورة (الحشر) .
(٤) الآية ١١ من سورة (البروج) .
(٥) المراد بالفوز العظيم المشار إليه هنا : ما أعده الله – عز وجل – يوم القيامة لعباده المخلصين المخلصين من نعم ، ومن الخلود في الجنة ، والأمن من العذاب – ينظر : تفسير القاضي البيضاوي بحاشية شيخ زادة ٤ / ١٥٥ .
(٦) الآيتان (٦٠ ، ٦١) من سورة (الصافات .
(٧) بمفازتهم : الباء للملابسة أي متلبسين بالفوز ، أو الباء للسببية ، والمعني : ينجيهم من عذاب النار يوم القيامة ، بسبب ما حصلوا عليه من الفوز بالجنة ، وإضافة (مفازة) إلى ضمير الذين اتقوا (بمفازتهم) ككناية عن شدة تلبسهم بالفوز حتي عرفت المفازة بهم ، ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٤٥١ ، وقيل :(بمفازتهم) : أي بسبب فلاحهم على أن الفوز بمعني الفلاح وقيل : إن (بمفازتهم) ، معناها بسبب أعمالهم الصالحة ، حيث عبر عن تلك الأعمال بالمفازة على سبيل المجاز المرسل ، من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب ؛ لأن الأعمال المذكورة هي سبب الفوز بالجنة . ينظر : الكشاف ٤ / ١٣٥ .
(٨) جاء قوله سبحانه (لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) تفسيراً وبياناً للمفازة ؛ فكأنه قيل : (ما ما مفازتهم ؟) ، فقيل : (لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) : أي ينجيهم الله تعالى يوم القيامة بنفي السوء والحزن عنهم ، ينظر : السابق .
(٩) الآية ٦١ من سورة الزمر .

{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا } [١][٢] .

{ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ[٣] فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}[٤] .

فباستعراض تلك النصوص جميعها – عدا النص الأخير منها – ندرك نوعاً من الوحدة الموضوعية ، فيما بينها، من حيث إن كل ما يتعلق بمادة (الفوز) ، ومشتقاتها (فاز – فوزاً – الفوز – مفازة – مفازاً – الفائزون) " مقصور استعماله على الحكم بالخير الدائم والسعادة الأبدية"[٥] في الآخرة ، لمن أراد الله – عز وجل – له من المؤمنين المستحقين لهذا الفوز ، أو للاتصاف به أن يَعُمَّهُم برحمته ، ويُدْخِلَهُم جنَّته ، للتمتُّع بنعيمها ، بعد أن رضي الله – تعالى –عنهم ، ورضوا عنه ، إزاء سلوكهم القويم في الدنيا ، ذلك السلوك الذي أراده الله – عز وجل – لهم .

---

(١) المفسرون على أن قوله (مفازاً) يحتمل أن يكون مصدراً ميمياً بمعني : الفوز والظفر بما يغتبط به ، أو بما ينبغي ويطلب مما فيه صلاح الحال ، وعليه يكون (حدائق) بدل اشتمال من ذلك المصدر وتفسير له ويمكن أن يكون (مفازاً) في الآية الكريم اسماً لمكان الفوز ، وهو الجنة ، وعلي هذا يكون قوله تعالى (حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا) جاء بعده على سبيل بدل البعض من الكل – ينظر : الكشاف ٤ / ٦٧٦ ، وحاشية شيخ زادة ٤ / ٦٠٨ .

(٢) الآيتان (٣١ ، ٣٢) من سورة (النبأ) .

(٣) معنى قوله : (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) أي : فمنهم يومئذ من هو في عذاب وشدة ، حيث وجبت له له النار ، ومنهم من هو في نعمة ورخاء بسبب دخوله الجنة ، وتمتعه بما فيها ، ينظر : تفسير القاضي البيضاوي على حاشية شيخ زادة ٣ / ٦٦ ، والتحرير والتنوير جـ ٧ ، ص ٢٧٤ .

(٤) الآيات (١٠٥ : ١٠٨) من سورة هود .

(٥) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني ، ص ٢٢٥ – نشر: مكتبة وهبة – ط / أولي ١٤١٧ ، ١٩٩٦ م .

وفي النص الأخير من الآيات السابق ذكرها نلحظ أن اللفظين (شَقِيٌّ) ، و(سعيدٌ) جاءتا وصفاً ، الأول لبعض أهل الموقف يوم القيامة ، وهم الذين وجبت لهم النار في الدنيا ، بما قدموه من أعمال تجلب لهم الخزي في ذلك اليوم، والثاني (سعيد) جاء وصفاً لمن وجبت له الجنة في ذلك اليوم ، لما قدموه من أعمال صالحة في دنياهم [١] ، تلك الأعمال التي جعلت أصحابها أهلاً لهذا الوصف الذي جُعِلَ عنواناً لفلاحهم في الأخرة ، بعد أن وصلوا إلى اقصي درجات الفلاح في الدنيا عن طريق تمسكهم بالمنهج الرباني ، وبذلك يكون هؤلاء قد نالوا (الفلاح في شتي مجالاته ، في الدنيا والآخرة جميعاً " [٢] .

يفسر لنا ذلك ويوضحه ، ما جاء في قوله تعالى : { فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [٣] .

ولا يخفى علينا – كذلك – ما في هذا القول الكريم من دلالة قاطعة على أن كلا من (الشقاوة) ، و(السعادة) الحقيقيتين يكون في الاخرة لا في الدنيا؛ لأن الشقاوة الكبرى والعظمي تكون لأهلها بسبب (سخط الله عليهم وخسئه لهم ، وإهانته إياهم)[٤] ، وتعذيبهم بشتي أنواع العذاب في نار جهنم – (أعاذنا الله – عز وجل – منها) كما هو واضح ، وأن السعادة كل السعادة تكون في الجنة التي هي أعظم السعادات؛ باعتبار أن التنعم فيها "ممتد إلى غير نهاية" [٥]، كما هو

(١) ينظر : الكشاف ٢ / ٤١٣ .
(٢) ينظر : دراسات قرآنية ص ١٩٨ ، ٢٩٢ .
(٣) الآيات (١٠٦ : ١٠٨) من سورة (هود) .
(٤) ينظر : الكشاف ٢ / ٤١٤ .
(٥) الكشاف : ٢ / ٤١٥ .

واضح من قوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ)[١]، أي عطاء غير مقطوع[٢]

ولعلنا بذلك نكون قد وقفنا على السر في إيثار القرآن الكريم لفظ (أفلح) في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ } دون لفظ (فاز) مثلاً أو (سعد) ، ولقد مر بنا ما يدل على أن لكلٍّ مقامه المستعمل فيه ، ودلالته الخاصة به ، والتي لا توجد في سواه ؛ إذ إن (الفلاح) للمؤمنين يكون في الدنيا والآخرة جميعاً ، وأن كلا من (الفوز) ، و (السعادة) ثمرة عظمي للفلاح في الدنيا ، الذي هو وسيلتها ، فهما مرهونان به ، وفي كل دلالة على الخير ، على نحو ما سبق ذكره بالتفصيل .

٢- وفائدة أخرى جليلة نلمسها في إيثار الفعل (أفلح) في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [٣] على أيٍّ من الأفعال (فاز) ، و (سعد) ، و (نجح) ، تلك الفائدة تتمثَّل في أنَّ أياً من الأفعال البديلة لا يُمكن بحال من الأحوال أن تقوم مقام الفعل المذكور في الآية الكريمة ، ولا أن ترقي إلى منزلته ، من ناحية أنَّ كُلَّ من يصير سعيداً ، أو فائزاً ، أو ناجحاً في دنياه ليس من الضروري أن يكون مُفلحاً[٤]، كيف لا ؟ وهُناك من يكون سعيداً ؛ باعتباره أصاب شيئاً من دُنياه الفانية، وإنْ شئت فقل : من يكون سعيداً بكفره ، أو بأمواله ، أو بأبنائه ،

---

(١) الآية رقم ١٠٨ من سورة (هود) .
(٢) ينظر : السابق .
(٣) الآية ١ من سورة (المؤمنون)
(٤) وهذا يعني أنَّ الإنسان قد ينجح في فعل شئ ما ، أو يفوز بالحصول على شيء ويسعد به ، ومع ذلك لا يكون مفلحاً ؛ لأنَّ (لفظ "مفلح") لا يطلق إلاَّ على كُلِّ من أصاب خيراً وصلُح حاله) – ينظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ ١ ص٢٩ (تعليقاً على قول الحقِّ تبارك وتعالى : { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} – الآية ٥ من سورة البقرة ، ولسان العرب جـ ١٠ ص ٣١٦ فلح – " ويُقال أيضاً لكل من عقلَ وحزَمَ وتكاملت فيه خلال الخير قد أفلح " . الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٧٤ – بتحقيق / حسام الدين القدسي – نشر / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – غير مؤرخة .

أو بصحَّته أو بكُلِّ هذه الأمور مُجتمعة ، بغض النّظر عن إيمانه ، أو عن الالتزام به، فكُلُّ هؤلاء – مثلاً – وإن كانوا في قرارة أنفسهم سُعداء ، إلَّا أنهَّم ليسوُا بمفلحين على وجه الحقيقة، ولذلك يُقال : (فلان سعيد بمنصبه على الرَّغم من أنَّه لم يُفلح فيه ولن يُفلح) .

وهُناك في دُنيانا من لا علاقة له بالإيمان لا من قريب ، ولا من بعيد ، ويفوز بمنصب أو جاه دنيوي يستحقُّه ، أو لا يستحِقّه ، ومع ذلك يُقال عنه : (إنّ فُلاناً فاز بمنصب كذا) فمثل هذا ليس أهلاً لأن ينال شرف الوصف بالفلاح .

وكذا هناك من يقوم بارتكاب جريمة ما ، كجريمة (قتل) ، أو (سرقة) ، أو (احتيال) ، ويُقال عنه مثلاً : (نجح) فلان في ارتكاب جريمته ، أو في سرقة كذا ، أو في احتياله على فلان أو في اغتنام ما ليس له، ولا شك في أنّ مثل هذا، أو ذاك أبعد من أن يكون من أهل الفلاح .

وبذا نُدرك أنَّ الحقَّ تبارك وتعالي في قوله {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [١] قد اصطفي الفعل (أفلح) على أيِّ من الأفعال (فاز) ، و (سعد) ، و (نجح) لِما في ذلك الاصطفاء من دلالة على أنَّ هؤلاء المؤمنين قد تكاملت فيهم خلال الخير [٢] ، إلى أن صار ذلك الفلاح سمة من سماتهم التي تُميِّزهم عن غيرهم ، تلك السَّمة التي لا تفتُر ، ولا تخفُت ، ولا تنفكُّ عن الموصوفين بها ، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وأنَّ هذا الوصف سيظلُّ ملازماً لهم في الدَّارين لأنهم جديرون باستحقاقه فيهما[٣]،

---

(١) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .
(٢) الفروق اللغوية ص ١٤٧ .
(٣) ذلك على اعتبار أنَّ من معاني الفلاح اللغوية " نيْل الخير والنفع الباقي أثره " ، وأنَّ " الفلاح لا يفيد التغيير " – السابق ، ويقول الزمخشري : " وهّبّ الله لك الفلاح ، والفَلَحّ ، وهو البقاء في الخير " أساس البلاغة ص ٤٨٠ – نشر / دار النفائس – بيروت – ط / أولي ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، وفي لسان العرب :– " والفلاح : الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير ، وإنَّما قيل لأهل الجنَّة مُفْلِحون ؛ لفوزهم ببقاء الأبد ، وفلاح الدَّهر : بقاؤه " جـ ١٠ ص ٣١٥ – فلح .

حيث إنهم مع اتصافهم بالأوصاف الجليلة المذكور في أوّل سورة (المؤمنون) [١] ، كانوا في دنياهم قد ابتعدوا عن كُلَّ ما يشينهم من الرذائل ، والقبائح ، والدَّنايا التي قد يوصف بها غيرهم ممن يمكن أن يُقال عنهم بسبب صنيعهم لها : إنَّهم (فازوا) ، أو (سعدوا) ، أو (نجحوا) – على نحو ما رأينا – ومن أجل هذا كُلِّه آثر القرآن الكريم في آيتنا الإخبار بلفظ (أفلح) الذي يجمع بين فلاحي (الدُنيا والآخرة) [٢]، دون أيٍّ من الأفعال البديلة ، والتي قد تستخدم في الجانب الدُّنيوي الزائل ، وفقط ، والله – تعالى – أعلي وأعلم .

٣– أضف إلى ما سبق أنّه إذا ما كان من معاني الفلَاح اللغوية " الظَّفَرُ وإدراك بغية " [٣] ، وكان الفَلَاحُ في الأصل مأخوذاً من الشَّق والقطع ، ومنه سُميَّ الفلَّاح فلَّاحاً ؛ لأنه يُفلح الأرض ، أي يشقُّها للحرث وللزَّراعة [٤] ، فإنَّ هذا المعنى يشي بأمرين :

الأوَّل : أن المُسند إليهم الفلاح في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٥] لم يظفروا بمطلوبهم من الخير ، ولم ينجحوا في إدراكه عفواً ، وبسهولة من غير تعب ولا معاناة ، بل قاموا بالسعي إلى الرَّغبة والاجتهاد لإدراك ما

(١) أعني الأوصاف التي دلّت عليها الآيات (١ / ١١) من السورة الكريمة .
(٢) قال صاحب تاج العروس " فليس في كلام العرب كُلّه أجمع من لفظة الفلاح لخيري الدّنيا والآخرة ، كم قاله أئمة اللسان " – تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض الملقّب بمرتضي الزّبيدي – تحقيق / مجموعة من المُحققين جـ ٧ ص ٢٦ – نشر / دار الهداية – غير مؤرّخة .
(٣) المفردات للرَّاغب جـ ٢ ص ٤٩٧ فلح .
(٤) قال صاحب تاج العروس : " وفلح الأرض للزراعة يُفلحها فلْحاً إذا شقَّها للحرث ، والفلاح : الأكّار ، لأنّه يُفلّح الأرض أي يشُقّها وحرفته الفلاحة) جـ ٧ ص ٢٧ ، وفي لسان العرب : (الفلْح : الشَّق والقطع ، والفلْحُ : مصدر فلحتُ الأرض إذا شققتها للزراعة ، وفلّحّ الأرض للزراعة يفلحُها فلْحاً إذا شقّها للحرث ، والفلَّاح : الأكَّار ، وإنما قيل له : فلَّاح ؛ لأنّه يفلح الأرض أي يشقّها ، والفلاحة بالكسر : الحراثة " ج ١٠ ص ٣١٦ (فلح) .
(٥) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .

طلبوا[١] عند الله- سبحانه – بأعمالهم [٢] ، وبخضوعهم له – جلَّ شأنه – عن طريق طاعتهم له ، واستسلامهم لأوامره – جلا وعلا – واجتنابهم لنواهيه ؛ حيث إنهَّم ظفروا على أنفسهم فلم يُتابعوا هواها ، وعلي دُنياهم فلم يَطْغَوْا بزخارفها ، وعلي الشيطان فلم يُفتنوا بوساوسه ، وعي قُرناء السوء فلم يُبتَلَوْا بمكروهاتهم " [٣]، فهم لم يكونوا مفلحين إلَّا بالإيمان الكامل، ذلكم الإيمان الذي أتبعوه بالسلوك العملي ، متمثَّلاً في الاتصاف بالأوصاف الجليلة التي تضمَنتها الآيات المذكورة في مطلع السورة الكريمة [٤] .

وإذا كان فلاح الإنسان يعني حصوله على شيء يرغب في إدراكه ، وفي الفوز به ؛ بغية الانتفاع بما حصَّل في دنياه وأُخراه ، وأنَّ ذلك الحصول يستوجب نشاطاً ، واعتناءً ، وسعيا مصحوباً بالجد والاجتهاد ، بعد الأخذ بالعزيمة قدر الطاقة ممن يُريد الحصول المذكور – أقول : وإذا كان فلاح الإنسان يعني ذلك – فإنَّ كُلًّا من (الفوز ، والسعادة ، والنجاح) في دُنيا الناس قد يكون بصورة أخرى مغايرة ، ألا تراهم يقولون عمَّن نال غرضاً من أغراض الدُّنيا ليس من كسبه ولا من كدِّه ، كمن ورث مالاً كثيراً عن والده ، أو عن جدِّه ، يقولون عنه : (فاز فُلان بأمنيته ، وعثر على مال وفير عفواً بلا عناء منه ولا تعب ، وسعد به أيَّما سعادة ، ونجح في الحفاظ عليه) ، ويقولون كذلك : (نجح فلان في إدراك بغيته

---

(١) وذلك على نحو ما يقوم الأكَّار (الفلاح) بالسَّعي لإدراك ما يريد عن طريق اجتهاده في شقِّ الأرض وإهاجتها وإثارتها للحرث ، وإصلاحها للزراعة .
(٢) ينظر : تفسير المنار للشيخ / محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١١٥ – ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .
(٣) ينظر : روح البيان جـ ١ ص ٣١ (تعليقاً على قوله تعالى (أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) – الآية رقم ٥ من سورة البقرة .
(٤) أي الآيات (١ : ١١) من سورة (المؤمنون) ، على أنَّ الأمر لم يكن مقصوراً على الاتصاف بتلك الأوصاف وفقط ، بل يُضاف إليها كُلُّ ما من شأنه أن يكون وصْفاً لكلِّ مؤمن على نحو ما هو مبيَّنٌ في مواضع متباينة من القرآن الكريم ، وقد سبق أن عرضت لذلك في هذا عند الحديث عن (التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها) ، فلينظر هُناك .

وبسهولة) ، و (فاز) فُلان بمنصب كذا دون أن يسعي في الحصول عليه) ، و (قد ينجح المُهمل في الامتحان) ، و (قد ينجح الفاشل في حياته) .

هذا ولمَّا كان المُراد في آيتنا هو : أنَّ المُخبر عنهم قد فازوا وسعدوا ونجحوا في إدراك كُلِّ ما يروهونه ، ويرغبون في تحقيقه من خيري الدنيا والآخرة ، بعد سعي في القصد إلى هذا الإدراك بكل جدَّ واجتهاد ، وكان المعنى اللُّغوي لمادة (الفلاح) فيه دلالة على السَّعي المذكور ، كان الإخبار بالفعل (أفلح) مُتَّسقاً تمام الاتساق مع المعنى المُراد من الآية الكريمة ؛ لما في ذلك الفعل من إيذان بتلك الدَّلالة التي لا تتوافر في غيره من الأفعال (فاز) ، أو (سعد) ، أو (نجح) ، والتي لا يمكن بحال من الأحوال أن تقوم مقام الفعل المذكور ؛ إذ (الفوز) في الأصل تقتصر دلالته على " الظَّفر بالخير مع حصول السَّلامة " [١] من كل مكروه ، حتَّي ولو كان ذلك الخير متمثَّلاً في الحرص على غرض من أغراض الدنيا الفانية [٢] ، بلا تعب ولا معاناة ، وقد رأينا فيما سبق ذكره من آيات قرآنية وردت فيها مادة (الفوز) فعلاً ، أو اسما ، أو مصدراً ، رأينا أنَّ استعمال هذه المادة في تلك الآيات كان مقصوراً " على الخير الدّائم ، والسعادة الأبدية"[٣]، وهذا يعني أنَّ (الفوز المُطلق) إنما يكون في الآخرة ، بدخول الجنَّة " جزاءً على القيام بأصول الإيمان في العقيدة والعمل" [٤] .

(١) المفردات للرَّاغب جـ ٢ ص ٥٠٠ (فوز) ، وفي لسان العرب : " الفوز : النَّجاءُ والظَّفر بالأمنية والخير ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٧ (فوز) .
(٢) وقد أشار الرَّاغب إلى ذلك حينما قال في قوله تعالى : {وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا } – (الآية ٧٣ من سورة النساء) – قال " أي يحرصون على أغراض الدُّنيا ، ويعُدُّون ما ينالونه من الغنيمة فوزاً عظمياً " – المفردات جـ ٢ ص ٥٠٠ (فوز) .
(٣) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ص ٢٢٤ .
(٤) السابق ص ٢٢٢ .

أما مادة (سَعِدَ) بكل صياغاتها اللغوية فإن معناها يدور حول " اليُمْن الذي هو نقيض النَّحس ، وضِدَّ الشقاوة " (١) ، وتُستعمل كذلك بمعني : " معاونة الأُمور الإلهيَّة للإنسان على نيل الخير " (٢) ، مع ملاحظة أنَّ أعظم السَّعادات الجنَّة ، ومن أجل ذلك قال تعالى : {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ } (٣) ، وقد مَّر بنا أنَّ السعادة في الجنة هي ثمره من ثمرات الفلاح في الدنيا متمثَّلاً في التَّقرُّب إلى الله – عز وجل – بالجدَّ والاجتهاد في طاعته – سبحانه – ذلك الفلاح الذي يؤدي بصاحبه إلى الفلاح بالفوز بدخول الجنَّة ، ومنه إلى التَّرفل بنعيمها ، والسَّعادة بالبقاء فيها بلا تعب ولا إرهاق ، ولهذا كُله أوثر الفعل (أفلح) على الفعل (سعد) ؛ لأنَّ الثاني ليس أهلاً لأن يقوم بالمُهمَّة التي قام بها الفعل الأول في الآية الكريمة .

وأمَّا النَّجاح فإن معناه اللغوي يدور حول : الظَّفر بالشئ وإدراكه (٤) ، سواءٌ أكان ذلك الإدراك بالاجتهاد ، أم بدونه ، بالحقَّ أو بالباطل ، ذلك فضلاً عن أنَّ مادَّة (نجح) ومشتقَّاتها تُستعمل (في الخير والشَّرَّ) والمحبوب والمكروه ، والجدَّ واللهو ، ومن كثرة استعمالها في كُلَّ الأمور ، كبيرها وصغيرها ، عظيمها وحقيرها ، شريفها ووضيعها (٥) ، أصابها الامتهان والابتذال " (٦) – وهذا يعني يعني أنَّ المادَّة المذكورة لا تتناسب وعُلُوَّ شرف المؤمنين حتي يُخبر بها عنهم ، ذلك لوضاعة قدر بعض ما تُستعمل فيه ، أو تُسند إليه (٧) بسبب خداعه ، أو تضليله، أو قذارة أفعاله – لخسَّته ونذالته – أو لبلاهته ، ولمَّا كان الأمر كذلك ،

---

(١) يُنظر : لسان العرب جـ ٦ ص ٢٦٢ (سعد) ، والمفردات للرَّاغب جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٢) المفردات ج ١ ص ٣٠٦
(٣) جزء من الآية (١٠٨) من سورة هود .
(٤) يقول ابن منظور : " النَّجح والنَّجاح : الظفرُ بالشئ ، وقد أنْجَحَ وقد نجحت حاجتي ، وأنْجَحَتْ وأنجحْتُها لك ، وأنجحّتها لك ، وأنْجَحها الله تعالي : أسعفني بإدراكها ، يُقال : نَجَحَ إذا أصاب طلبته ، ونَجَحَت : طلبته ، ونَجَح أمرُ فلان : تيسرَّ وسهُل فهو ناجح " . لسان العرب ، ج ١٤ ص ٤٤ (نجح) .
(٥) وقد سبق أن وضَّحت ذلك بالمثال (منذ قليل) .
(٦) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ص ٢٢٤ .
(٧) وذلك في مثل قول من يقول " قد ينجح الفاشل في حياته) ، أو (قد ينجح المُهمل في الامتحان) ، أو (نجح فلان في ارتكاب جريمته) .... الخ .

أوثر التعبير بالفعل (أَفْلَحَ) دون الفعل (نَجَحَ) ، حيث إنّ مادَّة (الفلاح) بمعناها الواسع لا تُستخدَم إلاَّ فيما يدُلُّ على الخير مادّياً كان أو معنوياً ، وعلي سلامة السلوك الذي لابد أن يكون مصحوباً بالجدَّ والاجتهاد ، بخلاف مادَّ (النَّجاح) ، فإن صيغها تُستعمل في الجدَّ والهزل – على نحو ما رأينا – ذلك فضلاً عن أنَّ هذه الصيغة على الرَّغم " ما فيها من معان شريفة [١] ، إلَّا أنَّ شوائب مُكدِّره تفوح منها أحياناً[٢] " [٣] ، ومن ثم فهي لا ترقى إلى المنزلة أو المكانة التي ارتقت إليها إليها صيغ مادَّة (الفلاح) ؛ وبالتَّالي لا يُمكن أن يقوم الفعل (نجح) بالمُهمة الجليلة الشأن التي قام بها الفعل (أفلح) [٤] في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٥] .

الأمر الثاني : وكذلك ممَّا يشي به المعنى اللغوي لمادَّة (الفلاح) ، باعتبار أنَّ كلمة (أفلح) مُشتقَّة من (الفلح) ، و (الفلاح) الذي يعني في الأصل (الشَّق والقطع والحرث) ، هو أنَّ الحَّق تبارك وتعالي في قوله (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) أثر التعبير بالفعل (أفلح) دون غيره من الألفاظ البديلة ؛ ليُعطينا صورة من واقعنا المُشاهد ، فقد اختار لفظاً عليه دلالة دنيوية تُقرِّب المعنى إلى ذهن السَّامع ؛ إذ إن ّذلك اللفظ يُلفتنا إلى مادَّة (الفلاح) التي هي موجودة بالفعل ، متمثَّلةَ في شق الأرض للبذر ، وإهاجتها وإثارتها بالحرث (الزّرع) ، ممَّا يؤذن بأنّ الفعل (أفلح) مُستعارٌ من فلاحة الأرض ؛ ليُعبر به عن فلاح المؤمن ، وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة ، فالفلَّاح يحرث أرضه ويسقيها ، ويرعاها ، فتعطية الحبَّة بسبعمائة حبَّة ، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة ، قال تعالى :

---

(١) ومن تلك المعاني : الظَّفر بالشئ وإدراكه إذا أصابه وقضي له ، ومنها أيضاً اليُسْر والسّهولة ، حيث يُقال : (نجح أمر فلان أي تيسّر وسهُل) ينظر : لسان العرب ج ١٤ ، ص ٤٤ – نجح .
(٢) وذلك حينما يُخبر بها عن الوصول إلى الهدف في الشَّر ، أو في فعل شيء حقير ، ووضيع كأن يُقال مثلاً : (نجح اللصُّ في نهب الأموال ، ونجح القاتل في الهروب بعد أن ارتكب جريمته) .ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن ص ٢٢٥ .
(٣) السابق ص ٢١٢ .
(٤) وتلك المُهمَّة تتمثَّل في أنَّ المُخبر عنهم بهذا الفعل مقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة معاً .
(٥) الآية ١ من سورة (المؤمنون)

{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [١] ، فكما أنَّ الفلَّاح إذا تعب واجتهد ، زاد محصوله ، كذلك المؤمن كُلَّما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة [٢] .

ولعلَّنا من خلال كُلَّ ما ذُكِر نكون قد أدركنا الحكمة في التعبير بلفظ (أَفْلَحَ) دون أيَّ من الأفعال (فاز – سعد – نجح) ؛ إذ إن الفعل المُعبَّر به في الآية الكريمة كافٍ في الدَّلالة على نهاية الإبلاغ في توفيقة المعنى المُراد من النَّص الكريم حقَّه ؛ لعلِّو قدره [٣] ، ولرفعة درجته حيث إنَّ النَّاظر في دلالة هذا الفعل (أَفْلَحَ) اللغوية ، المتأمَّل فيها يلحظ أنَّه أولي بالاعتبار من الأفعال البديلة ؛ لأنَّه يتضمَّن الإخبار بفوز ، وسعادة ، ونجاح ، من نوع خاص ، وهو النوع المحبوب الذي يتعلَّق بأهل الإيمان في دنياهم إزاء طاعتهم لله – عز وجل – وفي أُخراهم ، حيث الفوز والنجاح في أن يكونوا أهلاً لحلول رضوان الله – تعالى – عليهم باستحقاقهم المثوبة منه – سبحانه – ووراثتهم جنَّة الفردوس ، وسعادتهم بالخلود فيها ؛ للتَّمتُّع بنعيمها السَّرْمدي ، ولا يُستعمل الفعل المذكور في الإخبار عمَّا هو معروف في دنُيا الناس من نجاحات لأهل الزَّيْغ والهوي في أفعالهم المُقيتة ، أو مِمَّا يرونه فوزاً لهم ، واغتباطاً عند صنيعهم لتلك الأفعال ، أو مِمَّا يشيع في نفوسهم من بهجة وسعادة عند اقترافهم للشَّرَّ ، والفساد ، والإفساد ، والضَّلال ، والإضلال ، على نحو ما مرَّ بيانه من استخدام الأفعال البديلة في ذلك، هذا ما حاولتُ الوصول إليه في هذه المسألة ، والله – تعالى – أعلى وأعلم بُمراده ، ويسر كتابه .

---

(١) الآية ٢٦١ من سورة (البقرة) .
(٢) يُنظر : تفسير الشيخ الشعراوي ص ٢٦٥٥ (بدون طبعة) وبدون تأريخ .
(٣) أعني لعلوَّ قدر الفعل (أفلح) .

هذا ، وقوله (أَفْلَحَ) ورد فيه قراءتان أُخريان :

الأولى : (أَفْلَحُوا) – بإلحاق علامة جمع قبل الفاعل – على الإبهام والتفسير [١] ، لما أُبْهم ، بإيضاحه وتبيينه ، وإزالة الغموض العالق به ، ورفع اللبس عنه، ذلك على اعتبار أنَّ المحكوم لهم بالفلاح في قوله (أفلحوا) مبُهم ، وأنَّ ذلك الفلاح صادق على كُلَّ من يناله ، فجاء بعد ذلك قوله (المؤمنون) للكشف والبيان عمَّن يستحقُّه ، وللإشعار بأنّ الفلاح مقصور على هؤلاء الموسومين بالإيمان ، لا يتعدَّاهم إلى غيرهم ، ولاشك في أنَّ إبهام مَنْ أُخبر عنهم بالفلاح أوَّلاً ، ثم تفسيره بعد ذلك باللفظ الدَّال عليه صراحة (المؤمنون) فيه دلالة على فخامة أمرهم ، وعظَم شأنهم [٢] .

وهذا الذي ذكرت أو مال إليه بعض العلماء ، مشيرين إلى أنَّ في القراءة المذكورة توجيهات عِدَّة من بينها :

١ – أنَّ الضمير (واو الجماعة) في (أَفْلَحُوا) فاعل ، وأنَّ الاسم الظاهر (المؤمنون) الوارد بعد ، بدلٌ من ذلك الضمير [٣] .

ويفهم من ذلك التوجيه أنَّ (الواو) ضمير مبهم ، وأنَّ البدل المذكور جاء ظاهراً على جهة تفسير وتوضيح ما أبهم ؛ لبيان مَنْ خُصِّص لهم الحُكم بالفلاح .

---

(١) وهي قراءة طلحة بن مَصْرَف – ينظر : الكشاف ج ٣ ص ١٧٠ ، والبحر المحيط ج ٧ ص ٥٤٦ ، والدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي – تحقيق الدكتور / أحمد محمد الخرَّاط ج ٨ ص ٣١٤ ط / دار القلم – دمشق – أولي ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م ، وحاشية الشهاب جـ ٦ ص ٣١٩ ، وحاشية شيخ زادة جـ ٣ ص ٣٩٦ .

(٢) وذلك لأنَّ في إبهام أمرهم أوَّلاً على المُخاطب يجعله يذهب في ذلك الإبهام كُلَّ مذهب ، وتنزع إليه نفسه وتشتاق إلى معرفته ، والاطلاع على كنه حقيقته ، فإذا ما ورد بعد ذلك إيضاحه وبيانه، كان أوقع في نفس المُخاطب ، وأكثر جذباً لعنايته ، وتمكن في نفسه فضل تمكُّن ، : ينظر الطراز ج ٢ ص ٧٨ : ٨٨ .

(٣) وذلك على غرار ما جاء في قوله تعالى : {ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ } جزء من الآية ٧١ من سورة (المائدة) ، وكما جاء في قوله تعالى : {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} جزء من الآية رقم ٣ من سورة (الأنبياء) ، ينظر : الدُّر المصون جـ ٨ ص ٣١٤ ، وحاشية الشهاب جـ ٦ ص ٣١٩ .

وفيه أيضاً زيادة تقرير أنَّهم المقصودون بذلك الحُكم، وأنَّ سبب ذلك يرجع إلى إيمانهم [١]، وهذا يعني أنَّ الفلاح مرتبط بالإيمان ، ولا يحصل الأول بدون الثاني .

٢ – أنَّ (واو الجماعة) في (أفلحوا) فاعل ، و (المؤمنون) خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير (أفلحوا هم المؤمنون) [٢] ، وعلي هذا يكون في الأسلوب إيجاز بحذف المبتدأ ، فضلاً عمَّا يفيده ذلك التوجيه من أَن ذكر الخبر إنما كان ؛ لتوضيح مَنْ خُصِّص لهم الحُكم بالفلاح ؛ وإزالة الغموض عنه .

٣ – أن يكون (المؤمنون) مبتدأ تقدَّم عليه خبره ، والتقدير : (المؤمنون قد أفلحوا) [٣] ، وهذا يعني أنَّ التقديم المذكور فيه إيذان بإبراز مَنْ أُخبر عنهم بالفلاح في صورتين :

إحداهما : مُبهمة مجملة متمثَّلة في (واو الجماعة) المُلحقة بالفعل .

والصورة الأخرى : موضِّحةٌ مفسِّرةٌ لها ، كشف لنا عنها المبتدأ المؤخَّر (المؤمنون) الذي يومئ بعظمة ذلك الفلاح الذي امتنَّ الله – عز وجل – به عليهم؛ نظراً لِعُلُوِّ شأنهم ، ورفعة مكانتهم عند خالقهم – جلَّ في عُلاه – فهم من صفوة خلقه الذين آثرهم الله – سبحانه – بذلك الفلاح ، بعدما آمنوا به جلَّ شأنه – إيماناً لا يعتريه أدنى شك ، ولا تشوبه أيَّةُ شائبة .

---

(١) يُنظر : ما ذكره الطاهر بن عاشور تعليقاً على قوله تعالى : {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا....} جزء من الآية رقم ٣ من سورة الأنبياء (في التحرير والتنوير جـ ٩ ص ١٩٩ .

(٢) ينظر : البحر المحيط جـ ٣ ص ٤٢٧ (تعليقاً على قوله تعالى : {ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ} جزء من الآية ٧١ من سورة (المائدة) ، جـ ٦ ص ٢١٦ تعليقاً على قوله تعالى :{ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } – جزء من الآية رقم ٣ من سورة الأنبياء ، والمُحرَّر الوجيز جـ ٢ ص ٢٥٨ ، والدُّرُّ المصون جـ ٨ ص ٣١٤ .

(٢)ينظر : البحر المحيط جـ ٣ ص ٤٢٧ (تعليقاً على قوله تعالى { ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ } جزء من الآية ٧١ من سورة (المائدة) ، جـ ٦ ص ٢١٦ تعليقاً على قوله تعالى :{وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا }– جزء من الآية رقم ٣ من سورة الأنبياء.

ومِمَّا هو جليٌّ أيضاً أنَّ تقديم المسند (أفلح) – سواءٌ في القراءة المذكورة أم في غيرها من القراءات الواردة فيه – على المسند إليه (المؤمنون) إنما كان لداع بلاغي آخر ، حيث إنَّ ذِكر المُقدَّم (المسند) أوَّلاً يثير في النَّفس تشويقاً إلى معرفة (المُسند إليه) المُتأخِّر، واهتماماً وتطلُّعاً إله، حتي إذا ما تمَّ في النفس معرفتها به ، تمكن فيها فضل تمكُّن ، وتقرَّر فيها خير تقرير [١].

خلاصة القول :

في ضوء ما سبق ذكره من توجيهات للقراءة المذكورة ، تبيَّن لنا أن ذكر لفظ (المؤمنون) بعد (واو الجماعة) المُلحقة بالفعل (أفلح)؛ إنمَّا كان لفائدة بلاغية تتمثَّل في الإيضاح بعد الإبهام ، أو التفصيل بعد الإجمال – على النحو الذي ذكرت – ولا يخفى ما في ذلك من تأكيد للمعني ، وتقرير له في ذهن السَّامع، بذكره مرَّتين (مرَّة على سبيل الإجمال والإبهام ، وأخرى على سبيل التفصيل والإيضاح " [٢]، وذلك " ليُري المعنى في صورتين مُختلفتين ، أو ليتمكّن في النفس فضل تمكن ، فإنّ المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام ، تشوَّقت نفس السَّامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فتتوجَّه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا أُلقي كذلك تمكَّن فيها فضل تمكُّن ، وكان شعورها به أتمَّ ، أو لتكمُل اللَّذَّة بالعلم به ، فإنَّ الشئ إذا حصل كمال العلم به دفعةَ لم يتقدَّم حصول اللَّذَّة به ألم ، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوَّقت النَّفسُ إلى العلم بالمجهول

(١) ينظر : الإيضاح ص ٣٣ ، وخلاصة المعاني– للحسن بن عثمان بن الحسين المغني – تحقيق الدكتور / عبد القادر حسين، ص ٢٠٣ – ط / دار الاعتصام – غير مؤرخة .
(٢) يُنظر : المطوَّل ص٢٩١ ، وشروح التلخيص جـ ٣ ص ٢١٠ ، والطراز جـ٢ ص ٧٨ : ٨٨ .

، فيحصُل لها بسبب المعلوم لذَّة ، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم ، ثم إذا حصل لها العلمُ به حصلت لها لذَّةٌ أخرى ، واللَّذة عقيب الألم أقوي من اللَّذَّة التي لم يتقدَّمها ألم " [١].

القراءة الثانية : { قَدْ أُفْلِحَ الْمُؤْمِنُونَ} – ببناء الفعل للمفعول [٢] – وعلي هذه القراءة يكون في الأسلوب إيجاز بحذف الفاعل إذ إنَّ التقدير (قَدْ أَفْلَحَ الله الْمُؤْمِنِينَ) ، إلَّا أنَّه اقتُصر على ذكر المفعول به الذي ناب مناب الفاعل المعلوم لدى المُخاطبين ؛ اعتناء بذكر المفعول ، فضلاً عن أنَّ كُلَّ مَنْ له أدني بصيرة يُدرك أنَّ الفاعل الحقيقي للفلاح هو (الله) – عز وجل – ومنْ ثم فهو فلاح عظيم الشأن ؛ لأنه مِن قِبل المولى – سبحانه – الذي لا يحتاج إلى ذكره ؛ لقيام مفعوله مقام فاعليته ، ولقوَّة الدَّلالة عليه – جلَّ شأنه – ولاشك في أنَّ الإيجاز المذكور لطيفة من لطائف القرآن، وبديعة من بدائعه التي يستخدمها في مواضعه التي تحتاج إليه ؛ وهو (الإيجاز) من شجاعة العربية على نحو ما قال به إمام الصِّناعة (ابن جنَّي) في خصائصه [٣]، ومن بعده جاء الإمام (عبد القاهر) ، ومَدَحَ هذا النَّوع من الأسلوب شريطة أن يؤتي به " في موضعه الذي يُناسبه ومكانه الذي يوائمه " [٤] ، قائلاً : " فإنَّك ترى به تَرْكَ الذِّكْر أفصح من الذِّكر ، والصَّمت عن الإفادة أَزْيَدَ للإفادة وتَجدُك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم

(١) الإيضاح للخطيب القزويني ص ١١١ ، ١١٢ .
(٢) وهي قراءة طلْحة بن مصرف – أيضا – وعمرو بن عُبيد ، (ينظر : الكشاف جـ ٣ ص ١٧٠، والبحر المحيط جـ ٧ ص ٤٥٦ ، والدُّر المصون جـ ٨ ص ٣١٤ .
(٢) يُنظر : الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني – تحقيق / محمد على النجار جـ ٢ ص ٣٦٢ ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .
(٢) الإيجاز (دراسة بلاغية ورؤية نقدية) للدكتور / محمود شاكر القطان ص ٦ (بدون ذكر لدار النشر أو الطبع) ١٩٨٩م .

تُبِنْ " [١] ، وهذا يعني أنَّ (حذف ما يُستغني عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة " [٢] .

ومِمَّا يجب التنبيه إليه في هذا المقام هو : أنَّ القراءتين السابقتين [(أَفْلَحُوا) ، و (أُفلِحَ)] متكاملتان غير متعارضتين ، وأنَّهُما معاً تتآزران والقراءة الأصلية (أَفْلَح) ، وذلك هو الشأن في آيات القرآن وقراءاته ، يُعلي بعضها بعضاً، إذ القراءات القُرآنية لا تختلف ، فكل قراءة بمنزلة آية يُفسِّر بعضها بعضاً ، أو يُكمِّلها ، أو يُقرِّرها [٣].

هذا ، وقد جاء المسند إليه معبَّراً عنه بقوله (المؤمنون) ، هكذا بهذا الوصف (في صيغة اسم الفاعل) – من الفعل الرُّباعي (آمن) – للدلالة على التأكيد والمبالغة في ثبوت صفة الإيمان لهؤلاء المُفلحين ، واستقرارها في قلوبهم، إذ إنَّ الاسم المذكور (يقتضي ثبوت الصَّفة وحصولها من غير أن يكون هُناك مُزاولة فعل ، ومعني يحدث شيئاً فشيئاً ، وحيناً فحين " [٤] ، مِمَّا يُفيد أنَّ الموسومين بتلك الصَّفة (المؤمنون) إنَّما كانوا جديرين باستحقاق الفلاح المُخبر به عنهم ؛ لاستقرار صفة الإيمان التي عُرفوا بها في نفوسهم ؛ حيث إنهم كانوا قد ثبتوا على الإيمان ، وبلغوا الدَّرجة العُليا منه ، إلى أن صار صفة راسخة في قلوبهم وعقولهم ، لا تُبارحهم ، ولا تنفكَّ عنهم أبداً ، وأضحى سجيَّة وطبيعة فيهم ، ولا مجال إلى انتزاعه من قلوبهم ، ذلك على نحو ما أراد الله

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .
(٢) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق / محمد خلف الله أحمد ، والدكتور / محمد زغلول سلَّام ص ٥٢ نشر / دار المعارف ط – رابعة – غير مؤرخة .
(٣) ينظر : دلالة الألفاظ عند الأصوليين للأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد ص ٩٤ ط / مطبعة الأمانة – أولي ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧ م .
(٤) يُنظر : دلائل الإعجاز ص ١٧٥ .

– عز وجل – لهم [١] ، فهم مؤمنون في الماضي والحاضر ، والمستقبل ، وفي كُلِّ وقت وحين ، وفي جميع حركاتهم وسكناتهم ، وأنَّ إيمانهم " له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها، وإنْ غفل عنها [٢]" [٣] ، وما داموا كذلك ، فالفلاح أيضاً لهم ثابت دائم أبداً [٤] ، مِمَّا يعني أنَّ الحُكم على هؤلاء بالفلاح إنما كان بما لا يعلمه إلَّا الله – عز وجل – وهو الإيمان المُتغلغل في قلبوهم ، ويعني كذلك أنَّ الفلاح يدور حول ثبوت هذا الإيمان ودوامه حيثما دار ، فإذا ما كان ذلك الثبوت حاصلاً ثبت الفلاح ، وإلا فلا ، فالعبرة في استحقاق الفلاح إذاً بثبوت الاتصاف بالإيمان ، وليس بمجرَّد حصوله ظاهراً حيناً بعد حين ، ومن ثمَّ كان قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[٥] ، أبلغ في الدَّلالة على مدح هؤلاء المُفلحين مِمَّا لو قيل مثلاً : (قد أفلح الذين آمنوا) ، أو (قد أفلح الذين يؤمنون) ؛ إذا إنَّ كُلَّاً من الصيغتين البديلتين " يُنبئ عن تجدُّد واكتساب فعل لا عوْد صفة "[٦] ، ولو جاء التعبير بأيَّ من هاتين الصيغتين ، لكان المراد هو : أنَّ إيمان المُخبر عنهم بالفلاح غير مستقر ، وأنَّ شأنه أن يتجدَّد بتجدُّد الأوقات ، وفي الحالة هذه يكون ذلك الإيمان فعلاً من أفعالهم التي يمكن أنْ تزول وتنقطع إن لم يتجدَّد حدوثه ووقوعه جزءاً فجزءاً [٧] ، لا صفة راسخة في نفسوهم متغلغلة في قلوبهم .

---

(١) وأن يكون شأنهم شأن من قال الله – عز وجل – فيهم {أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} – الآية ٢٢ من سورة المُجادلة ، وألَّا يكونوا ممن أخبر الله – سبحانه وتعالى – عنهم بقوله : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} الآية ١٤ من سورة الحُجرات .

(٢) أي : وإن غفل القلب عن تلك الحقيقة .

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ٤ ص ٦٧ .

(٤) وهذا يعني أنَّ (الإيمان والفلاح) متلازمان ، وأنَّ الثاني يتبع درجة حرارة الأول ارتفاعاً وانخفاضاً .

(٥) الآية ١ من سورة المؤمنون .

(٦) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ٤ ص ٦٨ .

(٧) ينظر : دلائل الإعجاز ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

وبذا نُدرك أن الاسم (المؤمنون) الوارد في الآية الكريمة " روعي فيه الإشعار بالاتصاف" [١] بالإيمان (من غير تٌعرِّص لزمان حصوله ، أو لتقضيه شيئاً بعد شئ ألا ترى أنَّ المقصود مدح المتصفين بذلك من غير تعرُّص لزمان من الأزمنة الثلاثة ؟ " [٢] ؛ حيث إنَّ فلاح هؤلاء يستلزم ثبوت إيمانهم – الذي دَلَّ عليه الاسم المذكور – ويقتضيه على إطلاقه ، ولاشك في أنَّ إيمان العبد إذا ما كان ثابتاً على إطلاقه يكون أعلي وأسمي مِمَّا لو " عُرِص له الثُّبوت في بعض الأحوال " [٣] دون البعض الآخر ، تلك الأحوال التي يكون الإيمان فيها فعلاً من الأفعال ، لا صفة من الصِّفات القارَّة في نفوس أصحابها [٤] ، ذلك فضلاً عن أن تعريف المُخبر عنهم بالفلاح بالاسم الدَّال على الإيمان في قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٥] ، أوجز وأخصر من تعريفهم بالصِّلة كان يُقال مثلاً : (قد أفلح الذين آمنوا) ، أو (الذين يؤمنون)، أو (من آمن) .

أضف إلى ذلك أنَّ الوصف (المؤمنون) المذكور بصيغته الدَّالة على أنَّ الإيمان قد تركَّز في نفوس أصحابه لدرجة تغلغله داخل قلوبهم، هذا الوصف يؤذن بأنَّ إيمانهم هذا من شأنه أن يحملهم على الاستجابة للاتصاف بالصِّفات المذكورة بعد [٦] ، والتي تكشف عن صدق إيمانهم ؛ باعتبار أنَّ تلك الصفات من أحكام

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزَّملكاني – تحقيق الدكتوران / خديجة الحديثي ، وأحمد مطلوب ، ص ١٤٣ ط / مطبعة العاني – بغداد /ط ، أولي ١٣٩٤ ه ، ١٩٧٤ .
(٢)البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزَّملكاني ص ١٤٣ .
(٣) السابق .
(٤) ينظر : شذرات الذهب (دراسة في البلاغة القرآنية جـ ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، والتذكرة في معاني النحو ص ٩٣ ، والكتابان للعالم الجليل الأستاذ الدكتور / محمود توفيق محمد سعد الأول ط / أولي ١٤٢٢ه ، والثاني بدون تاريخ ، وكلاهما بدون ذكر لدار النشر .
(٥) الآية ١ من سورة المؤمنين .
(٦) وهذه الصِّفات هي (الخشوع في الصلاة ، والإعراص عن اللغو ..... الخ) والتي دلَّت عليها عليها الآيات (٢:٩) الواردة في سورة (المؤمنون) عقب الآية الكريمة التي هي محل الدِّراسة .

الإيمان التي لابد من العمل بمقتضاها [١] ؛ حتي يَسْمُوَ المرء إلى درجة المؤمنين الخُلَّص الجديرين باستحقاق الفلاح الذي هو منبع جميع السعادات بالنسبة لهم ، ومن أجل هذا قُدِّمت صفة الإيمان على الصِّفات التالية له ، إذ إنَّ تلك الصفة أساس التكليف وأصله ، وما بعدها من صفات تبع لهذا الأصل ومُرتَّبٌ عليه .

وهذا يعني أنَّ التعبير بلفظ (المؤمنون) فيه دِقَّة ؛ حيث إنَّ إيثاره على غيره من الألفاظ المتقاربة إنمَّا كان ؛ لِما فيه من استنهاض لهم من يُريدون الفلاح ؛ إذ إن عليهم أوَّلاً (أن يسموا بأنفسهم إلى يفاع الإيمان ، وذلك بأن يستفرغوا جهودهم في الجدِّ والاجتهاد في تحقيق مزيد من الطاعات قدر استطاعتهم [٢] ؛ حتي يتغلغل الإيمان في قلوبهم إلى أن يصير سمة من سماتهم الثابتة التي لا تبارحهم ولا تفارقهم [٣] .

وليس هذا فحسب ، بل لابد لمن يُريد الفلاح أن يكون إيمانه على التَّمام والكمال دون أن يتطَّرق إليه أدني شكٍّ أو ريب [٤] ، دلَّنا على ذلك مجئ لفظ (المؤمنون) مُعَّرفاً بـ (ال) الجنسية (المتمثَّل معناها النحوي في استغراق الجنس ، وشمول جميع أفراده " [٥] ، والتي " تفيد معنى الكمال في الصَّفة " [٦] ،

---

(١) يُنظر : تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) للشيخ شلتوت ص ١١٩ .
(٢) وذلك استجابة لقول الحقّ تبارك وتعالي:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} . جزء من الآية ١٦ من سورة التغابن
(٣) ينظر : دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ١٩٦ .
(٤) ولعلَّ هذا ما يُفيده قوله تعالى : (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) الآيات (٣:١) من سورة النمل .
(٥) ينظر : المقتصد في شرح الإيضاح للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق / كاظم بحر المرجان، المرجان، ج ١ ، ص ٦٢ ط / دار الرشيد – العراق ١٩٨٢م ، وحاشية الصَّبان جـ ١ ، ص ١٠٧ ، وحاشية على شرح الفاكهي لقطر الندي لـ (يس بن زين الدين الحمصي الشافعي ، جـ ١ ٢٢٨ ، ٢٢٩ ط / مطبعة مصطفي البابي الحلبي – ط ، ثانية ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م ، وينظر : الإيضاح للقزويني ص ٢٧ ، ٢٨ ، والمطوَّل ص ٨١ : ٨٧ .
(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبي موسي ص ٣٠٧ – نشر / مكتبة وهبه ط / ثانية ١٤٠٨ ه ، ١٩٨٨ م ، ومما يجب التنبيه إليه في هذا المقام هو : أنَّ المعنى

، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ المُخبر عنهم بالفلاح قطاع خاص من المؤمنين ، وهم صفوتهم الذين آثرهم الله – عزَّ وجل بفضله ؛ لاكتمال إيمانهم [١] ؛ وعليه يكون المُراد بـــ (المؤمنون) : جنسهم : أعني كُلَّ فرد من أفراد المؤمنين الذين من شأنهم الكمال في الإيمان ، بأن كان قد اجتمع فيهم كل خصاله ، وخصائصه المعتبرة فيه [٢] ، وثبتوا على ذلك ، إلى أن صاروا عريقين في ذلك (الوصف)[٣]؛ وارتفعوا بمستواه ، حتي استشعروا لذَّته في انفسهم ، وجريانه في عروقهم ، وكأنَّ ذلك الإيمان قد خالط لحمهم ودمهم .

فالحكم بالفلاح يشمل كُلَّ من كان بتلك المثابة في كُلِّ عصر ، وفّي كُلِّ مِصْر ، بغض النظر عن جنسه ، أو لونه ، أو لغته ، غنيَّاً كان أو فقيراً ، ذكراً كان أو أُنثي ، في أي زمان ، وفي أي مكان إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ، بدليل قوله تعالى في آية أخرى :{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) [٤]، وقوله سبحانه : {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

المذكور ألمح إليه كثير من المفسَّرين ، من بينهم (الزمخشري) في كشافه ، و (أبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط) ، والشهاب الخفاجي في (حاشيته) على تفسير القاضي البيضاوي . ينظر : ما قالوه تعليقاً على قوله تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ} – جزء من الآية رقم ١٣ من سورة البقرة ، – الأول جـ ١ ص ٧٢ ، والثاني جـ ١ ص ٤٨ ، ٤٩ ، والثالث جـ١ ، ص ٣٣٤ ، وينظر : البرهان في علوم القرآن جـ ٤ ، ص ٨٨ .

(١) وهذا يعني أنَّ الصِّفات التي تضمنتها الآيات (٢:٩) المذكورة عقب قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} – الآية ١ من سورة المؤمنون – من تمام الإيمان وكمال الإسلام ، وكأنَّ المولي – عز وجل – قال : (قد أفلح المؤمنون الذين من صفتهم كيت وكيت) ، والدليل على ذلك ما ذُكر عقب تلك الآيات من قوله تعالي – وصفاً لهؤلاء المؤمنون – { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة المؤمنون – إذ إنَّ الفلاح ليس بالمال ، ولا بالجاه ولا بالمنصب ، وإنما الفلاح يكون بالإيمان المترتب عليه الاتصاف بما ذكر .

(٢) وذلك على نحو ما سبق تفصيله عند الحديث في ثنايا هذا البحث عن (التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها) .

(٣) أعني (الوصف بالإيمان) .

(٤) الآية ١٢٤ من سورة النساء .

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١] ، وقوله جلَّ شأنه : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [٢] .

ففي آيتنا { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٣] ، اقتُصر على ذكر (المؤمنون) بجمع المُذكر السالم من باب التغليب ؛ إذ إنَّ النساء شقائق الرِّجال في الأحكام الشرعية بدليل التَّصريح بذكرهن في الآيات السابقة .

وبالجملة ، فإنَّ هذا الوصف لا يكاد يتحقَّق إلَّا لمن حسُن إسلامه ، وكمل إيمانه ، بالإعراض عن كُلِّ ما يتنافي والإيمان ؛ ذلك على اعتبار أنَّ المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم ؛ إذ إنَّ الإيمان له درجاته ، وليس أتباعه في الاتصاف به سواء ، بل هم على درجات في الاتصاف به [٤] ، والواقع المُعاش فيه ما يدُلُّ على ذلك .

ففي التعريف بـ (ال) إذاً إشارة إلى تمييز صفة الإيمان الذي قد يدَّعيها كثيرون ، أو يشترك فيها متعدِّدون ، وكأن التقدير في الآية الكريمة : (قد أفلح المؤمنون حقَّاً) ، أو (قد أفلح المؤمنون حقَّ الإيمان) ، ذلك كما قال تعالى في آية

---

(١) الآية ٩٧ من سورة النَّحل .
(٢) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .
(٣) الآية ١ من سورة المؤمنين .
(٤) ذلك على اعتبار أنّ أهل الإيمان ليسوا سواءً فيه ، باعتبار طاعتهم لله – عز وجل – ولكنهم يتفاضلون في ذلك ، ولذلك قال تعالى في شأن هؤلاء : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) – الآية ٣٢ من سورة فاطر ، قال الزمخشري في قوله تعالى (الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) : (وهم أمَّته (أي أمة محمد ﷺ) من الصَّحابة والتابعين ، وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ؛ لأنَّ الله اصطفاهم على سائر الامم ، ثم قسَّمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله ، ومقتصد : هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وسابق من السابقين) الكشاف جـ ٣ ، ص ٥٩٤ .

أخرى : { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [١]، مَمَّا يعني أن تعريف لفظ (المؤمنون) بـــ (ال) فيه دلالة على الاختصاص [٢] ، فليس كُلّ مؤمن يشمله هذا اللفظ ، وإنما هــو خاصٌّ بمن كان قلبُه مطمئناً بالإيمان عامراً به راسخاً فيه ، جامعــاً لكــل صــفات المؤمنين التالية له في الذكر ، وغيرها من الصفات المذكورة فــي القــرآن الكــريم بخصائصها المُعتبرة ، وبمنهجها المرسوم في هذا الكتاب الخالد ، تلك الصِّفات التي لا يتصَّف بها إلَّا أصحاب القلوب النقية الطاهرة المؤمنة التي تستحق التكريم من قِبلِ الله – عز وجل – بالفلاح ، بعد أن تسعي إلى تحقيقه .

هذا ، ولو ذُكر هذا الوصف بصيغة أخرى لم تُذكر فيها (ال) من نحو قولنا مثلاً : (قد أفلح من آمن) لم ، نستشعر منه هذا المعنى – الذي ذكرْتُ – والمبني على الاختصاص المُفاد من أداة التعريف المذكورة ، ولكان المقصود من الصيغة البديلة مدح جميعا طبقات المؤمنين على اختلاف درجاتهم المتفاوتة في الإيمان ، وإن لم يتصفوا بالصِّفات التي تضمنَّتها الآيات الثماني الواردة بعد الآية التي هي محل الدراسة [٣] ، ولكن لمَّا كان هذا ليس مُراداً ، وكان المُراد هــو انَّ الفــلاح مُختصٌّ بطائفة معيَّنة من جنس المؤمنين ، كان لفظ (المؤمنون) قد وقع موقعه ؛ حيث اقتضت البلاغة والإعجاز ذكره من باب أولي ، ذلك لمــا يتضــمَّنه مــن

---

(١) جزء من الآية رقم ٤ من سورة الأنفال ، وينظر : الطراز جـــ ٢ ، ص ١٩ .

(٢) يقول أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزَّجــاجي : " ولا تقــع هــذه الصَّــفة (يقصــد : " المؤمنون") مُعرَّفة بالألف واللام إلَّا على المؤمنين بالله – عز وجل – والنبي عليه الســلام – وشرائعه ، ولا تقول لمن صدَّق بخبر من الأخبار ، أو بشئ من الاشياء ، وهو مُخــالف لهــذه الشريعة : المؤمن مطلقــاً ، حتــي تقــول : مــؤمن بكــذا ، وكــذا)) كتــاب : اللامــات – تحقيق / مازن مُبارك ، صـــ ٤٤ ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيــع – بدمشــق ثانيــة ١٤٠٥ د ، ١٩٨٥م ، وينظر : الطراز جـــ ٢ ، ص ١٤٧ (حيث ذكر العلوي ما يفيد أنَّ (ال) قد يؤتي بها في الاسم ؛ للدَّلالة على الاختصاص ، ومن قبله قال السهيلي ت (٥٥٨١) : " فــإنَّ الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيــره " – نتــائج الفكر في النحو – تحقيق الدكتور/ محمد إبــراهيم البنــا ص ٣٠٢– ط دار الريــاض للنشــر والتوزيع– (بدون تاريخ) .

(٣) أعني الآيات (٢:٩) من سورة (المؤمنون) من أول قوله تعالى (الَّــذِينَ هُــمْ فِــي صَــلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) إلى قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} .

استشعار بالمدح للموصوفين المذكورين دون غيرهم ، مع ملاحظة أنَّه لمَّا كانت الصِّفات المذكورة بعد [١] ، مرتَّبة على صفة الإيمان جاءت الجمل المُتضمِّنة لتلك الصِّفات [٢]، إشباعاً لدلالة (ال) – في " المؤمنون"، ومزيد تفصيل لها [٣] ، وهذا يتناسب وما ورد في خواتيم سورة (الحج) [٤] ، من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [٥] ، وكأنَّ النداء في هذا القول الكريم ، كان قد أدَّي مهمَّته ، فانقاد المُنادَي عليهم لأوامر الله – عز وجل – وأحكامه ، فركعوا وسجدوا واستفرغوا جهودهم ، وبذلوا كُلَّ ما في وسعهم من أجل عبادة الرَّب – سبحانه – وفعل الخيرات إلى أن استقرَّت حقيقة العبودية في نفوسهم ، واستحال الإيمان صفة من الصفات الثابتة في قلوبهم ، وصاروا من (المؤمنين) [٦] ، بعد أن كانوا من (الذين آمنوا) وقت النداء عليهم بـ (ياء) النداء التي تستخدم في نداء الساهي ، أو الغافل ، حيث كان إيمانهم حينئذ فعلاً من أفعالهم التي تقتضي المزاولة ، والتَّجدُّد بتجدُّد الأوقات ، على نحو ما هو مُفاد من الصيغة المُنادي بها عليهم في القول القرآني السابق .

---

(١) أي بعد قوله تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} . الآية ١ من سورة المؤمنون .

(٢) التي هي الخشوع في الصلاة ، والإعراض عن اللغو ..... الخ .

(٣) قال ابن تيمية : (أنَّه إذا قيل : إنَّ الشارع خاطب الناس بلغة العرب ، فإنما خاطبهم بلغتهم المعروفة ،وقد جري عُرْفهم أنَّ الاسم يكون مُطلقاً وعامَّاً ، ثم يدخل فيه قيدٌ أخصُّ من معناه ، كما يقولون : ذهب إلى القاضي والوالي والأمير ، ويُريدون شخصاً معيَّناً يعرفونه دلَّت عليه اللام مع معرفتهم به ، وهذا الاسم في اللغة اسم جنس لا يدُلُّ على خصوص شخص ، وأمثال ذلك ، فكذلك الإيمان والصلاة والزكاة ، إنَّما خاطبهم هذه الأسماء بلام التعريف ، وقد عرَّفهم قبل ذلك أنَّ المراد الإيمان الذي صفته كذا ، وكذا) – الإيمان ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) يُنظر : ما ورد ذكره عن ذلك في صدر هذا البحث ، عند الحديث عن مُناسبة سورة المؤمنون لما قبلها .

(٥) الآية ٧٧ من سورة الحج .

(٦) ومن ثم استحقوا أن يكونوا من الذين قال الله – عزَّ وجل – في شأنهم : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... } إلى آخر الآيات (١ : ١١) من سورة المؤمنون) ، ذلك على سبيل المدح لهم ، بعد أنْ نفَّذوا المطلوب على وجه السُّرعة ، وصار الإيمان دينهم ، ولذلك أفلحوا .

ومن خلال كُل ما سبق ذكره عن الوصف (المؤمنون) يُمكن كذلك القول : باننا نلمح أن فيه تعريضاً بالتحذير لمن لم بكن الإيمان وصفاً ثابتاً له كـ (الذين آمنوا) ، ولم يبلغوا درجة " المؤمنين ") من المُخالفة لأوامر الله – عز وجل – وعدم اجتناب نواهيه .

هذا ، ومِمَّا يستوقفنا كذلك إيثار لفظ (المؤمنون) على لفظ (المسلمون)[١]، في آيتنا {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٢] ، ويبدو – والله أعلم – أنَّ ذلك إنما كان ؛ للدَّلالة عل أنَّ الإسلام ، وإن كان معلوماً بحكم الظاهر بأنه في الأصل هو (الاستسلام والانقياد الظاهر) ، إلَّا أنَّ الإيمان فهو : التَّصديق بالباطن الذي لا يعلمه إلَّا الله – عزَّ وجلَّ – باعتباره صفة من صفات القلوب [٣] ، وهو أصل من أصول الإسلام

---

(١) ذلك على الرَّغم من أنَّ المراد بـ (المؤمنون) هنا : (المسلمون) الذين آمنوا بالله ربَّاً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمَّد ﷺ نبيَّاً ورسولاً إيماناً صحيحاً له سلطانه على النفوس .

(٢) الآية ١ من سورة (المؤمنون) .

(٣) وقد استنبط العلماء كلامهم هذا من خلال نصوص قرآنية ، وأخري نبوية شريفة وكان مما أستندوا إليه من القرآن الكريم قوله تعالى :{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ...} ، الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجرات – وقوله تعالى : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ....} الآية ٢٢ من سورة المجادلة – وقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...} الآيات (٢:٤) من سورة الأنفال – وقوله تعالى { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} – الآية ١٦ من سورة الحديد فكلُّ هذه الآيات – وغيرها كثير – فيها دلالة قاطعة على أنَّ لوازم الإيمان من أحوال القلب وأعماله – (ينظر: الإيمان لابن تيمية ص ١٢ ، ٢٠) ، ص ٢٦٨ . ومن النصوص النبوية الشريفة الدَّالة على أنَّ صحة الإسلام واستقامته منوطة بأعماله الظاهرة المصحوبة بدخول الإيمان الباطني في القلوب ، من تلك النصوص حديث جبريل المشهور – الذي ورد ذكره فيما سبق من هذا البحث أثناء الحديث عن التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها " – والذي فسَّر فيه النبي ﷺ الاسلام بأركانه الظاهرة ، من النطق بالشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصيام ، والحج ، وبيَّن فيه أصل الإيمان بما يجب الإيمان به باطناً ، كالإيمان بالله – عز وجل – وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه ، فاختلف جوابه ﷺ جبريل في الإسلام والإيمان فأجاب في

كدين[١] ، وشرط من شرائطه التي يجب العمل بموجبها ، وهذا يعني أنَّ الإسلام لا يكون في محلِّ الرِّضا إلَّا بانضمام الإيمان إليه ، والعكس[٢] ؛ لأنَّ كُلًّا منهما تتوقف صحَّته على الآخر ، ولمَّا كانت السورة الكريمة (سورة المؤمنون) – على نحو ما مرَّ بيانه – قد نزلت في المرحلة المكية ، وقت تأسيس الدَّعوة إلى

الإيمان بالتصديق القلبي والاعتقادي ، وفي الإسلام بالشرائع الظاهرة ، ثم اعتبر الرسول ﷺ أن كُلًّا منهما يدخل تحت نطاق الدين ، كما جاء في نهاية الحديث المذكور (هذا جبريل أتاكم يُعلمكم أمور دينكم) ؛ ومن هذا المُنطلق يُفهم أنَّ كُلًّا من الإسلام والإيمان قسيم للآخر ، وأنَّ الثاني جزء لا يتجزأ من الأول .

وفي حديث آخر عن أنس – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله ﷺ يقول : " الإسلام علانية والإيمان في القلب " قال : " ثُمَّ يُشير بيده إلى صدره ثلاث مرات " قال : " ثم يقول : التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا " – مسند الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق / شعيب الأرنؤوط وآخرون جـ ١٩ ، ص ٣٧٤ – الحديث رقم ١٢٣٨١ – نشر مؤسَّسة الرسالة . ط / ثانية ١٤٢٠ه ، ١٩٩٩م

وعن عبد الله – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبَّة من خرْدل من إيمان ، ولا يدخل الجنَّة أحد في قلبه مثقال حَبَّة خردل من كبرياء " – صحيح مسلم بشرح النووي على هامش إرشاد الساري) جـ ١ ، ص ٤٢٠ – كتاب : الإيمان – باب : تحريم الكبرياء وبيانه .

وكذلك ورد عن النبي ﷺ أنَّه قد أثبت لبعض الناس إسلامهم بلسانهم ، ونفي عنهم دخول الإيمان في قلوبهم حيث قال ﷺ : (يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ..." (سبق ذكر هذا الحديث بتمامه ، وتخريجه ، وذلك أثناء عرض ما يفيد تأكيد السُّنه على التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها) .

ومن هذا القبيل ما ورد عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله ﷺ أعطي رهطاً ، فترك رجلاً هو أعجبهم إلى ، فقلت : يا رسول الله مالك عن فلان ؟ فو الله إنِّي لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله ﷺ : (أو مسلما) ؟ فسكت قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه ، فعُدتُ لمقالتي ، فقُلتُ : مالك عن فلان ؟ فو الله إنِّي لأراه مؤمناً : فقال : " أو مسلماً ؟ " ثم غلبني ما أعلمُ منه فعُدتُ لمقالتي ، وعاد رسول الله ﷺ ثم قال : (يا سعد إني لأعْطي الرَّجُل وغيره أحبُّ إلى منه ؛ خشية أن يكبه الله في النار) . صحيح البخاري جـ ١ كتاب : الإيمان – باب : إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ص ٢٩ ، ٣٠ (الحديث رقم ٢٧) .

(١) أي كدين ارتضاه الله – عز وجل – لعباده ، ولم يرتض لهم ديناً غيره ، حيث قال تعالى : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} جزء من الآية ١٩ من سورة آل عمران ، وقال تعالى : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} جزء من الآية رقم ٨٥ من سورة آل عمران ، وقال جل شأنه : { وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} جزء من الآية رقم ٣ من سورة المائدة ، وقال عز وجل : {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} جزء من الآية رقم ١٣٢ من سورة البقرة .

(٢) ينظر : فتح الباري جـ ١ ص ١٤٠ ، ١٥٠ (تعليقاً على حديث جبريل المشهور وهو مذكور فيه برقم ٥٠) ، وصحيح مسلم بشرح النووي (على هامش إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) جـ ١ ، ص ١٨٤ ، ١٩٢ (حيث تحدَّث كُلٌّ من (ابن حجر) و" النووي " عن آراء العلماء حول ماهيَّة كل من الإسلام والإيمان ، مشيرين إلى ما بينهما من عموم وخصوص ، وحكيا في ذلك أقوالاً جمَّة لأهل الحديث وغيرهم ، ويُنظر أيضاً : جامع العلوم والحكم ص ٣٩ ، ٥٢ .

التوحيد ، وكان الهدف منها ترسيخ الإيمان في النفوس ، وتثبيت العقيدة في القلوب ، وذلك لربط – تلك الأخيرة – بالله سبحانه وتعالى– في جميع أحوالهما – أقول : ولمَّا كانت السورة الكريمة كذلك – أوثر التعبير بلفظ (المؤمنون) على لفظ (المسلمون) ؛ للدَّلالة على أنَّ الإسلام دين عقيدة وعمل ، فهو قبل أن يكون انقياداً ظاهرياً ، لابد أن يكون عملاً قلبيَّاً مبنيَّاً على التصديق الدَّاخلي الراسخ ، ذلك التصديق الذي هو أمارة الإسلام الصحيح ، والذي لا يطرأ على قلب صاحبه أدني شك ، ولا يعتريه أيُّ ريْب [١] ، بل لابد أن يكون قلباً ساكنا مطمئنَّاً لما ينبغي الإيمان به مِمَّا جاء به الشرع الحنيف ، وأن يظهر أثر ذلك الإيمان على سلوكيات الجوارح العملية من أقوال وأفعال ، وبذا يجمع المسلم الحقُّ بين كُلَّ من (المشاعر الإيمانية) ، والسلوك الإيمانى [٢] " [٣] ؛ إذ إنَّ العبرة ليست بالمظاهر ، وإنَّما بما وقر في القلب ، وصدّقه العمل ؛ باعتبار أنَّ الثاني لازم للأوَّل ، والعكس، كيف لا ؟ وقد ورد في الحديث الشريف (عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : " إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" [٤] ، وفي حديث آخر : عن (عمر بن الخطاب –

---

(١) ذلك بناءً على أنَّ الإيمان بمعناه اللغوي يعني : (إظهار الخضوع ، والقبول للشريعة ، ولِما أتي به النبي ﷺ ، واعتقاده ، وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصّفة ، فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ، ولا شاك ، وهو الذي يرى أنَّ أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله في ذلك ريب) – ذلك على حدَّ ما ذهب الزَّجاج (لسان العرب جـ ١ ، ص ٢٢٤ أمن) .

(٢) وذلك كالسلوكيات التي تضمنّتها الآيات الكريمة التي هي محل الدَّراسة من (خشوع في الصلاة ، وإعراض عن اللغو ... الخ) فلا مانع من إطلاق اسم الإيمان على تلك السلوكيات ، وغيرها من الأعمال – كالصلاة مثلاً – على نحو ما ذهب إليه أكثير أهل العلم ، من أنَّ قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) – جزء من الآية رقم ١٤٣ من سورة البقرة – معناه : (وما كان الله ليُضيع صلاتكم) حيث أطلق الإيمان ، وأراد به الصلاة مجازاً على طريق إطلاق السبب (الإيمان) على المسبب (الصلاة) ؛ باعتبار أنَّ الإيمان سبب لكون الصلاة مُعتبرة شرعاً ، إذ لا صحة للعبادة بدون إيمان ، – ينظر : الكشاف جـ ١ ، ص ١٩٩ ، والبحر المحيط جـ ١ ص ٣٧٠ ، وحاشية شيخ زادة جـ ١ ص ٤٥١ .

(٣) ينظر : دراسات قرآنية ص ٩١ ، ٩٢ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ .

(٤) صحيح مسلم جـ ٩ ، ص ٤٥٨ (كتاب : البر والصّلة والأدب – باب : تحريم ظلم الإنسان ، وخذله ، واحتقاره ، ودمه ، وعرْضه ، وماله .

رضي الله عنه – أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إنما الأعمال بالنيات ... الحديث" [١] ، ومن المعلوم أنَّ النِّيَّة محلُّها القلب الذي هو محل الإيمان الحقيقي ، ولو قيل : (قد أفلح المسلمون) لتُوهِّم أنَّ الإسلام عمل بلا إيمان ، أو أنَّه يكفي فيه العمل ، وفقط [٢] ، وهذا ليس مُراداً ، ولكنَّ المراد هو : أنْ يكون الإيمان العقدي قسيماً للإسلام وشرطاً في تحقيقه ، وهذا يعني أنَّ الأول جزء لا يتجزَّأ من الثاني ، ومن أجل هذا قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٣] ، مِمَّا يشي بأنَّ الإسلام كدين لابُدَّ فيه من الرَّبط بين (أمور اعتقادية داخل القلب ، وأُخري سلوكية عملية في واقع الحياة ؛ لأنَّ المسألة في ذلك الدَّين ليست أداءً آليَّاً لشعائر التَّعبُّد" [٤]، على نحو ما تفعل الكثرة الكاثرة من الذين يدَّعون الإيمان في أمصارنا

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ ص ٧ ، ٨ (كتاب : بدء الوحي – باب : بدء الوحي) – جزء من الحديث رقم ١ .

(٢) وخصوصاً إذا كانت السورة الكريمة – المذكور بها الآية الكريمة التي هي محل الحديث – قد نزلت في المرحلة المكَّية التي هي باكورة الدَّعوة إلى الإيمان بالله – عز وجل – وحده ، والتي كان التركيز الشديد فيها على تثبيت العقيدة الصحيحة في النفوس ، وتوثيق الإيمان في القلوب، وذلك في بادئ الأمر ، قبل أن تأخذ الأمة في التمكين ، وأن يتم لها التمكين في الأرض ، ومن أجل هذا أيضاً لم يُقل : (قد أفلح المتقون) ، أو (قد أفلح المحسنون) ، ذلك على اعتبار أنَّ المُخبر عنهم بالفلاح حينئذ لم يكونوا قد بلغوا درجة التقوي ، أو درجة الإحسان ، وكُلٌ منهما تعلو درجة الإيمان .

(٣) الآية١ من سورة (المؤمنون) . وتنبثق منه ، حيث إنَّ لكل مقامة ، فالقلب السليم العامر بالإيمان يرتقي أوَّلاً إلى درجة التقوي ، ومنها إلى مقام الإحسان الذي هو تمام الإيمان وكماله ، وهذا يعني أنَّ الإيمان هو الطريق الموصِّل إلى هاتين الدَّرجتين ، يشهد لذلك قوله ﷺ : " لا يبلُغ العبد أن يكون من المتقين حتي يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس " – سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي – تحقيق / الشيخ خليل مأمون شيحا ، جـ ١، ص ٤٧٥ – كتاب : الزهد – : باب : الورع والتقوي – الحديث رقم ٤٢١٥ ، وعارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى جـ٩ صـ ٢٧٨ – الحديث رقم ٢٤٥٦، وكذلك حديث جبريل المشهور الذي عرَّف فيه الرسول ﷺ كُلَّاً من الإسلام ، والإيمان ، والإحسان فيه دلالة على ذلك ، إذ إنَّ في هذين دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً على أنَّ كُلاً من المتَّقين ، والمُحسنين لهم أوصاف وآداب يُشتهرون، ويُعرفون بها ، وأنَّ مرتبتي (التقوي) ، والإحسان لا يبلغهما إلَّا الخُلَّص والأصفياء من المؤمنين، مع ملاحظة أنَّ مرتبة الإحسان أعلي وأسمي مقاماً من مرتبة التقوي . وينظر : دراسات قرآنية – ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، وشذرات الذهب في البلاغة القرآنية جـ ١ ، ص ٣٨.

(٤) ينظر : دراسات قرآنية – ص ٣١٤ .

وزماننا الذي نعيشه ويعُايشنا ، دون أن يرتقوا إلى يفاع الإيمان، هـؤلاء الـذين يفصلون بين إيمانهم وبين واقعهم المُعاش، والأصل أنَّه لا فصل بين هذا، وذاك .

أضف إلى كل ما سبق : أنَّه بمزيد من التَّأمُّـل فـي لفـظ (المؤمنـون) لوجدناه – على نحو ما ذهب إليه علماء اللغة والنحو اسم فاعل مـن الرُّبـاعي (آمن) ، وهو في أصل دلالته اللغوية يُشير إلى الأمن، والأمان، وعدم الخوف، وطمأنينة النَّفس[١] ، وهذا يعني أنَّ النَّص على (المؤمنين) دون (المسلمين) فيـه دلالة على أن البواعث الإيمانية لكل من آمن بالله ربَّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّد ﷺ نبيَّاً ورسولاً ، وعمل بموجبات ذلك ، تجعله آمناً مطمئناً في دنياه من كل مـا يمكن أن يُصيبه من بلايا ، وأنَّه بهذه البواعث – أيضاً – يؤمِّن نفسه من عـذاب الله تعالى .

ويزول خوفه من ذلك العذاب ، يؤيِّد هذا ، ويؤازره قوله جل شأنه : {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [٢] ، وقوله تعـالى : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [٣]،

---

(١) قال الرَّاغب : (أصل الأمن طمأنينة النفس ، وزوال الخوف ، والأمن والامانة والأمـان فـي الأصل مصادر ، ويجُعل الامان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمـن ، وتـارة اسماً لما يُؤمَنُ عليه الإنسان ... وقوله {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}–[آل عمران / ٩٧] أي آمناً من النار ، وقيل : من بلايا الدُّنيا التي تُصيب من قال فيهم {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِـي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا } [التوبة / ٥٥]) .المفردات جـ ١ ، ص ٣٢ أمن – وينظر : لسان العرب جـ ١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٦ .

(٢) الآية رقم ١١٢ سورة طه .

(٣) الآية ٥٥ من سورة النور .

وقال سبحانه : { فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} [١] ، والآيات الدَّالة على ذلك جدٌّ كثيرة [٢] .

ولعلَّنا من خلال كُلَّ ما ذُكر نكون قد أدركنا أنَّ لفظة (المؤمنون) في الآية التي معنا أدَّت نصيبها في المعنى أقوي أداء ، وأنَّها جاءت مقترنة بتحديد دلالتها المخصوصة من بين دلالات أخرى كثيرة يمكن أن يرتبط بعضها ببعض في الاذهان .

وأخيراً وليس آخراً : يلاحظ أنَّ لفظة (المؤمنون) في الآية الكريمة على الرَّغم من أنها جاءت مُفسَّرة ومبيَّنة بما ذُكِر بعدها من آيات {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ...} إلى قوله تعالى : { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٣] ، إلا أنَّها جاءت مُطلقة [٤] ، موجزة [٥] ، مجملة [٦] ، تفصيلها ليس وارداً في الآية الكريمة نفسها ، بل ورد ذكره في نصوص قرآنية أخرى ، ومن

---

(١) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة الجن .

(٢) من بينها على سبيل المثال : الآيات : ٣٨ ، ١١٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ من سورة البقرة ، ١٧٠ من سورة آل عمران ، ٦٩ من سورة المائدة ، ٤٨ من سورة الأنعام ، ٣٥ ، ٤٩ من سورة الأعراف .

(٣) الآيات (١١:٢) من سورة المؤمنون .

(٤) يقول ابن تيمية : " إنَّ القرآن ليس فيه ذكر إيمان مطلق غير مفسَّر ، بل لفظ الإيمان فيه إما مقيَّد ، وإمَّا مطلق مفسَّر ، فالمقيَّد كقوله تعالى : {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} ، جزء من الاية رقم ٣ من سورة البقرة) ... والمُطلق المفسَّر كقوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) ، جزء من الآية رقم ٤ من سورة الأنفال] – وقوله : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} ، الآية ١٥ من سورة الحجرات) ونحو ذلك ، وقوله : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } – الآية ٦٥ من سورة النساء ، وأمثال هذه الآيات ، وكُلُّ إيمان مطلق في القرآن فقد يبيَّن فيه أنَّه لا يكون الرَّجُلُ مؤمناً إلَّا بالعمل مع التصديق، فقد بيَّن في القرآن أنَّه لابدَّ فيه من عمل مع التصديق.."الإيمان ص١٠٣ .

(٥) جاءت الآية هُنا موجزة باعتبار أنَّ بها إيجازاً بحذف ما يجب على المؤمن أن يؤمن به .

(٦) حيث إنَّه لم يُقل مثلاً : (قد أفلح المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب) ، أو (الذين يؤمنون باليوم الآخر) ..... وهكذا ، كما هو الشأن في أوائل سورة البقرة ، وفي خواتيمها ، ذلك على اعتبار أنَّ سورة (المؤمنون) مكيَّة ، نزلت وقت تأسيس العقيدة ، وكان الهدف هو ذكر صفة الإيمان

ثمَّ تكون كلمة (المؤمنون) جامعة لكثير من المعاني [١] ؛ لأن الإيمان اسم جامع لكل ما يجب الإيمان به مِمَّا أخبرنا به القرآن الكريم ، وكذلك مِمَّا أخبرنا به رسول الله ﷺ [٢] من أنَّ للكوْن إلهاً واحداً له كُلُّ صفات الجلال والكمال ، وأنَّه يجب الإيمان بالله – عز وجل – وبوحدانيتَّه ، وبربوبيَّته ، وبما شرع الله سبحانه – لعبادة من أوامر ، ونواه ، وحدود ، وفرائض على لسان رسوله ﷺ ، وبملائكته، وبكتبه ، وبرسله ، وبالقضاء والقدر ، حلوة ومُرِّه ، خيره وشرِّه ، وباليوم الآخر، بما فيه من بعث ، ونشور وحساب ، وجزاء ، وعقاب ، وصراط ، وجنة ، ونار، إلى آخر ما ورد ذكره في القرآن الكريم ، وفي السُّنة النبوية المطهَّرة بخصوص ذلك اليوم ، ودّلّ على ما يستلزمه بطريق الفحوى .

وبذا نُدرك أنَّ الوصف (المؤمنون) ذُكر على سبيل الاختصار ، وجُعِل رمزاً لكل ما يجب الإيمان به ؛ مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، على نحو ما أمر به الشارع الحكيم وهذا الاختصار ، وذلك الاستلزام من السمات البلاغية الأصيلة في القرآن الكريم .

هذا ، وبعد أن جاءت الآية السابقة {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٣] ، " وطاءً ومهاداً للحديث عن أوصاف المؤمنين " [٤] ، المُقرّر لهم الفلاح ، واصفةً إيَّاهم وصفاً مُجملاً ، يُحدَّد مصيرهم بالثناء البالغ عليهم وكان هذا الإجمال يحتاج إلى تفصيل ، شرعت الآيات بعد ذلك في بيان ماهيَّة هؤلاء المؤمنين ، وفي الكشف

بدون تفصيل ، لا كما هو الشأن في السور المدنية (كسورة البقرة) حيث كان الإيمان في مثل تلك السور يذكر مُفصَّلاً غير مُجمل ؛ باعتبار أنَّ الأمور في العهد المدني كانت تحتاج إلى تفصيل بالعقيدة في حياة الأمة الجديدة وتترتب عليها. ينظر: دراسات قرآنية ص٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(١) كالنصوص القرآنية التي سبق ذكرها – في هذا البحث – تحت عنوان : (التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاته) .

(٢) يُنظر : الأحاديث الواردة في هذا البحث فيما سبق ذكره عن تأكيد السُّنَّة عن التلازم بين الصفات الخاصة بالمؤمنين .

(٣) الآية ١ من سورة المؤمنين .

(٤) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) للدكتور محمد أبي موسي ص ٩٨ د / دار الفكر العربي ١٩٧٥م .

عن حقيقتهم ، مشيرةً بوجه من التفصيل والتوضيح إلى الصِّفات والعلامات التي هي سبيل الفلاح وطريقه ، والتي تختصُّ بهؤلاء المؤمنين ، وتُميِّزهم عن غيرهم الذين لم يتحلَّوا بما ذُكر من صفات ؛ ذلك للدَّلالة على انَّ الفلاح لم يكن لمُجرَّد الإيمان بالله – عز وجل – فحسب ، وإنَّما لابُدَّ لهذا الإيمان أن يكون مصحوباً بالسلوك الأخلاقي في الصحيح [١] ،الذي هو ثمرة من ثمرات هذا الإيمان ، فالمؤمن لا يبلُغ الغاية السامقة من الإيمان [٢] ، تلك الغاية التي توَّصل صاحبها إلى درجة الفلاح ، إلاَّ إذا عمل بمقتضي هذا الإيمان على وجه صحيح ، وظهر أثر ذلك العمل في مشاعره ،وسلوكيَّانه العملية والأخلاقية التي جاءت مفصَّلة فيما بعد .

أقول : شرعت الآيات في بيان صفات هؤلاء المؤمنين المُفلحين ؛ لإزالة الغموض عنهم فبدأت بأوَّل مظهر من مظاهرهم ألا وهو الخشوع في الصلاة ، حيث قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [٣] .

تلك هي الصفة الأولى (الخشوع في الصلاة) – في سورتنا – للمؤمنين بعد إيمانهم بالله – عز وجل – إذا إنَّ الاتصاف بالخشوع والخضوع لله – سبحانه – في الصلاة ، وفي غيرها لهو من الصِّفات الكريمة ، والخلال الحميدة التي كرَّم الله – عز وجل – بها المؤمنين ، فالمؤمن لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قلبه معلَّقاً بخالقه – جل شأنه – مباشرة إلَّا إذا كان متحلياً بالصِّفة المذكورة ،

---

(١) وهذا يعني أنَّ الجمل المتتابعة لاسم الفاعل (المؤمنون) في قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} بأنهم الخاشعون في صلاتهم ، والمعرضون عن اللغو ، والفاعلون للزكاة ، والحافظون لفروجهم إلَّا على الأزواج أو ملك اليمين ، والراعون للأمانة والعهد ، والمحافظون على الصلوات ، جاءت – تلك الجمل – للدلالة على المُراد بهؤلاء المؤمنين المفلحين من خلال ما حدَّده السياق تفصيلاً ، وأنهم هم الموصوفون بتلك الصِّفات المذكورة ، وأنَّ من لا يتصف بها لا يدخل في زمرتهم ، وإن كان ممن يوسمون بالإيمان .

(٢) يُنظر : دراسات قرآنية ص ١٣٩ .

(٣) الآية ٢ من سورة المؤمنون .

والتي تمكّنه من تهذيب نفسه ، وتُنقّيها من أدران الرذائل ، وتُجمّلها بأنواع الفضائل ، ومن ثم يقترّب المؤمن من ربّه ، ويخشع لجلاله وعظمته ، حيث يقول سبحانه : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[١] .

على أنّه لمّا كان الإيمان – كما قلت – هو أداة الصّفات المذكورة بعده ، ومصدرها الأصيل ؛ باعتباره القاعدة الشرعية فيه ، والغاية التي تترتّبُ عليه ، بُدِأ به ثم أُعقِب بذكر الصّفات المترجمة للإيمان ، والتي يجب على كُلَّ مؤمن أن يعمل بكلَّ هِمَّته من أجل التّحلي بها ، إذ إنَّ ذلك التّحلي ، يكون برهاناً وأمارة على حسن إيمان الموصوفين ، وقوّته في قلوبهم [٢] ، ولذلك قال سبحانه : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ... الخ} [٣] ، ولم يقل مثلاً : (قد أفلح الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون) بدون ذكر صفة (الإيمان) ؛ إذ إنَّ ما جاء عليه النَّظم الكريم ، فيه دلالة على أنَّ الإيمان هو الأصل الذي لا يصحُّ عند الله – عز وجل – شئ من مُقتضيات ذلك الإيمان إلَّا به ، وأنَّ ما ذُكِر بعده من صفات فرع من فروعه المترتِّبه عليه ، وأنَّ هذا الفرع لا يمكن تحقيقه بدون أن يتحقَّق الإيمان في نفوس أتباعه الذين يتَّخذون الإيمان وسيلةً إلى الاتصاف بالصّفات التي تؤهّلُهم ؛ للارتقاء إلى درجة الوارثين لجنَّة الفردوس ، هؤلاء الذين أخبر الله – عز وجل – عنهم بقوله تعالى: { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [٤] ، ومن أجل هذا

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .

(٢) وهذا يعني أنَّ المؤمن – من خلال ذلك التحلي أو عدمه– يستطيع أن يعرف مقدار إيمانه ، ويعرف كذلك منزلته عند ربّه ، ويستشعر مدي حرصه على الفلاح من عدمه في كُلَّ من الدّنيا والآخرة .

(٣) الآيات (١ : ١١) من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات (١٠ : ١١) من سورة المؤمنون .

كُلَّه ، قُدِّمت صفة الإيمان على الصفات التالية له وبذا تتبدَّى لنا بلاغة البدء الإخبار عن المؤمنين بفلاحهم ؛ إذ أنَّ الإيمان بالله – عز وجل – هو عماد الأمور كُلِّها ، فإذا كان الإنسان مؤمناً ، فإن هذا الإيمان سيدفعه دفعاً إلى الخشوع في صلاته ، وإلى الإعراض عن اللغو ... الخ ، كما أن ّ في تقديم صفة الإيمان إشارة إلى شرفه وفضله على سائر الصفات الأخرى لأنها بسبب منه ولو جئ بالصِّيغة البديلة المُشار إليها ، ما وقفنا على هذا المعنى الذى ذكرْت .

سبب نزول هذه الآية : كان مِمَّا ذكره المفسَّرون في ذلك هو : أنَّ النبي ﷺ كان يُصلِّي رافعاً بصره إلى السماء ، فلمَّا نزلت هذه الآية رمي بصره نحو مسجده [١] .

وفي رواية أخرى كان النبي ﷺ إذا قام في الصلاة نظر هكذا وهكذا يميناً وشمالاً فنزلت (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) [٢] فحني رأسه .

وذكر بعضهم أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرفعون أبصارهم إلى السَّماء في الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً فأنزل الله { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [٣] ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً [٤] .

وكما سبق أنْ أشرت – منذ قليل – أنَّ الآية المذكورة ، وما تلاها من الآيات التي تختصُّ بصفات المؤمنين ، جاءت على سبيل التلويح بتفصيل

---

(١) (نحو مسجده) : أي مكان سجوده .
(٢) الآية ٢ من سورة المؤمنون .
(٣) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .
(٤) يُنظر كُل هذه الروايات ، وغيرها في : (الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧١) ، والبحر المحيط جـ ٧ ، ص٥٤٦ ، والدُّرُّ المنثور في التفسير المأثور للسيوطي جـ٦ ، ص٨٣ ، ٨٤ ط / دار الفكر ١٤١٤ ه ، ١٩٩٣م ، وزاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي جـ ٥ ، ص٣٣٤ – نشر / دار الكتب العلمية – بيروت –ط/ أولي ١٤١٤ه ، ١٩٩٤م .

وتوضيح المقصود بالمحكوم عليهم بالفلاح فيما أُجمل وأُبهم ذكره أوَّلاً [١] ، في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} ، وبذا يكون المُخبر عنهم بالفلاح قد ورد ذكرهم مرَّتين إحداهما على سبيل الإجمال والإبهام ، والأخرى على سبيل التوضيح ، والتفصيل ، ذلك على نحو ما يعُرف لدي البلاغيين باسم (التفصيل بعد الإجمال) أو (الإيضاح بعد الإبهام) ، وهو نوع من الإطناب ، ومثل هذا النوع له وقعه في النفوس ، وعِظَمُه في الغاية من معرفة المُراد ، حيث إنَّ الشئ إذا أُجمِل ، أو أُبهم تشوَّقت النَّفس إلى معرفته ، وتطلَّعت إلى الوقوف على إيضاحه وتفصيله ، وعندما يأتي الإيضاح والتفصيل ، تأكّد المعنى وتقرَّر في ذهن السامع ، وتمكَّن في نفسه فضل تمكُّن ، وكان شعورها به أتم ، وذلك من خلال ذكره مرَّتين في صورتين مُختلفتين إحداهما : على سبيل الإجمال والإبهام ، وصورة أخرى على طريق التفصيل والإيضاح [٢] .

هذا ، ومن خلال ما سبق ذكره من أنَّ الآية السابقة { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[٣] – وما تلاها من آيات تتعلَّق بأوصاف المؤمنين – ذات صلة وثيقة بالآية التي قبلها { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [٤] ،باعتبار أنَّ الآية الثانية بيان وتوضيح وتفسير لهؤلاء المؤمنين بالفلاح [٥] فهى معرَّفة لهم ، وأيضاً على اعتبار أنَّ هذا البيان جاء على سبيل التقييد لهم ، حتى يتميَّزوا عن غيرهم مِمَّن

---

(١) وذلك التوضيح على طريقة ما نعرفه في قوله (أوس بن حجر) في قصيدته) المشهورة التي قالها في (فضالة بن كلدة) يمدحها فيها في حياته ، ويرثيه بعد مماته ، وكان مما قاله في ذلك :
(الألمعيُّ الذي يَظُنُّ بك الظَّنَّ ∴ كَأَنْ قَدْ ترأي وَقَدْ سَمِعا)
وواضح أنَّ قوله : (الذي يظُنُّ ...الخ) أراد به التوضيح والكشف عن معنى (الألمعي) ، وذلك حُكي عن الأصمعي : أنَّه سُئل عن الألمعي فأنشد البيت ولم يزد (ينظر : الكشاف جـ ٣ ، ص ٤٧٤ تعليقاً على ما ورد ذكره من آيات في مطلع سورة لقمان) .

(٢) ينظر: الإيضاح ص١١١ ، ١١٢ ، والبرهان في علوم القرآن جـ ٢ ، ص ٤٧٧ وما بعدها .

(٣) الآية ٢ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ١ من سورة المؤمنون .

(٥) على أنَّه مما ينبغي الالتفات إليه : أنَّ الفلاح هُنا لا يتعلَّق بالأشخاص بقدر ما هو متعلّق بهم بسبب خشوعهم وخصالهم التالية لهذا الخشوع الذي هو من لوازم الإيمان عندهم.

لم يتحلَّوا بما ذُكِر بعد من الصفات – أقول : ومن خلال ما سبق ذكره – يُمكن أن نفهم السِّر في عدم عطف الثانية على الأولى ، وأنَّ ذلك راجع إلى ارتباط اللاحقة بالسابقة ارتباط الصِّلة بالموصول [١] ، ذلك لما بين الآيتين من (كمال اتصال) من ناحية أنَّ قوله تعالى : { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} – بناء على ما تقدَّم– جاء وصفاً كاشفاً عن المراد بالمؤمنين في قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}، ذلك بالإضافة إلى تخصيصهم ، وبالتالي لم تكن هناك ضرورة تستدعي إدخال العاطف بين الآيتين ؛ إذ إنَّ الوصف لا يُعطف على موصوفه ؛ لأنَّ الأول يتعلق بالثاني لذاته ، والتَّعلُّق الذاتي يغني عن لفظ يدلُّ على التَّعلُّق ، ممَّا يعني أنَّ الآية الثانية اتصلت بالأولى اتصالاً ذاتياً ، معتمداً على اتصال المعنى الذي لا يحتاج إلى أداة وصل [٢] .

هذا ، ويصح أن تكون الآية الثانية جاءت مفصولة عمَّا قبلها على سبيل الاستئناف البياني المُسمَّي بـ (شبه كمال الاتصال) الذي تقع فيه الجملة الثانية موقع الجواب على سؤال مقدَّر اقتضته الجملة الأولى ، فتنزَّل منزلته ، فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال [٣] ، ومن ثم يكون منشأ الفصل بين آيتنا وما قبلها هو أنَّ السَّامع لقوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} كان وكأنَّه قد تحرَّكت مشاعره ، وتطرَّق إلى ذهنه إرادة معرفة ما إذا كان هذا الفلاح ينال جميع المؤمنين أم لا ، فاستفسر قائلاً : مَن هم هؤلاء المؤمنون ؟ فجاء قوله تعالى : {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ...} الخ – مستأنفاً مفصولاً عمَّا قبله – جواباً عن ذلك السؤال المقدَّر ، وهذا الجواب إنَّما كان لإزالة خفاء كان قد طرق على ذهن

---

(١) ذلك على اعتبار أنَّ الخشوع في الصلاة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان ، وأنَّ الأول ركن ركين من الثاني ، ومن معتقداته .

(٢) ينظر : الفصول المفيدة في (الواو المزيدة) – للإمام الحافظ / صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي – تحقيق / الدكتور حسن موسي الشاعر ص ١٣٠ – نشر / دار البشير للنشر والتوزيع – عمَّان – الأردن – بدون تاريخ ، وينظر : من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبي موسي ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) ينظر : الإيضاح ص ٩١ .

المتلقِّى عند سماعه للآية الأولى وقد قالوا إنَّ مثِل هذا النوع من (الفصل وصل خفيٌّ : أي أنّه وصل بغير أداة الوصل التي هي (الواو) ، فالوصل فيه يعتمد على اتصال المعنى ، وهو مظهر من مظاهر نشأة المعاني بعضها عن بعض ، وتمهيد بعضها لبعض ، حتي كأنَّ الجملة الثانية تتولَّد عن الجملة الأولى ، وكأن الأولى مهاد للثانية ، وإرهاص بها ، وهذا يفهم من قول البلاغيين في هذا الاستئناف : أنَّه جواب عن سؤال مقدَّر يتضمَّنه الكلام السابق ، أي أنَّ الكلام السابق يثير في النفس خواطر تقتضي هذا الكلام ، وتستدعيه ، فيأتي كفاءً لحاجة النفس ، ووفاءً لها " [١] .

أضف إلى ذلك أنَّ الاستئناف المذكور فيه إشارة إلى أنَّ في الأسلوب إيجازاً بالحذف ، القصد منه " تكثير المعنى بتقليل اللفظ ، وهو تقدير السؤال وترك العاطف " [٢] .

على أن مجئ الصفات التالية لقوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [٣] على سبيل الاستئناف الدَّال على أنَّ الجملة الثانية تتعلَّق بالجملة الأولى تعلُّقا ذاتياً أغني عن إدخال العاطف بينهما – أقول : إنَّ مجئ الصِّفات المذكورة على هذا السبيل – فيه فائدة أخرى تتمثَّل في الكشف عن سبب فلاح هؤلاء المؤمنين ، ودوافعه ، وهذا يعني أنَّ الإيمان وحده لا يكفي لفلاحهم ، وإنما لابد من اقتران الإيمان بالصفات الأخرى التالية له ، والتي نصَّت عليها الآيات المذكورة بعد ، وأنَّ هذه الأوصاف هي الموصِّلة إلى ذلك الفلاح ، وأنها سمات غالبة على هؤلاء المفلحين ، وأنَّ من لم يتَّصف بها لم ولن يدخل في زمرتهم ، حتي وإن كان يوسم بالإيمان .

---

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ١٠ .
(٢) الإيضاح ص ٩١ .
(٣) الآية ١ من سورة المؤمنون .

هذا ، ولو جاء قوله تعالى : {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [١] معطوفاً على ما قبله بأداة الوصل التي هي (الواو) وقيل : { والَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} ، لتُوهَّم أنَّ المُخبر عنهم بالخشوع في الصلاة صنف آخر غير المؤمنين المُخبر عنهم بالفلاح في قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[٢] ، ولهذا وجب الفصل بين الآيتين ؛ ذلك للدلالة على أنَّ المُفلحين من المؤمنين هم الذين من صفاتهم الخشوع في الصلاة ... الخ) ، وبذا يتبيَّن لنا الدور المنوط بالفصل بين الآيتين الكريمتين ، ذلك الفصل القائم على ما " لا يقتضي النَّسق غيره ، ولا يرتضي سواه " [٣] .

حيث إنَّه أسهم بدور بارز في إزاله الخفاء الوارد في الآية الأولى ، مع بيان المراد منها عن طريق الارتباط الذاتي بينها وبين الآية اللاحقة لها ، ذلك الارتباط الذي هو أشدُّ اتصالاً من الوصل بالأداة المُخصَّصة لذلك ، لأنَّ الأوَّل أبان عن أنَّ هُناك ترابطاً وتسلسلاً بين معنيي الآيتين [٤] ، وأنَّهما متلاحمان بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وقد تقدَّم ما يفيد ذلك .

هذا، ووضْع صفة (الخشوع في الصلاة) في مقدَّمة صفات المؤمنين المفلحين ، فيه دلالة على أنَّ الاتصاف بالصفة المذكورة لابد أن يكون تالياً لمرتبة الإيمان ؛ لأهميته ، من حيث إنَّ كلًّا منهما استلزم الآخر ؛ إذ إنَّ الخشوع المذكور هو روح الإيمان ولُبُّه ، وله أثره الفعَّال في حياة المؤمن ؛ حيث إنَّه يُعينه ، وهو في صلاته على أن يصل قلبه بالله – عز وجل – ومن ذلك إلى تهذيب نفسه ،

---

(١) الآية ٢ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ١ من سورة المؤمنون .
(٣) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ٢٢٥ .
(٤) وذلك من ناحية أنَّ الآية الثانية جاءت جواباً نشأ عن الآية الأولى ، وكأن السؤال ذكر أوَّلاً ثم جاء الجواب ثانياً .

وتنشيطها ، ومجاهدة شرورها ، ومجاهدة الشيطان والتَّغلُّب عليه ، وبذا يتحقق المقصود من الصلاة – التي هي الركن الثاني في الإسلام بعد الشهادتين – إذ إنَّ الأصل في مشروعيتها هو : (الخضوع لله) عز وجل – والتوجُّه إليه ، والتَّذلُّل بين يديه ، والانقياد تحت حُكمه ، وعمارة القلب بذكره ، حتي يكون العبد بقلبه وجوارحه حاضراً مع الله ، ومُراقباً له غير غافل عنه ، وأن يكون ساعياً في مرضاته ، وما يُقرِّب إليه حسب طاقته [١] " [٢] ، فإذا ما وصل المؤمن إلى هذه الدّرجة ، كان ذلك الوصول بمثابة التهيئة لقبوله الاتصاف بما ذُكر بعد من صفات، الإعراض عن اللغو ، وما دونه ، أو ما سواه من صفات ؛ إذ إنَّ الخشوع في الصلاة ينعكس أثره على سائر الجوارح حينما يجعل المؤمن أشدَّ خشية لله – عز وجل – تلك الخشية التي تجعله أشدَّ امتثالاً للاتصاف بأي صفة أخلاقية أخرى حثَّ عليها الشرع الحنيف ، وتُعينه على أن يقي نفسه من فعل كُلَّ ما نهي عنه ذلك الشرع ، كيف لا ؟ والصلاة " لها مقاصد تابعة كالنَّهي عن الفحشاء والمنكر[٣] " [٤] ، والارتفاع عن البغي والعدوان ، وبالجملة فإنَّها تحمل المؤمن على الاستقامة ، وتهديه إلى الصواب ، وثمنته عن المعاصي[٥] ، ولا تكون الصلاة كذلك إلَّا إذا كانت مصحوبة بالخشوع الذي تأنس النفوس به ، فيأنف صاحبُه اللغو ، ويُعرض عنه ، وتزكو نفسه ، فيحفظ فرجه عمَّا لا يحلُّ له ، ويحفظ العهود ، ولا يخون الأمانات ، وتتوافر لديه الرَّغبة في المحافظة على

---

(١) ولذلك قال تعالى : {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } الآية ١٤ من سورة (طه) ، وقال جلَّ شأنه : {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } – جزء من الآية ٤٥ من سورة (العنكبوت) .

(٢) الموافقات للإمام الشاطبي – المُجلَّد الأول جـ ٢ ، ص ٥٢٢ ، وينظر ص ٦٧٣ .

(٣) وذلك مصداقاً لقول الحق تبارك : { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } جزء من الآية رقم ٤٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الموافقات جـ ٢ ، ص ٦٧٣ .

(٥) يُنظر : الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثاً النووية للشيخ / إبراهيم الشبرخيتي ص ٣٠٩ ط / الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .

الصلوات ، وبعد ذلك ينتهي به المطاف إلى استحقاق وراثة جنة الفردوس ، والخلود فيها ، كما قال تعالى : { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [١] .

أمَّا إذا لم تكن الصلاة مقرونة بالخشوع ، فهذا يعني أنَّ صاحب تلك الصلاة كان قد امتلأ قلبه بغير الله ، فدخل فيها بغير ذلك القلب الذي بعثه صاحبه في كُلِّ واد ، وأحاطت به الشياطين من كُلِّ جانب تتحكَّم فيه كما يتحكَّم ساكن البيت فيه ، وتحول تلك الشياطين بين المُصلِّي وبين الخشوع ، وتُباعد بينه وبين الإقبال على الله – أثناء الصلاة – بكل الجوارح ، ولعلَّ ذلك المُصلِّي لا يحضر بين يدي ربه في شئ من صلاته ، وإن كثيراً من المُصَّلين على تلك الحالة ، إذ إنه بعد دخولهم في الصَّلاة يتغلَّب عليهم شيطانهم ، فيخرجون من الصلاة ، وكأنهم ما دخلوا فيها ، يقرأون ويركعون ويسجدون وهم لا يشعرون ، أجسامهم في الصفوف ، وأفكارهم مع الشيطان ، لا يدركون كم ركعة صلوا ؟ ولا ماذا قرأوا ؟ ولا كيف بدأوا ؟ ولا متي انتهوا ؟ إنَّهم الذين استجابوا لوسوسة الشيطان ، إنَّهم الذين لم يأخذوا حذرهم منه ، إنَّهم الذين نسوا قوله لربِّه ربْ العزَّة والجبروت : { لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [٢] ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ولاشك في أنَّ مثل هذا الصَّنف من الذين يدَّعون الإيمان ، ولا يخشعون في صلاتهم – لعمري – ما داموا قد تساهلوا في ذلك الأمر (الاتصاف بالخشوع

---

(١) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة المؤمنون .

(٢) الآيتان (١٦ ، ١٧) من سورة الأعراف ، وينظر : بدائع الفوائد لابن القيِّم الجوزية (المُجلد الأول جـ ٢ ، ص ١٩٦ ، وفتح المُنعم شرح صحيح مسلم للدكتور/موسي شاهين لاشين جـ ٤ ، ص ٦٣ ط / دار التراث العربي – بدون تاريخ .

في الصلاة) فإنهم في حياتهم يكونون أعواناً للشيطان ، وأطوع له ، إذ إنَّهم لم يتخذوا صلاتهم وسيلة لإصلاح نفوسهم ، وتنقيتها من أدران الرذائل ، وتحليتها بأنواع الفضائل ، ، ولا ترقي بأصحابها إلى أن يكونوا من أهل الإعراض عن اللغو ، ولا يُرجي منهم تزكية لنفوسهم ، ولا حفظاً لفروجهم ... الخ .

فشتّان ما بين هذا الفريق ، والفريق المذكور قبله الذي لا تثقل الصلاة عليه ؛ لأنه يتوقَّع لقاء ربِّه يوم الحساب والجزاء ، وأنَّه راجع إليه بعد البعث ليجازيه بما قدَّم من صالح العمل ، ومن ثم فهو يقف في صلاته خاشعاً مُتذلِّلاً بين يدي مولاه ، مستحضراً عظمته – سبحانه – في قلبه ؛ إجلالاً له ، وتهيُّباً منه ، وإذا ما خرج من صلاته ، خرج منها وقلبه معمور بالإيمان ، و " انصرف من بين يدي الله مصحوباً بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله تعالى إلى وقت الصلاة الأخرى ، وكان من تمام النعمة عليه أن بكون انصرافه من بين يدي ربِّه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقي معه"[١]، ويستحيى منه حقَّ الحياء ، فيحفظ الرأس وما وعي، والبطن وما حوي، ويذكر الموت والبلا، مما يحول بينه وبين المعاصي والشرور والآثام ، كاللغو وغيره ، ويكون من الذين قال الله – عز وجل – في شأنهم ، آمراً إياهم بقوله سبحانه : { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [٢] .

وفي المقابل نرى الفريق الذين أضلَّه الشيطان وحال بينه وبين الخشوع في الصلاة ، وما ذلك إلَّا لأنَّها تكون ثقيلة عليه ، وشاقَّة على نفسه التي ضعفت أمام شيطانه ، ومن ثم فهو يخرج من صلاته ، وهي لا تُغني عنه من الله شيئاً ؛ لأن صلاته تلك تكون شكلاً لا موضوعاً تظهر عليه آثار الإيمان التي تجعل

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٩٧ .
(٢) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) من سورة البقرة ، ويُنظر : تفسير النَّص الكريم في الكشاف جـ ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

صاحبه يتميَّز بكل القيم العليا المتمثِّلة في الإعراض عن اللغو ، وغير ذلك من مستتبعات الخشوع ، وثمراته التي هي علامات المُفلحين الذين يتغلبون على شياطينهم بخشوعهم في الصلاة .

ولعلنا من خلال ما سبق ذكره من الفرق بين الخاشعين في صلاتهم ، وبين غيرهم من الغافلين الذين لا ترتبط صلاتهم بالخشوع ، – أقول لعلَّنا من خلال ذلك – نكون قد وقفنا على السِّرِّ الذي من أجله جاءت صفة الخشوع في الصلاة) في مقدَّمة الصِّفات التالية لها ، وكان ذلك الخشوع أوَّل مظهر من مظاهر فلاح المؤمنين ، وكان تقديمه على ما بعده من الصفات من باب التقديم بالفضل ؛ لأنَّ (الخشوع) من أفضل ما يُقرِّبُ العبد من ربِّه أوَّلاً ؛ لشده قرْبه من الإيمان ؛ باعتباره مُقوِّماً خلُقياً أصيلاً لحياة المؤمنين . هذا ، ولمَّا كان مطلع سورة (المؤمنون) – على نحو ما مرَّ بينه [١]– موصولاً بما ورد ذكره في خواتيم سورة (الحج) من قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [٢] ، وكان الله – عز وجل – قد قال بعد ذلك – في نفس السورة – آمراً بإقامة الصلاة { فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [٣] ، أراد الله – سبحانه هنا (أي في سورة المؤمنون) أن يبيِّن هيئة الإقامة المذكورة ، وكيفيتَّها ، وأنَّ العبرة فيها ليست بالمظهر الشكلي وإنما لابد أن تكون مبنَّية على الخشوع ؛ إذ إنَّ إقامة الصلاة بلا خشوع تكون هي والعدم سواء ، ثم إنَّ كلًّا من الرُّكوع والسجود وإن كان جُزءاً من تلك الإقامة ، فإنَّه لابدَّ فيه من خشوع وخضوع لله ربِّ العالمين ، ومن ثم كان المُناسب هُنا هو ذكر الخشوع لا

(١) وذلك أثناء الحديث عن مناسبة السورة الكريمة لما قبلها .
(٢) الآية ٧٧ من سورة (الحج) .
(٣) جزء الآية رقم ٧٨ من سورة الحج .

الاقامة ، ولا الأداء فقال سبحانه { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }[١] ، ولم يقل مثلاً : (الذين هم لصلاتهم مؤدُّون) ؛ ذلك لبيان أنَّ " للصلاة صورة ظاهرة ، وحقيقة باطنة لا كمال للصلاة ولا تمام لها إلَّا بإقامتهما جميعاً ، فأمَّا صورتها الظاهرة فهي : القيام والقراءة ، والركوع ، والسجود ، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الظاهرة ، وأمَّا حقيقتها الباطنة فمثل : الخشوع ، وحضور القلب ، وكمال الإخلاص ، والتَّدَبُّر ، والتَّفهُّم لمعاني القراءة ، والتسبيح ، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الباطنة ، فظاهر الصَّلاة حظُّ البدن والجوارح ، وباطن الصلاة حظُّ القلب والسِّرِّ ، وذلك محلُّ نظر الحقِّ من العبد ، أعني قلبه وسرَّه " [٢] .

ويقول الإمام البقاعي : " وأمَّا أدب الصلاة فخشوع الجوارح ، والهدوء في الأركان ، وإتمام كُلِّ رُكن بأذكاره المخصوصة به ، وجمع الحواس إلى القلب كحاله في الشهادة ، حتَّي لا يُحَقَّقَ مدرك حاسة الغفلة " [٣] .

ولسائل أن يسأل : لماذا جاء الخشوع في قوله تعالى : {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[٤] ، مُقيَّداً بكونه في الصلاة ؟ ، ولِم لَمْ يُقل مثلاً : (الذين هم خاشعون) ؟ أليس " الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها " [٥] ؟ .

والجواب نعم ، في الواقع أنَّ الخشوع والخضوع لله – عز وجل – لابد أن يكون في كُلِّ وقت ، وفي كُلِّ زمان ، ومكان يعيش فيه المؤمن ، في حركاته ، وسكناته ، في السوق ، في الشارع ، في المتجر ، في المواصلات ... الخ ، ذلك

---

(١) الآية ٢ من سورة (المؤمنون) .
(٢) النصائح الدينية والوصايا الإيمانية ص ٢٧ ، وينظر : حاشية شيخ زادة جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .
(٣) نظم الدُّرر جـ ١ ، ص ٣٢٩ .
(٤) الآية ٢ من سورة (المؤمنون) .
(٥) التحرير والتنوير جـ ١٨ ص ٩ .

بالإضافة إلى جميع أنواع العبادات ... [١]، ومن بينها الصلاة ، إلَّا أنَّ الآية الكريمة {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [٢] ، جاءت في سياق التنويه بشأن الصلاة وأهمِّيَّتها ، حيث إنها وردت في مطلع سورة (المؤمنون) ، وكان ذلك المطلع امتداداً لما ورد ذكره في خواتيم سورة الحج من الأمر بالركوع والسجود [٣] ، وإقامة الصلاة – على نحو ما سلف ذكره منذ قليل – ولمَّا كان الأمر كذلك أراد الله – عز وجل – في المطلع المذكور أن يُبيِّن أنَّ المأمور به لابد من الإتيان به على وجهه الصحيح ، ولا يكون كذلك إلَّا إذا كان مصحوباً بالخشوع ، هذا أوَّلاً .

وثانياً : أنَّ الصلاة في الغالب هي محل الخشوع ، ومصدره ، وهي أوَّل عبادة – بعد الإيمان [٤] – عن طريقها يصل المؤمن قلبه بالله – سبحانه ، وتجعله

---

(١) وممَّا يُدلِّنا على ذلك وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تُبيِّن لنا أنَّ الخشوع صفة لصيقه بالمؤمنين ، ولا تتخلف عنهم في أيِّ زمان أو مكان ، وعلى أيَّة حال ، ومن بين تلك الآيات :
١- قوله تعالى : {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ.....} الآية ١٦ من سورة الحديد ١٦ من سورة الحديد .
٢- وقوله جلَّ شأنه في شأن أولي العلم عند سماعهم لما يُتلى عليهم من القرآن الكريم {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} – الآية ١٠٩ من سورة الإسراء .
٣- ويقول سبحانه في شأن الذين لا يثقل عليهم في الخشوع في الصلاة { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} – الآية ٤٥ ، ٤٦ من سورة البقرة .
٤- وقال عز وجل : {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.....} –الآية ١٩٩ من سورة آل عمران .
٥- وقال جلَّ جلاله في شأن سيدنا زكريا وزوجه : {....إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } – الآية رقم ٩٠ من سورة الأنبياء .
٦- وقال جل وعزَّ : {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } – الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٢ من سورة (المؤمنون) .

(٣) ذلك على اعتبار أنَّ الصَّلاة مُتضمِّنة لكل من الركوع والسجود ، وتخصيصهما بالذِّكر ؛ لأنهما أفضل حالات العبد في صلاته . (ينظر : بدائع الفوائد جـ ١ ، ص ٦٤) .

(٤) حيث ورد في القرآن الكريم ما يدُلُّ على ذلك حيث قال تعالى في وصف المتقين : { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ....} جزء من الآية رقم ٣ من سورة البقرة ، وقال سبحانه :

أشدَّ خشية لله – عز وجل – باعتبارها أرسخ في استحقاق الخشوع ، فهي الباب " الذي يدخل العبد على ربِّه منه " [١] ، وخشوعه فيها يدُلُّ على صدق الصِّلة بالله – سبحانه – " لأنَّ الصلاة أوْلي الحالات بإثارة الخشوع وقوَّته " [٢] ، " ولأنَّه بالصلاة أعلق ؛ فإنَّ الصلاة خشوع لله تعالى ، وخضوع لـه ، ولأنَّ الخشوع لمَّا كان لله تعالى كان أولى الأحوال بـه حـال الصـلاة ؛ لأنَّ المصلِّي يناجي ربَّه ، فيُشعِرُ نفسه أنَّه بين يدي ربِّه فيخشع له ، وهذا مـن آداب المُعاملة مع الخالق تعالى ، وهي [٣] ، رأس الآداب الشرعية، ومصـدر الخيرات كُلِّها " [٤] ، فضلاً عن أنَّها تكرَّر في كل يوم وليلة بخـلاف سـائر العبادات[٥] .

وممَّا يَلفت النَّظر من الوجهة البلاغية – بالإضافة إلى ما سبق – في قوله تعالى : { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [٦] ، الواقع وصفاً لفاعل الفعـل فـي قوله – سبحانه – قبله { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[١] .

{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ...} جزء من الآية رقم ٣١ من سورة إبراهيم . ، والأكثر من ذلك أنَّ الصَّلاة في القرآن ذكرت بلفظ الإيمان ، في قوله تعالى : { وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِـيعَ إِيمَانَكُمْ } – جزء من الآية رقم ١٤٣ من سورة البقرة ، والمعني : وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس ، فأطلق لفظ الإيمان ، وأريد الصلاة ... . ينظر : حاشية شيخ زادة جـ ١ ، ص ٤٥١ .

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٩٦ .

(٢) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ٩ .

(٣)أي الصلاة .

(٤) السابق.

(٥) يقول ابن أبي الإصبع مشيراً إلى أنَّ الصلاة في مقدَّمة جميع العبـادات : (والصـلاة جامعـة لجميع العبادات .... البدنية ؛ لجمعها بين القيام ، والقعود ، والرُّكوع والسجود ، وقراءة القرآن ، والأذكار والصَّمت عن غير ذلك من الكلام ، وتحريم الطعام والشراب ، والبقاء على الطهارة الكاملة ، والخضوع والخشوع ، والدُّعاء والابتهال ، يحرُم فيها ما يحرُم على الصـائم ، مـن الأكل والشرب ، والجماع والرَّفث ، وجميع الحركات والسكنات الخارجة عنها ، فهـي جامعـة لفضيلتي الصلاة والصيام وأعمال الظاهر ، وأعمال الباطن) ، – بديع القرآن – تحقيق / حفني محمد شرف ص ٤٠ ، ٤١ ط / نهضة مصر – بدون تاريخ .

(٦) الآية ٢ من سورة المؤمنون .

أقول : ومما يلفت النظر من تلك الوجهة – هو التعبير عن (الخاشعين) بالموصل الاسمي (الذين) مع صلته (هم في صلاتهم خاشعون) دون التعريف لهؤلاء المؤمنين بمثل قولنا : (الخاشعون في صلاتهم) على الرَّغم من أنَّ الصيغة البديلة أخصر وأوجز .

والحكمة في ذلك تتمثَّل في أنَّه لما كان أصحاب الصَّفة المذكورة " في مقام الإشارة إليهم ، وتعيينهم ، والإشادة بذكرهم " [٢] ، وكانت الصيغة البديلة تُفيد " الإشارة إلى نفس الصَّفة والاقتصار عليها " [٣] ، أوثر التعبير بما جاء عليه النظم الكريم ؛ حيث إن التعريف باسم الموصول (الذين) ، وصلته (هم في صلاتهم خاشعون) ، له دوره في توضيح المعنى ؛ لأنَّه يفيد أنَّ (المُتحلِّين بالخشوع معيَّنون ومعروفون بذواتهم ، وأنَّ هذا الوصف مشهور فيهم ، لا يخفى على ذي معرفة ، فاسم الموصول إذاً أفاد التصريح والإشارة إلى ذات المُسمَّي[٤]، الذي عُرِّف بصلة الموصول ، ولاشك في أنَّ (الذين) اسم مبهم ، وضَّحَتْه وفسَّرته جملة الصَّلة بعده [٥] ، إذ إنَّ معنى قوله تعالى: { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[٦]– والله أعلم – (القوم الذين هم في صلاتهم خاشعون) ، فالتعبير بـ (الذين) فيه إشارة إلى تعرُّف هؤلاء الموصوفين بأعيانهم وتعرُّفهم من الدَّين"[٧]،

---

(١) الآية ١ من نفس السورة الكريمة .
(٢) بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ٢٠ .
(٣) ينظر : بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ٢٠ ..
(٤) ينظر : السابق ، ويُنظر : نتائج الفكر للإمام السُّهيلي تحقيق / الدكتور محمد إبراهيم البنا ص ٣٠٥ / ط/ دار الرياض للنشر والتوزيع– بدون تأريخ
(٥) ينظر : المقتصد في شرح الإيضاح جـ ١ ، ص ٣١٧ ، والطراز جـ ٢ ، ص ٨٥ .
(٦) الآية رقم ٢ من سورة المؤمنون .
(٧) ينظر : نتائج الفكر ص ٣٠٥ .

ولاسيَّما إذا كانوا من المؤمنين المُخبر عنهم بالفلاح في الدّنيا والآخرة { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [١] ، ولذلك أوثر التعبير عنهم باسم الموصول تعريفاً لهم .

وهذا المعنى لا نجده في الصَّيغة البديلة (الخاشعون في صلاتهم) ؛ إذ إنَّ (الألف) ، و (اللام) في لفظ (الخاشعون) ، وإن كانت بمعني (الذين) فليست مثلها في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات الاسم ، ألا تري أنَّ قولك : (الذين فعلوا) يتضمَّن معنى : (القوم الذين فعلوا) ، وقولك : (الضاربون والمضروبون) ليس فيه ما في قولك : (الذين ضربوا أو ضُرِبوا) ، وإذا صَحَّ هذا ، وتأمَّلْته ، تبيَّن لك أنَّ التعبير القرآني أبلغ وأسمي من مثل قولنا : (الخاشعون في صلاتهم) ؛ لأنَّ الأوَّل فيه تعيين لذات المسمَّى التابع للوصف ، فهو دال على أنهم مؤمنون معروفون بذواتهم الموسومة بالخشوع في الصلاة ، بخلاف القول المصنوع ، فهو لم يُفد هذا المعنى ؛ لأنَّه وإن كان فيه إشارة إلى الصفة ، إلَّا أنَّه ليس فيه تعيين لذات المتَّصفين بها [٢] .

أضف إلى ذلك ما في البدء باسم الموصول من تشويق وتمهيد لما يأتي بعده في حيِّز الصِّلة ، إذ إنَّ السَّامع حينما يطرق أذنية لفظ (الذين) تتهيَّأ نفسه، وتتشوَّق إلى معرفة ما تتضمَّنه صِلتُه ، وكأن الاسم المذكور أداة تنبيه تدفع المرء إلى الإصغاء أوَّلاً فإذا ما جاء بعده (هم في صلاتهم خاشعون) استقرَّ في النَّفس وتمكَّن فيها فضل تمكُّن .

هذا ، ولا يخفى – كذلك – ما في التعبير بالموصول وصلته من دلالة على عِظَم ، واستغراق كُلِّ درجات الرَّفعة في هؤلاء المؤمنين الموسومين بالخشوع ، والمُخبر عنهم بالفلاح ، مما يتناسب ودرجتهم العالية في الإيمان ، وفي ذلك

(١) الآية ١ من سورة المؤمنون .
(٢) ينظر السابق ، وبدائع الفوائد جـ ٢ ص ٢٠ .

تكريم لهم ، وتنويه بشأنهم ، وبمقامهم عند الله – عز وجل – وإلَّا لِما أُخبر عنهم بالفلاح ؛ إذ إنَّ قوله تعالى : { الَّذِينَ هُمْ } يؤذن بأن إقبالهم على الله – عز وجل – أثناء صلاتهم في خشوع وخضوع إنما يكون هذا الإقبال بكلِّية (ظواهرهم وبواطنهم" [١] ، ولو جيء بالتعبير خاليا من اسم الموصول وقيل : " قد أفلح المؤمنون الخاشعون في صلاتهم " ما أفاد هذا المعنى .

ولنا أن نتأمَّل السِّرَّ في تصدير جملة الصِّلة بالضمير (هم) ثم الإخبار عنه بما يُفسره (في صلاتهم خاشعون) ؛ إذ إنَّ ذلك " يؤذن بتحقيق حصول الصِّفة لهم " [٢] ، وبتأكيد نسبة الخشوع إلى هؤلاء المؤمنين ، واختصاصه بهم ، وذلك فيه مزيد من التفخيم لشأنهم ، لعلوِّ قدرهم ، وهذا أيضاً مِمَّا لا يتوافر لوجئ بدون الضمير وقيل : (قد أفلح المؤمنون الخاشعون في صلاتهم) .

ذلك فضلاً عمَّا يفيده تقديم الضمير (هم) من تقوية للحكم وتأكيده بتكرار هذا الضمير عن طريق إسناد الخبر (خاشعون) إليه مرَّة أخرى ، أي أن الإسناد حصل مرَّتين ، مرَّة في إسناد (الخشوع) إليه ظاهراً ، وأخري في إسناده إليه مستتراً ، فهذا التكريم للإسناد نشأ عنه تقوية الحكم وتوكيده .

هذا ، ومن المعلوم أنَّ (الذين) صفة للمؤمنين المُخبر عنهم بالفلاح ، والضمير (هم) مبتدأ ، واسم الفاعل (خاشعون) خبر لهذا المبتدأ ، و (في صلاتهم) جار ومجرور متعلِّق باسم الفاعل المذكور ، والذي يرد على الذهن هو أن يكون التعبير (الذين هم خاشعون في صلاتهم) بتقديم الخبر على الجار والمجرور ، لا العكس مع أنَّه الأصل ، فلماذا أوثر التعبير بما جاء عليه النَّظم

(١) نظم الدُّرر جـ ٥ ، ص ١٨٢ .
(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني ص ٢٠٦ .

الكريم ، فقال تعالى (الذين هم في صلاتهم خاشعون) بتقديم الجار والمجرور على الخبر ؟ أني بتقديم الصلاة على الخشوع ، وذلك على خلاف الأصل .

والجواب : هو أنَّ التقديم المذكور ينطوي تحته سِرٌّ عجيب ، حيث إنَّه لمَّا كانت الصلاة هي المقصودة بالاعتناء والالتفات إليها ؛ والتركيز عليها ؛ باعتبارها مصدر الخشوع ، وسببه ، ومكانه ، وكان ذلك الخشوع ليس مُهِمَّاً في ذاته ، وإنَّما المهم هو كونه في الصلاة ، ذلكم " الباب الذي يدخل العبد على ربه منه " [١] – أقول : لمَّا كان الأمر كذلك – " اقتضي حسن النَّظم وإعجاز اللفظ تقديم الجار والمجرور ، وإن كان موضعه التأخير" [٢] ؛ إذ إنَّ الموضوع يتعلَّق بالصلاة أولاً ، وبالخشوع – الذي هو جزء منها – ثانياً ، ويكون بعد التلبُّس فيها ، فالصلاة تكون أوَّلاً ، ثم يتخلَّلُها الخشوع الناشئ عنها ، ومن ثم كان التعبير بقوله (في صلاتهم خاشعون) أبلغ وأوفي بالمراد من مثل قولنا (خاشعون في صلاتهم) .

يقول الإمام الزملكاني :" ..... وقُدِّم متعلَّق الخشوع عليه ؛ لبيان شرف الصلاة ، وأنَّها مخصوصة بغضّ الطرْف والإطراق [٣] " [٤] .

ولاشك في أنَّ شرف الصَّلاة راجع إلى كونها الرُّكن الثاني من أركان الإسلام ، ومن أجل تعظيم هذا الرُّكن ، قُدِّم مرّاعاة لحُرمته ، و" ليُقرِّب ذكر

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ١٩٦ .

(٢) نتائج الفكر ص ٣١١ .

(٣) المُراد بغض الطرف والإطراق : كفّه وخفضه ، وذلك يكون برمي البصر أثناء الصلاة إلى الأرض مكان السجود ، وليس برفعه إلى السماء – على نحو ما مرَّ بيانه عند الحديث عن مناسبة نزول الآية الكريمة – ولعلَّ ذلك هو ما يقصده الزملكاني ، يقول : الزمخشري (أطرق الرجل : رمي ببصره إلى الأرض) ، أساس البلاغة ، ص ٣٨٩ – طرق ، ويقول ابن منظور : ".... وأطرق الرَّجل : أي أرخي عينه ينظر إلى الأرض ... الإطراق أن يُقبل ببصره إلى صدْره ويسكت ساكناً ". لسان العرب جـ ٨ ، ص ١٥٣ طرق ، وفي لسان العرب أيضاً : (خَشَعَ : رمي ببصره نحو الأرض ، وغضَّه ، وخفض صوته جـ ٤ – ص ١٠٠ – (خشع) .

(٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٢٠٦ .

الصلاة من ذكر الإيمان فإنهما إخوان ، وقد جاء إطلاق الإيمان عليها في قوله تعالى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [١] " [٢] .

ولذلك كان من شدَّة حرص الرسول ﷺ على الاهتمام بأمر الصلاة أن أوصي أمته بالالتزام بها ، حتي وهو في مرض موته فقد أورد " أبو داود " حديثاً جاء فيه (عن أم موسي) – رضي الله عنها – عن على – عليه السلام – قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ : " الصلاةَ الصلاةَ [٣] ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم"[٤]، وذلك من باب المُبالغة في الاهتمام بأمرها ، وأنَّها مِمَّا لا ينبغي الرَّغبة عنه ، ولا يصح الأعراض عنه .

ونكتة بلاغية أخرى في تقديم متعلَّق الخشوع عليه ، تلك النُكتة تتمثَّل في استحضار قوي النفس المؤمنه وتشويقها بذكر المُقدَّم إلى ما يعقبه ، إذ إنَّ السامع حينما يطرق سمعه قوله (في صلاتهم) تطلَّعت نفسه مستشرفةً لمعرفة الخبر ، وماذا سيكون ؟ ، وما المُراد منه ؟ فإذا جاء قوله (خاشعون) تمكَّن معناه وقت وروده في نفس المُتلقَّي ، واستقرَّ في قلبه ما ينبغي عليه أن يصنعه ، والصفة التي يجب أن يتحلَّي بها وهو في صلاته حتي يكون من المؤمنين المفلحين .

والنُكتة المذكورة تجرُّنا إلى القول بأنَّ في الأسلوب إيجازاً بالحذف ، إذ إنَّ التقدير – والله أعلم – (قد أفلح المؤمنون الذين هم من صفاتهم الخشوع في الصلاة) .

---

(١) جزء من الآية رقم ١٤٣ من سورة البقرة .
(٢) روح المعاني جـ ١٧ ، ص ٧ .
(٣) فقوله ﷺ : " الصلاة الصلاة " وارد على سبيل الإغراء ، وأسلوب الإغراء كما هو معلوم : هو حث المُخاطب على أمر محمود ليفعله (ينظر : حاشية الصَّبان جـ ٣ ، ص ١٨٨) فلفظ (الصلاة) الأول مفعول به لفعل محذوف تقديره : الزموا ، والثاني تأكيد لفظي منصوب .
(٤) سنن أبي داود جـ ٤ ، ص ٣٤٢ (كتاب : الأدب – باب : في حق المملوك) الحديث رقم ٥١٥٦ .

على أنَّ الآلوسي قد ذكر عن بعض أهل العلم : أنَّ تقديم الجار والمجرور (في صلاتهم) على الخبر (خاشعون) إنما كان من أجل رعاية الفاصلة [١] ؛ وهذا يعني أنَّه لو قيل مثلاً : (الذين هم خاشعون في صلاتهم) لكان في ذلك إخلالٌ بالتناسب ، الذي هو رعاية الفواصل لموافقة كلام السامع ؛ باعتبار أنَّ الفاصلة (خاشعون) مبنية على (الواو) ، و (النون) كما هو الحال في لفظ (المؤمنون) المذكور في الآية السابقة : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [٢] .

والحق الذي لا مرية فيه هو : أنَّ القرآن الكريم وإن كان يحرص " على جمال الإيقاع ، وحسن التناسب بين الألفاظ " [٣] ، إلَّا أنَّ القول – في آيتنا – بأن مُراعاة الفاصلة ، ومطابقة رؤوس الآيات هو الذي دعا إلى تقديم (في صلاتهم) على (خاشعون) ، هذا القول وحده غير كاف ؛ لأنَّ حسن النظم في القرآن الكريم يرجع في المقام الأول إلى المناسبات المعنوية المرتبطة بالسياق ، قبل ان يكون راجعاً إلى تناسب الفواصل ؛ لأنَّ ذلك التناسب ، وإن كان " له أثره الموسيقي في نظم الكلام ، ولهذه الموسيقي أثرها في النفس ، إلَّا أنَّه قبل ذلك له قيمته في إتمام المعنى " [٤] ؛ بالإضافة إلى أنَّه يزيده حسناً [٥] ؛ وجمالاً ؛ إذ إنَّ " مدار البلاغة ومبناها إنما هو رعاية جانب المعنى وجزالته ، ثم تطبيق اللفظ على ما يقتضيه المقام ، فحقَّ مَنْ يتصدَّى لكلام الله تعالى وتأويله أن يُلاحظ حقَّ المعاني بالاعتبار ، وأقربها محلَّلاً ، ثم يكشف انطباق ألفاظه على تلك الأغراض

---

(١) ينظر : روح المعاني جـ ١٧ ، ص ٧ .
(٢) الآية ١ من سورة المؤمنون .
(٣) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ للدكتور / محمد الأمين الخضري ص ٤٣ ط / مطبعة الحسين الإسلامية – أولي ١٤١٣ ه – ١٩٩٣م .
(٤) ينظر : من بلاغة القرآن ص ٨٧ .
(٥) ينظر : الدُّر المصون جـ ٨ ، ص ٣١٥ ، واللباب في علوم الكتاب جـ ١٤ ، ص ١٦٦ .

المطلوبة منها " [١] ؛ والمقام في آيتنا يقتضي " الحفاظ على تنغيم الآخذ، والتوازن الصَّوتي الذي يُشارك مشاركة فعَّالة في تحريك القلوب ، وبعث خوافي الإحساس والشعور " [٢] ؛ قصداً لاستمالة النفوس ، وانسجامها مع الآية الكريمة؛ لتتذوَّقها ، وتتفهَّم مضمونها ، وبخاصَّة إذا كان الأمر يتعلَّق بالصلاة وبالخشوع فيها ، ومن ثم فلو تأخر مُتعلِّق الخشوع فيه ، وقيل : (هم خاشعون في صلاتهم) لكان ذلك التأخير مُخلاً بأطراف النظم ، لا متجاوباً معه .

وممَّا يستوقفنا كذلك في متعلَّق الخشوع (في صلاتهم) طريقة بنائه وتركيبة ، حيث جاء مصدَّراً بالحرف (في) الدال على الظرفية ، والمقتضي لها، إذ إن ذلك الحرف فيه إشارة دالة على أن المُصلِّي لا يُعدُّ من الخاشعين في صلاتهم الَّا إذا بلغ الدَّرجة العُليا في الاهتمام بها – وبخاصة أثناء تلبُّسه بها – ولا يكون ذلك إلَّا إذا حقَّق المقصود منها ، ذلكم المقصود هو روح الصلاة ، وسرُّها المتمثَّل في الخشوع ، بحيث إذا دخل المُصلِّي في صلاته ، تصير وكأنَّها أحاطت به من جميع جوانبه واشتملت على المصلي اشتمال الوعاء للموعى فيه[٣] ؛ لغلبتها على قلبه وهمومه ، فتمكَّنت منه تمكُّن الظَّرْف من المظروف [٤] ، فلا

---

(١) حاشية شيخ زادة جـ ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) خصائص التراكيب للدكتور محمد أبي موسي ص ٢٥٠ – نشر / مكتبة وهبة ط / ثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

(٣) وهذا يعني أن القول القرآني (في صلاتهم) جاء على سبيل المجاز لا الحقيقه ، وذلك لدواع ثلاث (الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه) أمَّا الاتساع ؛ فلأنه أو مأ إلى إلى أنَّ الصلاة ذات جهات تحيط بالمُصلِّي ، وهي ليست كذلك ، وأمَّا التوكيد ، فلأن الصلاة عَرَضٌ لا جوهر ، وجاء الإخبار عنها بما يُخبَر به عن الجوهر ؛ تفخيماً لها ، حيث صُيرّت وكأنَّها حيَّز يُشاهَدُ ويُعاينُ ويُلمَسُ ، وأمَّا التشبيه فلأنَّ الصَّلاة شُبِّهت بما يجوز الدُّخول فيها ، وهذا تشبيه لها بالجوهر ، وفي ذلك تعظيم لقدرها ، إذ إنها والحالة هذه تكون وكأنها وعاء مُجسَّمٌ يدخل فيه المُصلِّي – لا عرضاً مُتوهَّماً . (يُنظر : الخصائص لابن جني جـ ٢ ص ٤٣٣ ، ٤٤٤ .

(٤) هذا بناءً على ما ذهب إليه المُحققون من أهل اللغة على أنَّ الحرف (في) موضوع في العربية لمعني (الوعاء والظرفية) يقول (سيبويه) : وأمَّا (في) فهي للوعاء ، تقول : هو في الجراب ، وفي الكيس ، وهو في بطن أمِّه ، وكذلك : هو في الغُلِّ (أي الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه . لسان العرب جـ ١٠ غلل)] ، وكذلك هو في القُبَّة وفي الدَّار .....) –

يكون ساهياً ولا غافلاً ، بل يتفرغ لصلاته تفرُّغاً كاملاً ، متوجَّهاً بكلِّيته إلى الله – عز وجل – مقبلاً عليه بقلب وجل خاشع ، منشغلاً عن دنياه بجميع جوارحه ، مُسلِّما نفسه لربِّ الأرباب ، مُجرِّداً روحه إليه ، ويكون في صلاته غارقاً متقلِّباً بفكره ووجدانه ، طارحاً كُلَّ ما سواها ، منشغلاً بما يقرأ ، متفهِّماً ومتدبَّراً معاني ما يقول في قيامة ، وركوعه ، وسجوده ، وجلوسه ، وفي جميع حركاته أثناء صلاته " فهو يعيش فيها ، ويتحرَّك من خلالها " [1] ؛ غير منفكٍّ عنها ؛ لمالها من أثر عميق في نفسه ، وفي قلبه ، وفي باطنه ، وفي أعماق فؤاده ، ولما فيها أيضاً من فضيلةُ التَّقرُّب إلى الله – عز وجل – فإذا ما وصل المُصلِّي إلى هذه الدَّرجة كان قد تحقَّق المقصود من صلاته ؛ لأنَّها حينئذ تكون وكأنَّها قد صنعت حوله سياجاً لخشوعه فيها ، وحصناً حصيناً يحميه ، ويحول بينه وبين وساوس الشياطين التي تُحاول أن تُفسد على المرء صلاته .

كتاب سيبويه – تحقيق / عبد السلام محمد هارون جـ ٤ ، ص ٢٢٦ – نشر / مكتبة الخافجي ط/ ثانية ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م .
ويقول الرُّماني كاشفا عن حقيقة (في) وتصرُّفها على سبيل المجاز والاتساع : " (في) .... وعملها الجرّ ، ومعناها : الوعاء ، تقول من ذلك المال في الكيس ، واللِّصّ في السجن ، أي اشتمل الكيس على المال ، والسجن على اللص ، وقد يُتسع فيها فيجري مجري المثل ، وذلك نحو قولك : فلان ينظر في العلم ، كأنَّ العلم قد اشتمل عليه " . معاني الحروف للرماني – تحقيق الدكتور / عبد الفتاح إسماعيل شلبي ص ٩٦ – ط / دار نهضة مصر للطباعة والنشر – بدون تأريخ .
وقال ابن جني : (ومعني (في) الوعاء الظرفية .....) – اللمع في العربية – تحقيق / فائز فارس جـ ١ ، ص٧٣ – نشر / دار الثقافة – الكويت ١٩٧٢ م .
وقال الراضي : (و " في ") للظرفية إما تحقيقاً نحو : زيد في الدَّار ، أو تقديراً نحو : نظرتُ في الكتاب ، وتفكَّر في العلم ، وأنا في حاجتك ؛ لكون الكتاب والعلم والحاجة شاغلة للنظر ، والتَّفكُّر ، والمُتكلَّم ، مشتملة عليه اشتمال الظَّرف على المظروف ، فكأنَّها مُحيطة به من جميع جوانبها ....) – شرح الكافية جـ ٢ ، ص ٣٠٤ – ط / المطبعة العامرة ١٣٧٥ ه .
(١) من أسرار حروف الجرّ في الذكر الحكيم للدكتور محمد الأمين الخضري ص ١٢١ نشر مكتبة وهبة ط / أولي ١٤٠٩ه ، ١٩٨٩م

ويمكن أن يُضاف إلى ما ذكرت : أنَّ المعنى في قوله (في صلاتهم) : أي بسبب صلاتهم ، ذلك على سبيل أنَّ حرف الوعاء (في) يشي بالسببية [١] ؛ وهذا يعني أنَّ الصلاة لابد أن تكون سبباً لخشوع المؤمنين المطلوب منهم في كل حال ، وعلي أي حال ، ومن ثم يتسنَّي لهم الاتصاف بما ذُكر بعد من الاتصاف بالإعراض عن اللغو ، وما تلا هذا الإعراض من صفات يجب أن يتحلَّي بها كُلُّ مؤمن خاشع لله – عز وجل – متذلِّل في جميع شؤون حياته ، قال تعالى : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[٢] ؛ وبذا تتبين لنا الحكمة من تصدير قوله (في صلاتهم) بالحرف الدال على الوعاء والظرفية ، وأنه كان لضرورة بيانية اقتضاها المقام على نحو ما ذُكر ، إذ إنَّ في دلالته بياناً واضحاً لمن يدخلون في صلاتهم دخولا لا يليق به ، فلا يُقبلون عليها بقلوب وجلة خاشعة ، ولكنهم إذا دخلوا فيها سرحوا بخواطرهم ، ومشاعرهم ، وتهاونوا في الخشوع فيها ، ولا عبرة عندهم بالأثر المترتب على الصَّلاة التي ينبغي أن تكون ، وعلي وجهها الصحيح ، فمثل هؤلاء لا تكون صلاتهم مٌحيطة بهم ، ولا كالوعاء بالنسبة لهم ، ومن ثم تكون صلاتهم كلا صلاة ؟ لأنهم دخلوا فيها بأبدانهم وفقط ، دون قلوبهم، فهي كبيرة عليهم ، وشاقَّة على أنفسهم ، وهذا هو شأن الكثرة الكاثرة من مسلمي هذا الزمان ، والذين يدخلون المسجد ، ويخرجون منه وكأنَّهم لم يدخلوه؛ حيث إنَّ صلاتهم لم تتسع لهم ، ولم تكن لهم مع أدائهم لها صلةٌ بينهم

---

(١) أشار السيوطي إلى انَّ صرف الجر (في) له معان كثيرة ، من بينها (السببية) – ينظر : الاتقان جـ ١ ، ص ١٦٦ ، مثل هذا ذهب الأصوليون ، ومن بينهم الفتوحي الحنبلي المعروف بـ (ابن النجار) حيث قال : (وتأتي (في) أيضاً (سببية) كقوله ﷺ : " دخلت امرأة النار في هِرَّة " أي بسبب هِرَّة ...) . شرح الكوكب المنير جـ ١ ، ص ٢٥٣ .
(٢) الآيتان (١٦٢ ، ١٦٣) من سورة الانعام .

وبين خالقهم ، وبالتالي فهم لم يكونوا قادرين على القيام بالاتصاف بالصفات التي يجب أن يتحلَّي بها المؤمنون من إعراض عن اللغو، وغير ذلك من المُثُل العليا.

وفي المقابل من ذلك كشف لنا الحرف المذكور (في) عن أنَّ هُناك ثلَّةً من الأمَّة المؤمنة خاشعةً لله – عز وجل – وقد تأصَّلت الصلاة في طبيعتهم ؛ باعتبار أنَّ إيمانهم قد تحوَّل إلى مشاعر وجدانية ، وسلوك عملي ، وذلك من خلال تمكُّنهم من الصلاة ، باستحضار قلوبهم فيها، لتحقيق المقصود منها، وهو روحُها المتمثَّل في الخشوع الذي يمنعهم من الخوص فيما يُغضب الله – عز وجل – بعد خروجهم منها ، وما ذلك إلَّا لأنَّ تلك الصلاة ليست كبيرة عليهم ، وهذه الثُّلَّة هي التي استجابت لقول المولي عز وجل : { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [(١)] .

وما يعنينا هو : أنَّ التعبير بقوله (في صلاتهم) غاية في البلاغة ، ولو قيل : (الذين هم إذا اصلَّوا كانوا خاشعين) بدون حرف الوعاء أو الظرفية ما وقفنا على كُلَّ ما ذُكر ، وإن دلَّ هذا فإنما يدُلُّ على دِقَة أسلوب القرآن الكريم ، وبراعة نظمه ، وحسن تأليفه ، وأنَّ للظرفية في النظم الكريم ظلالاً وإيحاءات يعجز التعبير بدونها عن الوفاء بها .

هذا ، ولمزيد من الحثَّ على الخشوع في الصلاة ، وبذل الجهد في ذلك والاهتمام به جاء لفظ (صلاة) مُعرَّفاً بإضافته إلى ضمير المُخاطبين (هم) ؛ حيث قال سبحانه (الذين هم في صلاتهم) ولم يُقل مثلاً : (الذين هم في الصلاة)، إذ إنَّ في الإضافة المذكورة إيذاناً بأنَّ الصَّلاة من منافع المصلين الموصوفين بالفلاح ، ومن مصالحهم ، وأن خضوع هؤلاء في صلاتهم ينعكس

(١) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) من سورة البقرة .

أثره على نفوسهم ؛ باعتبارها صلاتهم التي تستوجب منهم أن يكونوا من المُخلصين فيها ، لأنَّها مُختصَّةٌ بهم لا بغيرهم .

يقول الزمخشري : " ... فإن قُلْتَ لم أُضيفت الصَّلاة إليهم ؟ قُلْت : لأنَّ الصَّلاة دائرةٌ بين المُصلِّي والمُصلَّي له ، فالمُصلِّي هو المنتفع بها وحدة ، وهي عِدَّته وذخيرته فهي صلاته ، وأمَّا المُصلَّي له ، فغنيٌّ مُتعال عن الحاجة إليها ، والانتفاع بها " (١) .

وإلي مثل هذا ذهب الإمام برهان الدين البقاعي " (٢) .

وفي تلك الإضافة أيضاً إشارة إلى " أنَّ لهم تعلُّقاً شديداً بالصلاة ؛ لأنَّ شأن الإضافة أن تفيد شدَّة الاتصال بين المضاف والمُضاف إليه ؛ لأنهَّا على معنى لام الاختصاص " (٣) ، فهي صلاتهم التي ألفوها وعرفوها وداوموا عليها بلا انقطاع .

ولاشك في أنَّه لو جئ بالتعبير خالياً من الإضافة ، " وقيل : الذين هم إذا صلوا خشعوا) فات هذا المعنى ، وأيضاً لم يتأتَّ وصفهم بكونهم خاشعين إلَّا بواسطة كلمة أخرى نحو : " كانوا خاشعين " ، وإلَّا يفت ما تدُلُّ غليه الجملة الأسمية من ثبات الخشوع ودوامه ، أي كون الخشوع خُلُقاً لهم بخلاف نحو : الذين خشعوا " (٤) ، ذلك على نحو ما سيأتي بيانه عند الحديث عن لفظ (خاشعون) .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧١ .
(٢) ينظر : نظم الدّرر جـ ٥ ، ص ١٨٢ .
(٣) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٠ .
(٤) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٠ .

كما انَّ في إضافة لفظ (صلاة) إلى الضمير العائد على الموصوفين (هم) إيجاز بليغ ، إذ إنَّ التقدير : (الذين هم في الصلاة التي يصلونها خاشعون) .

وملمح آخر نجده في قوله (في صلاتهم) وهو : مجئ المُضاف (صلاة) مفرداً ، وقد أشار الزمخشري إلى أنَّ العِلَّة في ذلك هي دلالة ذلك المفرد على الجنس ، أعني جنس الصلاة فيقول : (وُحِّدت أوَّلاً)[١] ؛ ليُفاد الخشوع في جنس الصلاة أيِّ صلاة كانت "[٢] .

ويُفهم من هذا أنَّ ما جاء عليه النَّظم الكريم فيه دلالة على أنَّ الصلوات جميعها لابُدَّ أن تكون في نظر المؤمنين المفلحين على قدر كبير من الأهمية ، وعلي درجة واحدة ، فهي سواءٌ في الخشوع ، لا فرق بين صلاة وأخري ، وكأنها جميعها صلاة واحدة، فمن ديدنهم الخشوع فيها كُلِّها، لا في صلاة دون صلاة ؛ إذ إنَّ تمام الخشوع لا يحصل إلَّا بوحدة الصلاة ، وبذا يكون المفرد المُضاف (صلاة) دالَّاً على عموم الصلوات ، ولو جئ بصيغة الجمع (صلواتهم) لخطر بالبال أنَّ الفلاح يتحقَّق لمن اهتم بالخشوع داخل تلك الصلوات ، ولو في بعضها ، أو في جزء من أَّي صلاة يؤديها ، ولمَّا كان هذا ليس مُراداً ، كان الإفراد أنسب وأليق بهذا المقام ؛ لدلالته المذكورة .

وأرى بالإضافة إلى ذلك أنَّ الإفراد المذكور – والله أعلم – إنما كان ؛ لأنَّ كُلَّ صلاة لها خشوعها الخاص بها ، وأنَّ كُلَّ مُصلٍّ مسؤول عن صلاته ، وعن الخشوع فيها ، ولا علاقة له بالآخر ، وبقدر جهاد المؤمن وهو في صلاته للشيطان ، وبقدر تغلُّبه عليه في هذا الميدان يكون له من الثواب على حسن

---

(١) أوَّلاً : أي في قوله تعالى (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) حيث إنَّ هذا الكلام أورده وهو بصدد حديثه عن قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) الآية رقم ٩ من سورة المؤمنون .
(٢) الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧٣ .

خشوعه فيها ، وهذا الجهاد ، وذلك التَّغَلُّب ، يختلف من صلاة إلى أخرى ، ومن فرد إلى آخر ، وبحسب درجة الإيمان ، إذ إنَّ الخشوع في الصلوات يتبع حرارة الإيمان ارتفاعاً وانخفاضاً ، فكُلَّما زاد إيمان المؤمن ارتفعت درجة خشوعه .... ومن هُنا كان لفظ الإفراد (صلاة) أليق ، فالخشوع لا يتعلَّق بجميع الصلوات معاً، وإنمَّا لكل صلاة خشوع يختصُّ بها ، وأنَّ ذلك الخشوع من الضروري أن يكون سارياً في مجموعها لا في جزء من تلك الصلاة ، كما أنَّ الخبر في الآية الكريمة (خاشعون) اسم فاعل جمع مذكر سالم ، والاسم يفيد الثبوت والدوام على حالة واحدة ، وهذا ما يناسبه إفراد لفظ (صلاتهم) لا الجمع (صلواتهم).

ولطيفة أخرى اشتمَّها من خلال مجئ لفظ (صلاة) مفرداً ، إذ إنَّ في ذلك الإفراد إشارة إلى أنَّ الخاشعين في صلاتهم قلَّة بالنسبة لغيرهم من الذين لا يخشعون في صلاتهم ؛ لأنهم يؤدونها شكلاً لا موضوعاً ، دلَّنا على ذلك أنَّ اللفظ المذكور اسم جنس إفرادي ، وهو – على نحو ما صرَّح به النحويون – " صالح للقليل والكثير " [١] ، يؤازر ما ذهبت إليه قوله تعالى : { وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [٢] ، وهذه بدوره يجرُّنا إلى القول بأنَّ الصيغة المذكورة تومئ من طرْف خفيٍّ إلى التعريض بالكثرة الكاثرة التي لا تخشع في صلواتهم ، وفيها دلالة كذلك على أنَّ الصلاة التي يخضع فيها صاحبها ، وإنْ كانت واحدة ، فهي أعظم عند الله – عز وجل – مما سواها التي لا خشوع فيها ، وإن كانت كثيرة فإنَّها لا يُبالي بها ، ولا قيمة لها ولا وزن [٣].

---

(١) شرح الأشموني جـ ٤ ، ص ١٥٤ .

(٢) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة سبأ .

(٣) يؤيد ذلك ما ورد في مجمع الزوائد " عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : [من صلَّي الصلوات لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتمَّ لها قيامها وخشوعها وركوعها ، ولا سجودها ، خرجت وهي سوداء مُظلمة تقول : ضيَّعك الله كما ضيَّعتني ، حي إذا كانت حيث شاء الله لُفَّت كما يُلفُّ الثوب الخَلَقُ ، ثُم ضُرب بها وجهه " – مجمع الزوائد للحافظ

وبذا تبرُز لنا الحكمة البالغة في إيثار لفظ (صلاة) على الجمع (صلوات) ، وفي فضل التعبير بالأول – في آيتنا – وأنَّ ذلك إنَّما كان لما له من دوْر بارز في إتمام المعنى وكماله ، على نحو ما رأينا .

قوله (خاشعون) : جمع خاشع ، وأصل الخشوع في اللغة : الخضوع ، والتواضع ، والخوف ، والتذلُّل والسكون ، والتطامن ، والاستكانة [(١)] .

وفي الشرع : " خشية من الله تكون في القلب فتظهر آثارها على الجوارح " [(٢)] .

وقد سبق أن ذكرت أنَّ الخشوع في الصلاة هو أن يتجرِّ (المؤمن بكليَّته لله – عز وجل – ظاهراً وباطناً (بقلبه وجوارحه) في صلاته كُلِّها ، في قيامة وركوعه وسجوده وجلوسه وفي جميع حركاته وسكناته في تلك الصلاة .

وما يعنينا هنا هو التعبير بصيغة اسم الفاعل (خاشعون) ، ومجيؤها مطلقة دون تقييد ، وإيثارها على غيرها مما هو من نفس مادتها ، أو على غيرها مما هو بمعناها أو بمعني قريب منها .

<u>فأقول</u> : إنَّ الاسم المذكور بصيغته التي جاء عليها له مغزي جليل ، حيث إنه يكشف عن ارتباط هذا الوصف (الخشوع) بهؤلاء المفلحين ، وأنَّه سمة ملازمة لهم ، ثابتة عندهم ، متأصِّلةٌ فيهم ، لا تفارقهم ، ولا تنفك عنهم ؛ لأنها

نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي بتحرير الحافظين الجليلين / العراقي وابن حجر جـ ١ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ (الحديث رقم ١٦٧٧) ط / دار الفكر – بيروت ١٤١٢ ه ، ١٩٩٢م .

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق د / عبد الجليل عبده شلبي جـ ٤ ، ص ٦ ط / دار الحديث بالقاهرة ، وينظر : الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني تحقيق / محمد حسن أبو العزم الزَّفيتي جـ ١ ، ص ٣١٦ صادر عن المجلس الأعلي للشؤون الإسلامية ١٤٣١ ه ، ٢٠١٠م ، ولسان العرب جـ ٤ ، ص ١٠٠ خشع .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي جـ ٥ ، ص ٣٠٥ – نشر / دار الفكر – بيروت – لبنان ١٤١٥ه – ١٩٩٥م .

راسخة في قلوبهم ، لا تتزعزع سواءٌ أكان ذلك في صلاة أم في غيرها ، فهي لا تنفصل عن إيمانهم المستقر في دواخل نفوسهم ، ومن ثم كان قوله (خاشعون) الدَّال على الثبوت والدوام مناسباً للصَّفة الأولى (الإيمان) والواردة في قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} ، وآخذاً بحُجَزِها ، وفيه إيذان بأنَّ الأسمي والأجدى والأوْلي في شرعة المؤمنين الثابتين على إيمانهم أن يكونوا ثابتين كذلك في خشوعهم أثناء الصلاة ، فكأنَّه قيل : قد أفلح المؤمنون الثابتون على إيمانهم ، والذين من صفاتهم الثبوت في الخشوع أثناء صلاتهم ، وما ذلك إلَّا لأنَّ الصلاة تتطلب الخشوع فيها على الدوام ، باعتباره أصلاً فيها ، وهذا الأصل يتطلَّب ثبات الاتصاف به ووقوعه ؛ لا وقوعه فحسْب ، ولذا كان التعبير بالاسم (خاشعون) هو الأنسب والأليق في هذا الموضع ، فهو خشوع مستمر وثابت في كُلِّ صلاة لا يُغادرها ، في أيَّ زمان كانت تلك الصلاة أو في أي مكان .

ولو قيل : (يخشعون) بالفعل ، لكان المعنى : أنَّهم يخشعون في الصلاة حيناً ، ويتركون ذلك الخشوع حيناً آخر ، وعلي هذا يكون خشعوهم طارئاً غير ثابت ، فاذا حدث في صلاة ، قد لا يحدُث في غيرها ، وليس هذا مُراداً ، إنما المُراد هو : أن يَكون الخشوع ثابتاً لهؤلاء المؤمنين في صلاتهم ، وعلي الدوام ، وهذا يُناسبه التعبير بالاسم لا بالفعل ، ولمَّا كان الأمر كذلك كان من دقة البلاغة القرآنية التعبير بالاسم المذكور ؛ لدلالته على طلب الرسوخ في الصَّفة التي هي محلُ الحديث ، وفي الصِّفات التالية لها (مُعرضون – فاعلون – حافظون – راعون) ، والتي جاءت بصيغة الاسم الدَّالة على ثبوت تلك الصفات ، ودوامها بالنسبة للمؤمنين المفلحين .

وممَّا يلفت النظر مجئ لفظ (خاشعون) ، على إطلاقة ، وبدون تقييد لمظاهر الخشوع ، وبما يُتخشَّعُ به ؛ وذلك لتذهب النفس في الاتصاف بالصفة المذكورة كُل مذهب ، بحيث يكون الاتصاف بها إلى أبعد حدَّ ، وبقدر الاستطاعة

لمجاهدة النفس في دفع الوساوس والخطرات والأفكار التي تطرأ عليها أثناء الصلاة ، لدرجة أنَّ الخاشع – بهذا الدَّفع وبتلك المُجاهدة – لو استطاع – وهو في صلاته – أن لا ينال منه الشيطان فليفعل ولا يكون ذلك إلَّا إذا أقبل العبد بكلِّيَّته (بضمائره وظواهره وبواطنه) على مولاه ، فحصر قلبه في الصلاة ، بحيث يستشعر عبوديَّته لله – عز وجلَّ – ولا يُشغل قلبه بغير ذلك ، إلى أن يُخالط خشوعه لحمه ، ودمه ، ويظهر أثر ذلك على جميع جوارحه [١] ، فـ " يتمسَّك بآداب الصلاة ، كعدم الالتفات ، والعبث ، وسبق الإمام ، ووضع اليد على الخاصرة " [٢] ورفع البصر إلى السماء [٣] ، وغير ذلك من الحركات التي تُخِلَّ بالصلاة .

على أن لفظ (خاشعون) جاء على جمع السلامة ، دون جمع التكسير (خُشَّع) بالتضعيف ، وذلك لملحظ بياني ، حيث إنَّ الأوَّل أبلغ في الإبانة عن

---

(١) دلَّنا على ذلك ما جاء على لسان رسول الله ﷺ في أحاديث كثير منها :
أ- عن أبي هريرة – رضي الله عنه – كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إنِّي أعوذ بك من الأربع : (من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يُسمع) .
– سنن أبي داود جـ ٢ ، ص ٩٣ (كتاب الصلاة) – باب في الاستعاذة) الحديث رقم ١٥٤٨ .
ب – عن عليِّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : أبصر رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة ، فقال : (أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) – كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال .لـ (علي بن حسان الدين المتَّقي الهندي جـ ٨ ، ص ٣٢٩ (الحديث رقم ٢٢٥٣٠) – نشر مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٩ م .
ج- عن عليِّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا ركع قال : (اللهم لك ركعت ، ولك أسلمت وبك آمنت ، خشع لك سمعي ، وبصري ، وعظامي ، ومخِّي وعصبي) – سنن النسائي (المجلد الأول) جـ٢، ص ١٩٢ – (كتاب الافتتاح – باب : الذكر في الركوع) .
د- عن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : (مالي أراكم رافعي أيديكم كأنَّها أذناب خَيْل شُمْس ؟ اسكنوا في الصلاة . (صحيح مسلم .٧٢/٣ ، ٧٣ – كتاب : الصلاة – باب : الأمر بالسكون في الصلاة ، والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام) .
وبالتأمل في مجموع هذه الأحاديث نُلحظ : أنَّ الحديث الأول يتبيَّن لنا من خلاله أنَّ الخشوع مصدره ومنبعه القلب والثاني والثالث يُدلَّنا على إنَّ الخشوع في القلب يظهر أثره على الجوارح بعد مروره بالمخ والعظام والأعصاب متمثِّلة في أطناب المفاصل ، وفي الحديث الاخير دلالة على أنَّ من مظاهر الخشوع في الصلاة السكون وعدم الإشارة باليد فيها ، وهذا يعني إمساك الجوارح والأعضاء عن الحركات التي تُخِلُّ بالصلاة .
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين جـ ٣ ، ص ٩٣ ط/ دار إحياء الكتب العربية (عيسي البابي الحلبي) – غير مؤرخ .
(٣) ذلك على نحو ما مرَّ بيانه عند الحديث عن مناسبة نزول الآية الكريمة .

حقيقة الاتصاف بالخشوع المطلوب وكمال إيجاده في هؤلاء المؤمنين الثابتين على عقيدتهم ، حيث إنَّ تلك العقيدة تقتضي أن يكون خشوعهم فيه امتداد وسهولة ، وإنْ يكون على حقيقته الظاهرة والباطنة [١] على نحو ما سبق ذكره – منذ قليل – وبلا تكلُّف ، ذلك على اعتبار " أنَّ الخشوع روح الصلاة وسرِّها الذي شُرعت له " [٢] وهذا ما يُناسبه قوله (خاشعون) المبنيُّ على الامتداد والسُّهولة لا التَّكلُّف والتَّعمُّل .

أمَّا الثاني (خُشَّع) فإنَّه (لم يتناول إلَّا المعنى الظاهر[٣] [٤] "من الخشوع، والتَّكلُّف فيه ، يقول ابن منظور : " التَّخشُّع : تكلُّف الخشوع " [٥] ، وهذا يعني : أنَّه لو قيل (خُشَّعٌ) لكان المُراد هو صورة الخشوع لا حقيقته ، وعليه يكون المعنى هو الإخبار عن هؤلاء المؤمنين المفلحين أثناء صلاتهم بأنَّهم (خُشَّع بظواهرهم فقط) أي في البدن ، والصوت ، والبصر ، وذلك دون إعمال الخشوع في القلب ودواخل النفوس .

<u>أضف إلى ذلك</u> : أنَّ لفظة (خاشعون) جاءت متمكِّنة في سياقها خير تمكُّن ، حيث أدَّت المعنى المطلوب " بأرهف لفظ ، وأروع تعبير ، وأجمل

---

(١) وقد ورد في القرن الكريم (خاشع) بصيغة اسم الفاعل دالًّا على حقيقة الخشوع في صورتيه (الظاهرة والباطنة) وصفاً لحال الثابتين على عقيدتهم وإيمانهم من الأمة المؤمنة ، وذلك في قوله تعالى : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) – الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

(٢) .البرهان للزركشي جـ ٣ ص ٢٥١ .

(٣) وذلك على غرار ما جاء في قوله تعالى (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) – جزء من الآية رقم ٢٩ من سورة الفتح – فكل من لفظ (رُكعاً) ، و (سُجَّداً) واقع حالاً من مفعول (تراهم) أي تراهم حالة كونهم رُكَّعًا وسُجَّدًا، ورؤيتهم على هذه الحالة رؤية بصرية ، أي (رؤية عين ، ورؤية العين لا تتعلَّق إلَّا بالظاهر)) – السابق – ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في قوله تعالى (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) – الآية ٧ من سورة القمر – وواضح أنَّ قوله (خُشَّعًا) في الآية الكريمة يتعلق بالبصر ، ولا شك في أنه من الأعمال الظاهرة .

(٤) البرهان جـ ٣ ، ص ٢٥٠ .

(٥) لسان العرب جـ ٤ ، ص ١٠٠ (خشع)

إيقاع"[١]؛ لأنَّها ذات نغم صوتي ملتئم إيقاعها وجرسها مع فاصلة الآيــة قبلهــا ، تلك الفاصلة المبنِّية على النون التي قبلها حرف مد { قَدْ أَفْلَــحَ الْمُؤْمِنُــونَ}[٢] ؛ والمدّ في (خاشعون) هو المُناسب للمعني – على نحو ما ذكرت قبلاً – مــن أنَّ المُراد هو : التناهي في الخشوع ظاهراً وباطنــاً ، وأن يكــون ذلــك الخشــوع مصحوباً بالتَّذلُّل ، والسكون ، والتَّطامُن ، والاستكانة ، لا التَّكلُّف ، ولو وضع لفظ (خُشَّع) الدَّال على التَّكلُّف موضع (خاشعون) ، لفات المعنى – كما هو معلوم – و" لجارات على الموضع ، وفاتت المناسبة، وحسن الجوار " [٣] ؛ ومن ثم جئ بــ (خاشعون) الاكثر دلالة على المعنى ، وفي نفس الوقت ؛ لحسن الرَّصــف ، ولشدَّة " الالتئام ، والتناسق الَّصوْتي الذي لا يخفى آثره " [٤] فهو ضــرب مــن ضروب البلاغة [٥] ؛ لأنَّ القرآن الكريم كما يقول أستاذنا الدكتور أبــو موســي : " حين يُراعي الفاصلة ويبقي على تنغيمها ، إنما يحفظ وسيلة من أقوي وســائله في التأثير ؛ لأنَّ رنين الكلمات ، وجرسها ، وتوافق إيقاعاتها لغــة تتغلغــل فــي النفس ، والضمير ، وتسمو بالرُّوح إلى آفاق قدسية ، فتأخذها نشوة يحسِّها من يُرتِّل هذه الآيات ترتيلاً يتهدَّج فيه صوته ، ويتماوج مع ألحانها ، ثم ينتهي إلــى هذه الفواصل فيجد عندها القرار ..." [٦] .

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٢٧٨ .
(٢) الآية ١ من سورة المؤمنون
(٣)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العظيم المطعني جـــ ١ ، ص ٢٤٨ – نشر / مكتبة وهبة ط / أولي ١٤١٣ ه ، ١٩٩٢ م
(٤) السابق .
(٥) وقد نوَّه الرُّماني بذلك مشيراً إلى أن الفاصلة القرآنية ذات وظيفــة دلاليــة تــؤازر مهمتهــا الإيقاعية قائلاً : "... وفواصل القرآن كُلُّها بلاغة وحكمة ؛ لأنَّها طريق إلى إفهام المعاني التــي يُحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها " . ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٩٨ .
(٦) خصائص التراكيب ، ص ٢٨٧ .

وبذا يكون حسن النظم وإعجاز اللفظ مقتضياً كلمة (خاشعون) وإيثارها على (خُشَّع) ؛ إذ إنَّ الإحساس يزداد بجمال صيغة اسم الفاعل في هذا المقام .

هذا ، ولا يفوتني كذلك أن أشير إلى أنَّ هناك سرّاً عيجباً في إيثار اسم الفاعل (خاشعون) على (خاضعون) على الرَّغم من أنَّ بينهما تقارباً في الدَّلالة؛ حيث يُقال : " خضع لله خضوعاً واختضع " [١] وهذا السَّرُّ يتمثَّل في أنَّ الأول (خاشعون) : يعني : " التواضع لله بالقلب والجوارح " [٢] ، ولا يكون ذلك " إلَّا مع خوف القلب ، فيُقال : خَشَعَ قلبه " [٣] .

أمَّا الخضوع فهو " التطامن والتطأطؤ ، ولا يقتضي أن يكون معه خوف ، ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب [٤] فيُقال : (خضع قلبه) ، وقد يجوز أن يخضع يخضع الإنسان تكلُّفاً من غير أن يعتقد أنَّ المخضوع له فوقه ، ولا يكون الخضوع كذلك " [٥] .

ولمزيد من التوضيح أورد ما ذكرته (الدكتورة عائشة عبد الرحمن) مشيرةَ إلى السِّرِّ البياني في إيثار (خاشعون) على (خاضعون) ، إذ تقول : " ... كما يفترق الخشوع عن الخضوع ، بأننا لا نخشع إلَّا عن انفعال صادق بجلال من نخشع له .. كما أنَّ الخضوع قد يكون تكلُّفاً عن نفاق ، وخوف ، أو تقية ومداراة ، والعرب تقول : خشع قلبه ، ولا تقول خضع إلا تجوُّزاً .... وإذا خضع

---

(١) أساس البلاغة ص ١٦٦ (خضع) .
(٢) يُنظر : التعريفات للجرجاني – تحقيق / إبراهيم الإبياري ، ص ١٢٨ – ط / دار الريان للتراث – غير مؤرخة .
(٣) الفروق اللغوية ص ٢٠٦ .
(٤) وهذا يعني أنَّ الخضوع خاص بالبدن ، وعليه يكون (الخاضع هو : (المطأطئ رأسه وعنُقه ، ، وفي التنزيل (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) الآية ٤ من سورة الشعراء –) السابق .
(٥) السابق .

الصوتُ أو خضع الوجه أو البصر ، فإنَّما يكون ذلك من خشوع القلب ، ويتسق البيان القرآني في استعماله للخشوع .... فكُلُّ خشوع في القرآن إنما هو لله تعالى ، يأتي وصفاً ، أو بياناً لحال المؤمنين في هذه الحياة الدُّنيا مُطرداً بلا تخلُّف بصريح الآيات [١] " [٢] .

ولعلَّنا من خلال كُلَّ ما ذُكر يكون قد تجلَّي لنا السِّرُّ في إيثار (خاشعون) دون (خاضعون) ، وأنَّ البلاغة العالية أبت إلَّا اختيار الأولى ؛ باعتبارها أبلغ في اتصاف المُخبر عنهم بها ؛ وأنسب لطبيعة إيمانهم ، وتقواهم ، وشدَّة خشيتهم، وطاعتهم لله جلَّ جلاله .

ويبقي من التأمُّل في الآية الكريمة ما ورد عن متشابه النظم معها في سورة المعارج { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ } [٣] ، وقال تعالى هُنا : { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [٤] .

وإذا أردنا ان نتأمَّل الحكمة البالغة في التغاير بين هذه وتلك ، من حيث اختصاص آية (المؤمنون) بالخشوع ، وآية (المعارج) بالديمومة ، فلابد أن نرجع أوَّلاً إلى التَّفرقة بين قوله (خاشعون) ، وقوله (دائمون) من حيث المعنى ، إذ إنَّ الأول يعني – كما سبق – وصفهم بالإقبال على الله – عز وجل – في صلاتهم بـ " هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع "[٥] ،

---

(١) ثم ذكرت الآيات القرآنية الدَّالة على ذلك ، والتي أوردتها قبلا لبيان أنَّ خشوع المؤمنين لله – عز وجل – في هذه الحياة الدُّنيا لابد أن يكون في كُلَّ حال ، وعلي أيَّة حال ، في الصلاة ، وفي غيرها .

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

(٣) الآية ٢٣ من سورة المعارج .

(٤) الآية ٢ من سورة المؤمنون .

(٥) المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي– تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد، جـ ١ ، ص ١٣٧ ط / ١٣٧ ط / دار الكتب العلمية – بيروت – غير مؤرخة .

أمَّا المراد بقوله (دائمون) : دوامهم على الصلاة ، وذلك بألا يتركوها في وقت من الأوقات مهما كانت شواغلهم [١] .

وعليه فإنَّ المُراد بُكلٍّ واحدة من الآيتين المذكورتين غير المراد بالأخرى، فإحداهما تعني اتصاف المؤمنين في صلاتهم بالخشوع وبمعناه الواسع ، والثانية تعني اتصافهم بالدَّوام والمواظبة على الصلاة ، وكُلٌّ من الخشوع والديمومة المذكوريْن الأصل فيهما أن يكونا معاً من أوصاف المؤمنين ، وبخاصة في صلاتهم ؛ إذ إنَّ الخشوع صفة فيها ، والديمومة تقتضيها .

كما أننا إذا عرفنا أنَّ سورة (المؤمنون) سابقة في النزول على سورة (المعارج) [٢] أدركنا في تمثُّل معنى (خاشعون) أنَّ الصلاة لا يكفي فيها الخشوع فحسب ، ولكن أيضاً لابد من المداومة عليها فالذي يخشع في صلاته لابد أن يُداوم على صلاته كذلك ، فلا تعارض إذاً بطبيعة الحال بين أن يكون (المؤمنون في صلاتهم خاشعون) وبين أن يكونوا (على صلاتهم دائمون) ، فالصَّفتان إذاً مُتكاملتان ، وإن كان لكلٍّ منهم اتجاه في الدَّلالة (وهذا من بدائع التنسيق الفنَّى في القرآن الكريم) [٣] هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : أنَّ من يُنعم النَّظر في سياق كُلٍّ من الآيتين في سورتيهما يلحظ أنَّ ما ورد في كُلِّ سورة مناسب لسياقها ؛ إذ إنَّ ذِكْر (خاشعون) في آية (المؤمنون) ورد في سياق الإخبار عن المؤمنين بفلاحهم ، فهو يتَّسق مع ما تقدَّم في قوله تعالى :{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [٤] ؛ باعتبار أنَّ المُراد هو بيان

---

(١) ينظر : الكشاف جـ ٤ ، ص ٦٠٠ ، وحاشية الصاوي جـ ٤ ، ص ٢١٠ .
(٢) ينظر : البرهان للزركشي جـ ص ١٩٣ .
(٣) دراسات قرآنية ص ٢١٧ .
(٤) الآية ١ من سورة المؤمنون .

أنَّ الخشوع مدعاة للفلاح ، وغير الخاشعين لا فلاح لهم ، ذلك فضلاً عن الخشوع في الأصل مرتبط بالقلب ، كما أنَّ الإيمان كذلك .

أمّا آية المعارج ، فقد صُدرت بها عدَّةُ صفات تتَّسِم بها النفوس المؤمنة ، تلك الصَّفات جاءت مسبوقة بقوله تعالى : { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا }[١] ثم استثني من ذلك : { إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ } .... إلى قوله تعالى : {أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) [٢] ، وبالتأمُّل الدقيق نلحظ بين السَّابق والمسبوق صلةً وثيقة ، حيث إنَّ المُراد وهو بيان " أنَّ المُصلِّين بما واظبوا على صلواتهم ، وتعرضوا لنفحات ربهم ، وهم يُناجونه فيها استفادوا فرط ثقة به – سبحانه – ورضي بقضائه وعرفان أنَّ كَلَّ خير وشرّ بتقديره ، فلا يجزعون إذا مسَّهم الشرُّ، ولا يمنعون [٣] إذا مسَّهم الخير ، ومثلهم في ذلك المُزكون " [٤] ، وما تلاهم من أهل الصفات المذكورة بعد .

وهذا يعني أن الآية الكريمة كان لها دور بارز في سياقها الذي اقتضاها ، حيث إنَّ المقصود هو بيان أنَّ الدَّيمومة على الصلاة تُعتبر أفضل الوسائل وأنجحها للحدَّ من الجزع ، والهلع ، والبخل ، وأحد أسباب تظهير النفوس من ذلك ، ومن الشئ العجيب أنَّ هُناك تناسُباً آخر بين الديمومة ، وما يتنا في معها مِمَّا ذُكر ، من ناحية ارتباط كُلٍّ بالظاهر [٥] .

---

(١) الآيات (١٩ : ٢١) من سورة المعارج .
(٢) الآيات (٢٢ : ٣٥) من السورة نفسها .
(٣) أي لا يبخلون بالمال على مستحقيه ، وذلك في حالة ما إذا امتَّن الله عليهم بالخير من المال الوفير .
(٤) تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ٥٠ ط / مطابع الشعب – غير مؤرخة .
(٥) أقصد : أنَّ الهلع ، والجزع ، والمنع أشياء ظاهرية ، والديمومة على الصلاة والمواظبة عليها من الأشياء الظاهرة للعيان عند صدورها من المتصفين بها

وبذا يتضح لنا أنَّ كُلًّا من الوصفيْن (خاشعون) ، و (دائمون) يتناسب وموضعه الذي جاء فيه ، لارتباطه بما يقتضيه من المواقف والقضايا .

هذا ، ولمَّا وصف الله – عز وجل – عباده المؤمنين المفلحين بالخشوع في الصلاة ، أتبعه بوصفهم بالأعراض عن اللغو ، هذا الوصف الدَّال على غاية الصدق في الخشوع ، فقال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١) .

واللغو في اللغة : " السقط وما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره ، ولا يُحصل منه على فائدة ولا نفع " (٢) .

والمراد به في الآية الكريمة : كُلُّ ما يتضمَّنه هذا المعنى اللغوي مما هو باطل ولا يقبله الشَّرع الحنيف ، سواء أكان فعلاً ، أم قولاً ، أم كان من الأعراض القلبية كالحقد والبُغض والكراهية والحسد ، أم كان ناجماً عن العقل ، كالتفكير في الغش ، والخداع ، والتضليل ، وغير ذلك مِمَّا جال في الفكر أو الخاطر من " المعاني النفسية التي تنطوي عليها الصدور ، ويكون لها من الآثار في أصحابها ، أو في غيرهم ما يضعف حياتهم ، وينزل بكرامتهم ، ويُفسِد مجتمعهم " (٣) .

هذا ، وتصدير الآية الكريمة بالواو إنَّما كان على سبيل الوصل بينها ، وبين سابقتها ؛ لما بينهما من وشيجة بيِّنة ، ولُحمة ظاهرة ، وذلك من وجوه ثلاثة :

---

(١) الآية ٣ من سورة المؤمنون .
(٢) لسان العرب جـ ١٢ ، ص ٢٢٩ (لغا)
(٣) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) للشيخ شلتوت ص ٤١٧ .

الأوَّل : أنَّ المسند إليه وإن كان واحداً (المؤمنون المفلحون) فإنَّ المسند مختلف ، والمُناسبة واضحة بين الآيتين باعتبار أنَّ الحديث يتعلَّق بالصِّفات المتغايرة للمذكورين فالوصل ؛ للتوسط بين الكماليْن ، لتغاير الوصفيْن ، فالمؤمنون خاشعون في صلاتهم ، ومُعرِضون عن اللغو ، وفي ذلك إشارة قوية إلى ضرورة الجمع بين الصِّفتين بالنسبة لهم ، ذلك على اعتبار أنَّ من شأن المؤمن الصادق في إيمانه الخاشع في صلاته أن يكون عن اللغو معرضاً ، فهو يجمع بين السِّمتين معاً ؛ لأن الثانية مُتمَّمة للأولى ، ولا تنفك عنها ، فهما متلازمان ، إذ لامزيَّة لأحد الوصفين بدون الآخر ، وهذا يعني أنَّ الخاشع في صلاته إن لم يكن مُعرضاً عن اللغو ، فلا قيمة لخشوعه ، وكأن لم يكن ولا فائدة فيه ، كيف لا ؟ والخشوع في الصلاة لا يمكن اجتماعه مع اللغو ، فالأول شئ عظيم ، والآخر حقير ؛ لأنه من المنكرات ، والأوَّل مدعاة للإعراض عن الثاني ، حيث قال تعالى : { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [1] ، ولهذا كُلِّه جئ بالعطف بين الصفتين بالواو التي لو حُذِفت لذهب معنى ضرورة الجمع بينهما.

وفي تقديم صفة (الخشوع) إشارة إلى شَدِّة عظمها ، وقوَّة تأثيرها ؛ لأنها تستلزم الاتصاف بـ (الإعراض عن اللغو) ، كما أنَّ مجئ الثانية عقب الأول يتضمَّن تعريضاً بمن لا يعنيه أمر الأعراض عن اللغو ؛ إذ إنّ الكثرة الكاثرة من الناس ، وبخاصَّة في هذا الزمان – تدخل في صلاتها ، وبعد خروجها منها ، لا يُهِمُّها الأعراض المذكور ، فتُشغل نفوسها في سفاسف الأمور ، من لغو ، ولعب، ولهو ، وفضول في الأقوال في الأفعال ، وتفكير فيما يضر ولا ينفع ، فكُلُّ هذه الأمور مُجتمعه من دأب البشر وشنشنتهم في كُلِّ أمور حياتهم .

---

(١) جزء من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

ومن أجل كُلِّ ما ذُكِر جئ بصفة (الإعراض عن اللغو) عقب سابقتها (الخشوع في الصلاة) ، إذ إنَّ اللاحقة من متمَّمات السابقة وضروية لكمالها ، فالخشوع المذكور إصلاح بين المؤمن وخالقه ، والإعراض عن اللغو إصلاح ما بيْن المؤمن والمخلوقين ، وهذا الإعراض فيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه الخاشع في صلاته بعد خروجه منها ، فإذا كان يُقدَّر الله – عز وجل – حقَّ قدره في الصلاة ، فعليه أن يظلَّ على حالة تلك حتي بعد الصلاة ، فيُعرض عن اللغو ؛ لأن ذلك الإعراض نوع من أنواع الخشوع لله – تعالى – وإن دلَّ هذا فإنما يدُلُّ على عِظَم قدر الاتصاف به ؛ لشدَّة أهمَّيَّته .

الوجه الثاني : أنَّ عطف الثانية على الأولى بالواو فيه دلالة على أنَّ المؤمنين المفلحين من شأنهم أن يكونوا جديرين ببلوغ حدَّ الكمال والتمام في الاتصاف بِكُلِّ صفة من الصِّفتين المذكورتين على حِدة ، " وكذلك الحال فيما تلا هاتين الصفتين من الصِّفات الأُخرى " ، في قوله تعالى (فاعلون – حافظون – راعون – يحافظون) – على نحو ما سيأتي – لأنَّ كُلًّا منهم جزء من الإيمان، وأمارة قوية من أماراته .

ومثل هذا النوع من العطف للعلة المذكورة جارٍ على مذاهب العرب ، حيث يقول الإمام البقاعي ، مشيراً إلى ما ذكرتُ : "... من إفصاح العرب عطف الأوصاف المُتكاملة ، فيُقال : (فلان كريم وشجاع) ، إذا تمَّ فيه الوصفان ، فإذا نقصا عن التمام قيل : (كريم شجاع) بالإتباع " [(١)] .

الوجه الثالث : حسُن الجمع بين الوصفين بواو العطف ؛ باعتبارهما ضدَّين ، فبينهما طباق إيجاب معنوي ؛ حيث طابق بين (الخشوع) الذي هو فعل

(١) نظم الدُرر جـ ١ ، ص ٤٥٢ وذلك عند تناوله لقوله تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} – الآية ٢٣٨ من سورة البقرة .

وبين (الإعراض) الذي هو ترك [١] ، والعلَّة في ذلك على نحو ما قال به (الزمخشري) هي : أنَّه (لما وصفهم بالخشوع في الصلاة ، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقيْن على الأنفس اللذيْن هما قاعدة بناء التكليف [٢] " [٣] .

ولاشك في ان التضاد له أثره في أداء المعنى ، إذ إنَّ الضَّدَّ يُظهر حسنَةُ الضَّدِّ ؛ كما يقولون ، والتضاد بين الفعل والترك هُنا له دور بارز في توصيل المعنى إلى قلوب المُتلقين من خلال وضع أيديهم على صورتين متقابلتين ، وكل منهما مناف للأخري ، فـ (اللغو) – باعتباره رذيلة – يجب الإعراض عنه ، وعدم الانشغال به لبشاعته ؛ ولتنافيه مع (الخشوع في الصلاة) الذي هو فضيلة يجب القيام به ، ولكي يكون ذلك الخشوع تامَّاً فلابُد من الإعراض عن اللغو ، وكمال ملابسة هذا الإعراض بالخشوع في كُلِّ حال وفي كُلَّ مآل – على نحو ما ذكرتُ قبلاً ، وبخاصة في الصلاة التي يُقبل فيها العبد على ربِّه ، إذ إنَّ العبد قد يُشغِلُ قلبه فيها بذلك اللغو [٤] مما يجعله مقطوع الصِّلة الرُّوحية بربِّه ، ومن ثم يؤدِّى به ذلك إلى عدم الخشوع في الصلاة ، ومنه إلى عدم إتمامها ، والإخلال بها ، بل قل إلى إفسادها إن لم يُفكِّر العبد في ملاقاة ربِّه والرُّجوع إليه أثناء تلك

---

(١) وقد أشار إلى هذا ابن أبي الإصبع قال وهو بصدد حديثه عن طباق الإيجاب : " .... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} فجمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك ، إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة ؛ وترك اللغو ، وهذا كُلّه من طباق الإيجاب المعنوي) بديع القرآن ص ٣٣ ،

(٢) وهذا يعني أن كُلَّ ما يتعلَّق بأفعال المُكلَّفين في الشرع مبني على الأمر والنهَّي (افعل) ، و (لا تفعل) أي (الفعل ، والترك) ، فهما أساس التكليف بعد الإيمان بالله ربَّاً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

(٣) الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧١ .

(٤) ذلك على اعتبار أنَّ اللغو منه ما يتعلَّق بأعمال القلوب ، وتنطوي عليه الصدور ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك في بداية تناولي للآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها .

الصلاة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالي في شأن الصلاة : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }[١] .

ولقول النبي ﷺ فيما رواه (أبو داود) حيث ورد في سُننه : " عن عمَّار بن ياسر – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ : " إنَّ الرَّجل لينصرفُ وما كُتِب له إلَّا عُشر صلاته ، تُسْعُها ، ثُمنُها ، سُبُعُها ، سُدُسُها ، خُمسُها ، ربُعها ، ثُلُثُها ، نصفُها "[٢] .

وبهذا تتجلَّى لنا الحكمة من المطابقة المعنوية بين (الإعراض) الذي هو الترك ، وبين (الخشوع) الذى هو فعل ، ومن الرَّبط بينهما بـ (واو) العطف ، وتلك الحكمة تتمثل في أنَّ هُناك صلة وثيقة بين الصفتين ، وتلك الصلة كشفت عن السلوك الواجب اتِّباعه بالنسبة للخاشعين في صلاتهم ، حيث إنَّ ذلك الخشوع لابد أن يكون مقرونا بالإعراض عن كل ما يشوب سلوكهم كاللغو ؛ لأنَّ الأوَّل [٣] مقتض للثاني [٤] ، وقد جاء ذلك في عبارة محكمة كاشفة عن التمايز بين الصفتين المتضادتين المقرون بينهما بـ (واو) العطف ؛ لتوضيح المعنى وتجليته للسامعين ؛ حتى لا يقعوا فيما يفسد عقيدتهم من دنس الأقوال والأفعال والقلوب .

هذا ، والتعبير بـ (الذين هم) في الآية التى معنا ، على الرَّغم من ذكره أوَّلا في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [٥] ؛ إذ إنَّ سياق الكلام كان يقتضي أن يُقال : " قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم

(١) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) من سورة البقرة .
(٢) سنن أبي داود جـ ١ ، ص ٢٠٩ (كتاب : الصلاة ، باب : ما جاء في نقصان الصلاة) الحديث رقم ٧٩٦ .
(٣) أي : الخشوع .
(٤) أي : الإعراض .
(٥) الآية ١ من سورة المؤمنون .

خاشعون"[١]، وعن اللغو معرضون) بالاستغناء عن اسم الموصول ، والمسند إليه في الآية الثالثة ، وما تلاها من الآيات المتضمِّنة للصفات الأخرى [٢] ؛ ذلك اعتماداً على فهمها ؛ لأنَّ الحديث لا يزال مستمرَّاً عن (المؤمنين المُفلحين وصفاتهم) – أقول : وتكرار كُلَّ من اسم الموصول ، والمسند إليه متمثِّلاً في الضمير (هم) على الرَّغم من التصريح بهما أوَّلاً – إنما كان (لبيان مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمَّنته الصَّلات من صفات " [٣] ، وكأنَّ المُراد " أنَّ هذه الصَّفات لا تكون إلَّا لهم " [٤] ، ذلك بالإضافة إلى ما في التكرار المذكور من قَصْدٍ إلى زيادة تقرير المعنى وإيضاحه [٥] في نفوس المتلقِّين من باب إنَّ " الكلام إذا تكرَّر تقرَّر " [٦] ، وفي ذلك إشارة إلى الرَّغبة في بيان عُلُوِّ المُخبر عنهم ، والتنويه بهم ، والإشادة بذكرهم ، والتفخيم لهم ، عن طريق زيادة التقرير والإيضاح للدور الذي تقوم به هذه الثُّلَّة المؤمنة في تصرُّفاتها وسلوكيَّاتها ، إذ إنَّ هؤلاءِ المُفلحين بصفاتهم تلك جديرون بأن يكونوا ملء الأسماع ، والأبصار والقلوب لدي المُتقين [٧] .

---

(١) الآيتان (١ ، ٢) من نفس السورة .
(٢) أعني الآيات (٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩) . من السورة الكريمة .
(٣) تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ٥١ (في الحاشية) .
(٤) السابق .
(٥) والمعني المراد زيادة تقريره وإيضاحه هنا هو : ما ينبغي أن يتصف به المؤمن من أنواع القيم القيم والسلوك التي كشفت عنها الصَّفات المذكورة .
(٦) البرهاني للزركشي جـ ٣ ، ص ١٠ .
(٧) استظهرت هذا المعنى من خلال ما ذكره (أبن رشيق) تعليقاً على بعض أبيات لأبي الأسد ، كان قد كرَّر فيها اسم ما يقوم بمدحه ، وكان مما قاله (ابن رشيق) في ذلك : (..... فتكرير اسم الممدوح ههنا تنويه به ، وإشارة بذكره ، وتفخيم له في القلوب والأسماع)) العمدة في محاسن الشعر وآدابه – تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد جـ ٢ ، ص ٧٤ ط / دار الجيل ١٤٠١ه ، ١٩٨١ م .

أضف إلى ذلك ما في تكرار اسم الموصول وضمير المسند إليه من إشارة إلى استحقاق كُلِّ صفة للأصالة في نفسها .

فكُلٌّ هذا سوَّغ ذلك التكرار ، ودعا إليه (والله وأعلم) .

وإن دَلَّ هذا فإنَّما يدُل على أنَّ روعة التعبير القرآني اقتضت التكرار المذكور [١] ؛ لتحقيق غرض بلاغي وتناسق دلالي يوضَّح المعنى ويجليه ، عن طريق التمائل في النسق اللفظي ، حيث إنّه لمَّا قال تعالى مُخبراً عن المؤمنين المفلحين :

- الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .
- وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ .
- وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ .
- وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ... الخ .
- وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ .
- وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

أراد – سبحانه – أن المؤمنين المُخبر عنهم بالفلاح تتعلَّق نفوسهم بكل صفة من جميل الصِّفات ومحاسن الخلال التي حثَّ عليها الشرع الحنيف ، وأنَّهم معروفون بأعيانهم وذواتهم ، ومن أبرز مظاهرهم أنهم :

- هم الذين من صفاتهم أنَّهم في صلاتهم خاشعون .

---

(١) أي اقتضت تلك الرَّوْعه ورود (الذين هم) في مقدَّمة كُلِّ آية تضمَّنت صفة من الصِّفات الستِّت التي هي محل الدراسة ، يقول الإمام الشوكاني : " وكرَّر الموصولات ؛ للدلالة على أنَّ كُلَّ وصف من تلك الأوصاف لجلالته ، يستحق أن يستقل بموصوف متعدِّد ". فتح القدير جـ ٢ ، ص ٢٨٥ .

- وهم الذين من صفاتهم أنهم عن اللغو معرضون .
- وهم الذين من صفاتهم أنهم للزكاة فاعلون ... الخ

فهم معروفون موسومون بالخشوع في الصلاة ، وهم معرفون موسومون بأنهم عن اللغو معرضون ....أ ه . ذلك فضلاً عمَّا يفيده كُلٌّ من اسم الموصول والمسند إليه مقدَّماً من إثارة لنفوس السَّامعين وتشويقها وتهيئها لسماع ما يأتي بعد ليستقِرَّ فيها ويثبت ويتمكَّن فيها فضل تمكُّن ؛ وذلك لأنَّه من الأهمية بمكان[1]، وبخاصَّة إذا كانت السورة الكريمة من المكِّيات ، وكان من أهمَّ أهدافها ترسيخ العقيدة في نفوس المُتلقَّين من خلال بيان الأوصاف التي إذا اتصف بها المؤمن رفعه الله – عز وجل – وأكرَمَه .

وبذا يبرز لنا أنّ الإطناب بتكرار (الذين هم) ناسب نسق الآيات ، وأنَّ هذا الإطناب من البلاغة بمكان .

ومما يستوقفنا في الآية كذلك : تقديم الجار والمجرور (عن اللغو) على الخبر (معرضون) ؛ لأهمِّيَّة الأول في الجملة ، إذ إن ذلك التقديم يؤذن بأنَّ الموجب للأعراض هو (اللغو) ، لا غير ، فهو المقصود بالخبر ، وهذا يعني أنَّ ما جاء عليه النظم الكريم إنما كان ؛ لإفادة أن إعراض هؤلاء المفلحين لابد أن يكون مقصوراً على اللغو وفقط ، لا يتعدَّاه إلى غيره مِمَّا يُقرِّبهم إلى مولاهم من صالح الأفعال ، والأقوال ، والنيات الحسنة ، والأخلاق الفاضلة ، ذلك فضلاً عمَّا في ذلك التقديم من إشارة إلى أنَّ المُهم ليس هو الإعراض في ذاته ، إنَّما المُهِمُّ هو ان يكون ذلك الإعراض متعلَّقا باللغو الذي هو مصدره .

---

(١) وينظر ما ذكرته عن سرِّ التعريف باسم الموصول وصلته وما لذلك من دور بارز في توضيح المعنى ، وذلك عند تناولي لقوله تعالى: { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } في هذا البحث .

ولو جئ بالتعبير على النَّسق اللغوي المعروف بأنّ الخبر له الصدارة ، وقيل : (الذين هم مُعرضون عن اللغو) ما وقفنا على كُلِّ المعاني المتولَّدة عن التقديم ، ولتُوهَّم أنَّ المقصود بالاهتمام هو الإعراض في ذاته ، سواءُ أكان مُتعلَّقا باللغو ، أم بغيره ، ولكان مدحهم متضمِّناً أنَّهم يُعرضون عن اللغو ، وعن غير اللغو ، وليس هذا مُراداً ، إذ إنَّ الإعراض منه ما هو مقبول ، وذلك إذا كان عن اللغو ، ومنه ما هو مرفوض ، وذلك إذا كان عن غير اللغو كصالح الأعمال والأقوال ، والسلوكيات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، والتَّدبُّر والاعتبار وإجالة الفكر في آيات الله [١] – عز وجل – والنيات الطَّيبة المتعلِّقة بالقلوب ... الخ .

أضف إلى ذلك : أنَّ التقديم المذكور له دلالة بلاغية أخرى من ناحية أن المُتقدِّم (عن اللغو) حينما يطرق السَّمع يستحضر قوي النَّفس المؤمنة ؛ بإثارة انتباهها ، وتحريك هِمَّتها ، لتري ماذا تصنع ؟ وما هي الصَّفة المنوطة بهذه الحالة ، فإذا ما جاء الخبر (معْرِضون) قبِلَتْه قبول المُتهيِّ ، فتمكن فيها فضل تمكُن .

من أجل ذلك كُلَّه " اقتضى حسن النَّظم ، وإعجاز اللفظ تقديم الجار والمجرور ، وإن كان موضعه التأخير " [٢] .

وقد جاء (اللغو) مُعرَّفاً بـ (أل) الجنسية ؛ للدّلالة على أنَّ المقصود ليس نوعاً مُعيَّناً من اللغو ، وإنما يُراد به كُلُّ أجناس اللغو بدون تمييز ، ومن ذلك ما كان المشركون يتفوَّهون به عند معارضتهم القرآن الكريم ، على نحو ما حكي الله عنهم في قوله تعالى : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا

(١) وذلك لا على نحو الكثرة الكاثرة من الناس ، والتي حكي الله – عز وجل – في مثل قوله تعالى {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} – الآية رقم ٣٢ من سورة الأنبياء .
(٢) نتائج الفكر ، ص ٣١١ .

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[١] ؛ ولهذا جاء لفظ (اللغو) مطلقاً بلا تقييد ، فهو يشمل كُلَّ ضروب اللغو ، والعبث من قبائح فعلية أو قولية ، أو أيٍّ من أمراض القلوب ، كالحقد ، والحسد ، والبغض ، والكراهية ، وما شابه ، ويشمل كذلك كُلَّ العادات السيئة والسَّلْبيات المقيتة ، من غش في المعاملات ، ونميمة وغيبة ، وشهادة زور، ورشوة، وتعالى على خلق الله – عز وجل – وزهو ، وافتخار ، وسرقة ونهب أموال ، وقتل للنفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق ، وقذف ، وزنا ، وأكل للرِّبا ، وكذب ، وتدليس ، وعدم حفظ الفروج ، وطعن في الأعراض ، أو في الأنساب ، وتنابز بالألقاب ، والانغماس في اللذَّات والشهوات، والنكوص عن الحق، والفخر بالأحساب والأنساب ، وعدم الدفاع عن العدل والخير ، والزيف ، والباطل ، والانتهازية ، وعدم الضرب على أيد العابثين بمقدَّرات الشعوب من قبل المُختصين ، وظلم الإنسان لنفسه ، أو لغيره ، بأيَّ نوع من أنواع الظلم ، والإيذاء ، فعلاً ، أو تركاً ، قولا ، أو فعلاً ، أو همَّا بالنفس ، أو عزماً بالإرادة ، في أي زمان ، أو في أيِّ مكان .

وبالجملة ، فإنَّ اللغو – في الآية الكريمة – يُراد به كُلُّ ما يناقض العقيدة، والسلوك الأخلاقي ، والمُثُل العُليا ، والقيم الإنسانية ، وما يتنافي والعقول النَّيِّرة ، والفطر السليمة ، ومن ثم فقد جاء لفظ (اللغو) مُعرَّفاً بـ (ال) الجنسية المفيدة للاستغراق .

ولمَّا كان الأصل في النفوس الخاشعة لله – عز وجل – هو النُّفرة من هذا اللغو ، وعدم قبولها به ؛ لبشاعته جاء مدحهم بوسمهم بأنهم (عنَّ اللغو مُعرِضون) ، وفي إيثار اسم الفاعل (معُرضون) دون غيره من نحو (لاهون) أبلغية ؛ لأن الأول (معرضون) أبلغ في الدلالة على المُراد من الثاني (لاهون)،

(١) الآية ٢٦ من سورة فصِّلت .

إذ إنَّ الصيغة القرآنية بمدلولها اللغوي لا تفيد إعراضهم عن اللغو ، ومجانبته إياه ، فحسْب ، وإنّما أيضاً تدُل بالطريق البرهاني على أنَّ العلَّة في ذلك الإعراض، وتلك المُجانبة هي نَفْرة نفوسهم منه ؛ لأنها تأنفه ، ومن ثم فهي تُنحِّيه جانباً ، ولا تقترب منه ألبتَّة [١] لا بالقلب ولا بالجوارح [٢] ، وتلك المُجانبة، تكون في أي زمان وفي كُلَّ مكان دون الارتباط بُعمُر معيَّن ، وأنَّ هؤلاء المؤمنين في حالة تبرؤهم من هذا اللغو بالإعراض والابتعاد عنه يُشغلون قلوبهم، وعقولهم بالأعمال الصالحة التي تستغرق كُلَّ أفكارهم [٣] ، حتي يتم (تجنّبهم له ، وعدم التفاتهم إليه) [٤] ، بكلّيتهم (بظواهرهم وبواطنهم وبضمائرهم) .

أمَّا (لاهون) فمدلولها لا يفي بالمُراد من الإعراض المذكور ؛ لأنَّ اللَّهو على نحو ما قال به الرَّاغب هو:"ما يشْغِلُ الإنسان عمَّا يعنيه ويَهمُّه ، يُقال : ألهاه كذا أي شغله عمَّا هو أهم إليه" [٥] .

---

(١) يدُلّنا على ذلك أنَّ الإعراض في أصله اللغوي هو : (الصَّدُّ عن الشئ ، وعدم الإقبال عليه بالتولية عنه ، وتنحيته جانباً ، وذلك بجعله في ناحية) يقول ابن منظور : ... (عَارَضَ الشَّئَ بالشئ قابله ... عارَضَتْ : أخَذْت في عُرْض أي ناحية منه .... أعرَضَ عن الشئ إذا ولّاه ظهره .... وعُرْض الشئ : وَسَطُهُ وناحيته ... يُقال : أعْرَض لك الظّبي فارمه أي ولّاك عُرْضَه أي ناحيته ... وقد عَرَض عارضٌ : أي حال حائل ومَنَعَ مانع ... والإعراض عن الشَّئ : الصَّدُّ عنه ، وأعرض عنه : صَدَّ ... ويُقال : أعْرَضَ فُلان أي ذهب عرضاً وطولاً ... عارضه أي جانبه وعَدَلَ عنه ...) – لسان العرب جـ ٩ ، ص ١٣٨ : ١٥٢ ، وينظر : من هدى القرآن الكريم – تفسير بلاغي لسورة (المؤمنون) – للدكتور / بسيوني عبد الفتاح فيود ، ص ٢١ – ط مطبعة السعادة – أولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م .

(٢) إذ إنَّه من المعلوم أنَّ الإعراض عن اللغو لابد أن يكون بالنفس وبالقلب ، وبالجوارح .

(٣) وذلك بدليل قوله تعالى في شأن المؤمنين { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} – الآية ٥٥ من سورة القصص ، والمُراد باللغو في الآية الكريمة : " ما لا ينفع في دين ولا دنيا من شتم ، وتكذيب ، وتعبير ، ونحوه " . نظم الدُرر جـ ٥ ، ص ٥٠١ ، ويُفهم من الآية الكريمة أنهم إذا سمعوا غير اللغو ، فإنَّهم لم يُعرضوا عنه ، ولكنهم ينشغلون به عن اللغو .

(٤) فتح القدير للشوكاني – تحقيق / سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران ، جـ ٣ ،ص ٦٧٠ – ط/ دار الحديث – القاهرة ط أولي ١٤١٣ه ، ١٩٩٣م .

(٥) المفردات جـ ٢ ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ (لهي) .

واستأنس الرَّاغب لما ذكر بقوله تعالى : {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}[١]،

وبقوله سبحانه { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ}[٢] ، وبقوله جل شأنه { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}[٣] .

ويقول أبو هلال : ".. يقال : لهيت عنه إذا تركته سهواً أو تشاغلاً ... وقول صاحب الفصيح : لهيت عن الشئ إذا تركته غلط ..." [٤] .

ويُفهم مِمَّا ذُكر : أنه لو جاء التعبير بـ (لاهون) لكان المعنى : أنَّ اللَّغو امر من الأمور المهمَّة التي يجب أن يُعني ويهُتمَّ بها ؛ لشدَّة نفعه ، ولكن الطائعين من المؤمنين ينشغلون عنه بلهوهم فيما لا يجدي ، ولا ينفع ، أو يتركونه سهوا عنه .

ولكن لمَّا كان الأمر ليس كذلك ، وكان اللغو في حدَّ ذاته ممقوتاً لدي الخُلَّص من المؤمنين ، ومن شأنهم التخلَّى عنه بالإعراض ، والانشغال بما يُقربهم من مولاهم من سائر الطاعات لا بما يُتلهَّى به مما هو لا يجُدي ولا ينفع ، وإلَّا فإن هذا التَّلهَّى من أجناس اللغو – أقول لمَّا كان الأمر ليس كذلك – كان قوله (مُعرضون) هو الأنسب والأبلغ فى الدَّلالة على مدح المؤمنين في طريقة تعاملهم مع اللغو ؛ ذلك على اعتبار أنَّ اللهو ليس من شأن المؤمنين ، فهم لا يُضيَّعون أوقاتهم فيما لا يفيد ، من الأمور غير المُهمة التي لا جدَّ فيها كاللغو ، ومن ثم فقد مَدَح الله – عز وجل – عبادَه الطائعين نافياً عنهم اللهو) فقال تعالى:

---

(١) جزء من الآية رقم ٣٦ من سورة (محمد) ﷺ .
(٢) جزء من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية رقم ١ من سورة التكاثر .
(٤) الفروق اللغوية ص ٩١ .

{يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ [١] تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}[٢]، وقال سبحانه مخاطباً عبادة المؤمنين مُحذِّراً إياهم من اللهو { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [٣]

وفي آيات أخرى يُبيّن لنا الحقُّ تبارك وتعالي أنَّ اللهو في الأصل هو ديدنُ أعداء الدِّين ، ومن ذلك قوله :{ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}[٤] وقوله سبحانه : { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}[٥] .

فكلمة (لاهون) إذاً – على نحو ما رأينا – لا تصلُح أن تقوم مقام اللفظة القرآنية المستعملة في آيتنا (مُعرضون) ، ولا ترقى إلى منزلتها ، فليست أهلاً لأن تقوم بالمُهمة التي قامت بها المفردة القرآنية المذكورة ؛ لأنَّ الأولى لا تُستخدم فيما هو جدٌّ ، وإنما تُستخدم فيما هو حقير وشرٌّ مستطير ، وفي وضيع الأعمال ، ولمَّا كان الأمر كذلك ، وكان المُخبر عنهم بالفلاح ليسوا أهلاً للوصف بها أوثرت لفظة (مُعرضون) عليها .

---

(١) لا تُلهيهم : لا تُشغلهم ، وليس معنى هذا أنَّ التجارة ، والبيع ليسوا من الأمور المُهمة بالنسبة لمن يشتغل فيهما ، ولكن المُهم هم أن لا ينشغل بهما عن ذكر الله عز وجل ، وطاعته وعبادته يدُلّنا على ذلك قوله تعالي :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَو لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} من (٩ : ١١) من سورة الجمعة .

(٢) الآيتان (٣٦ ، ٣٧) من سورة النور .

(٣) الآية ٩ من سورة المنافقون .

(٤) جزء من الآية ٧٠ من سورة الأنعام .

(٥) الآيتان (٢،٣) من سورة الأنبياء .

وهذا ، وقد يسأل سائل فيقول : هلَّا قيل : (عن اللغو يكفُّون) ، أو (يحجمون) بدلاً من (معرضون) ، أو قيل (الذين هم للغو تاركون) ؟

والجواب : أنَّ اللفظة القرآنية (مُعرضون) أولي بالاصطفاء وأعلي إبلاغاً في مدح المفلحين على طريقتهم في التَّخلِّي عن اللغو مّمَّا ذُكِر ؛ لأنه لو قيل مثلاً: (عن اللغو يكفون) أو (يحجمون) ، أو (الذين هم للغو تاركون) ؛ لتُوهَّم أنَّ المُراد أنَّ الممدوحين يكفُّون ، أو يحجمون عن اللغو ، أو يتركونه ، وينصرفون عنه بعد أخذ حظِّهم منه ، وسَبْق فعلهم له ، لكن (معرضون) فيه إشارة إلى عدم وقوعهم في اللغو من أصله ، وإلي دوام إعراضهم عنه ، واتصال هذا الإعراض بلا انقطاع ، ولا شك في أنَّ هذا هو الأنسب لمدحهم ، لأنَّ المرء قد يكفُّ عن الشئ، أو يحجم عنه، أو يتركه ، وهو على مقربة منه ، وذلك بعد أن كان قد تلبَّس به ، ومن ثم فقد يبقي المرء مُصرَّاً على عدم التَّنحي عن هذا الشئ إلى أن يتلبَّس به مرَّةً أخرى ؛ لقُرْبه منه ، بينما الإعراض يعني التخلِّي عن هذا الشيء بالكلية ، وأن تكون هناك مفاصلة بعيدة الشُّقَّة ؛ إذ يكون كُلُّ من المُتخلِّي والمُتخلَّي عنه في جانب [١] ؛ حتي لا يتلبس الأول بالثاني ، وهذا ما أشار إليه الآلوسي بقوله : " وإقامة الإعراض مقام التَّرك ؛ ليدُلَّ على تباعدهم عنه رأساً مباشرة ، وتسبُّباً وميلاً وحضوراً ؛ فإن أصله أن يكون في عرض أي ناحية غير عرضه " [٢] .

ذلك فضلاً عمَّا في التعبير بالاسم (معرضون) من دلاله على الثبوت والدوام ، بينما (يكفون) ، و (يحجمون) كُلٌّ منهما فعل يُفيد التَّجدُّد والحدوث ، وهذا يعني أنَّ من يكُفُّ عن شئ أو يحُجم عنه قد يعود إليه مرَّة أخرى .

---

(١) يُنظر : صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم للدكتور / محمود توفيق محمد سعد ، ص ١٠٠ ، ط / مطبعة الأمانة – أولي ١٤١٣ ه / ١٩٩٣ م .
(٢) روح المعاني جـ ١٧ ، ص ٧ .

يقول أبو هلال :"... فالكفُّ عن الفعل هو الامتناع عن موالاة الفعل ، وإيجاده حالاً بعد حال "[١] .

ويقول مشيراً إلى " الفرق بين الكف والإحجام أنَّ الإحجام هو الكفُّ عمَّا يسبق فعله خاصة [٢] " [٣] .

ومثل هذا يُقال : في أنَّه لو قيل (والذين هم لا يلغون) ، لكان المُراد هو: أن ترك اللغو فعل من أفعال هؤلاء الموصوفين ، وليس وصفاً ثابتاً لهم ، بل إن من شأنهم ترك اللغو حيناً والمعاودة إليه مرَّة أخرى ، وذلك لأن الفعل المنفي (لا يلغون) فيه دلالة على التجدُّد والحدوث .

ولاشك ، في أنَّ قوله (معرِضون) أبلغ لما فيه من دلالة على ثبوتية الوصف بالإعراض عن اللغو ، فضلاً عمَّا في إدخال حرف المجاوزة (عن) في الكلام " عن اللغو " [٤] ، من إيذان بمعني خروج الموصوفين عن اللغو ألبتَّة ، لأن (عن) " تقتضي مجاوزة ما أضيف إليه نحو غيره " [٥] ، وهذا يعني أنَّ المُخبر عنهم بعدُوا عن اللغو وتجاوزوه ، ولا يكون ذلك البعد والتجاوز إلَّا بالإعراض عنه ، ومن ثم كان التعبير عنهم بالوصف (مُعرضون) ، وهذا الوصف يتناسب وصيغة اسم الفاعل في الآية الأولى المصدَّر بها السورة الكريمة { قَدْ

(١) الفروق اللغوية ص ٩١ .
(٢) في لسان العرب : " الإحجام ضد الإقدام ، أحجم عن الأمر : كفَّ أو نكَصَ هيْبة ... يُقال : أحجم الرَّجُل عن قِرْنِه ، وأحجم إذا جبُن لفَّ " جـ ٣ ، ص ٦٧ (حجم) .
(٣) الفروق اللغوية ص ٢ .
(٤) حيث إنَّ الصيغة البديلة (والذين هم لا يلغون) تخلو من الحرف المذكور .
(٥) البرهان للزركشي جـ ٤ ، ص ٢٨٦ .

أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [١] ، ولا يخفى ما في دلالة الاسم المذكور عي ثبوت الوصف بالإيمان لهؤلاء المفلحين ، ذلكم الثبوت الذي يتناسب معه (مُعرِضون) وليس (لا يلغون) ، وغيرها من الصيغ البديلة على نحو ما سبق ذكره ، ممَّا يدُلُّ على دقة استخدام (معرضون) في سياقها ؛ لاقتضاء حسن النظم لها ، على نحو ما رأينا .

هذا ، وبعد ذلك تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى الكشف عن وصف آخر من الأوصاف المرتبط بها فلاح المؤمنين ذلكم الوصف هو (فعل الزكاة) فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [٢] .

والزكاة في أصل وضعها اللغوي هي : الطهارة والنَّماء والبركة والمدح ، يُقال : زكا الزَّرع يزكو إذا حصل منه نُمُوٌّ وبركة ، وزكَّي الرَّجل ماله تزكيةً : أدَّي زكاته ؛ لأنه يُنمِّيه بما يُبارك الله له فيه ، ومنه الزكاة لما يُخرجُ الإنسان من حقِّ الله تبارك وتعالي إلى الفُقراء ، وتسميته بذلك ؛ لما يكون فيها من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس ، أي تنميتها بالخيرات والبركات ، أوْلهُما جميعاً ؛ فإن الخيريْن موجوديْن فيهما [٣] ، حيث قال تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}[٤] .

والزكاة أيضاً : الصلاح يُقال : رجُلٌ تقيٌّ زكىٌ أي زاكٍ من قوم أتقياء أزكياء [٥] ، وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدُّنيا الأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الأجر والمثوبة [٦] .

---

(١) الآية ١ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ٤ من سورة المؤمنون .
(٣) ينظر : المفردات للراغب جـ ١ ، ص ٢٨٢ ، ولسان العرب جـ ٦ ، ص ٦٥ زكا .
(٤) جزء من الآية رقم ١٠٣ من سورة التوبة .
(٥) ينظر : لسان العرب جـ ٦ ، ص ٦٤ .
(٦) ينظر : المفردات جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

ومن خلال ما ذُكر يمكن القول بأنَّ الزكاة في اللغة ، تطلق ويُراد بها أحد معنيين :

الأول : الزكاة الواجبة ، أي القدر الواجب إخراجه من حقِّ الله – عز وجل – في الأموال والزروع إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين.

المعنى الثاني : زكاة النفس عن طريق تحليها بالفضائل وتطهيرها مما يشوبها من المعاصي والآثام ، فضلاً عن الشرك ، وسوء الاعتقاد [١] ، ذلك اعتبار أنَّ تزكية النفس مطلب شرعي ترقي به إلى مقام العبودية ، ومن ثم فهي تطلق على كل فعل محمود مرضي [٢] .

على أنَّ من العلماء [٣] من ذهب إلى أنَّ المُراد بـــ (الزكاة) في الآيــة الكريمة هو المعنى الأول [٤] ، وآخرون على أنَّ المقصود هو المعنى الثــاني [٥] ،

---

(١) وذلك على غرار لفظ (تزكَّي) الوارد في قوله تعالى لسان سيدنا موسي – عليــه الســلام – مخاطباً فرعون بقوله : {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}جزء من الآية رقم ١٨ من ســورة النازعــات – يقول الإمام البقاعي حوص هذه الآية :" أي تتحلَّي بالفضائل، وتتطهَّر من الرذائل ، ولو بــأدني أنواع التزكِّي : الطهارة الظاهرة والباطنة الموجبة للنماء والكثرة ...وذلك بالإذعان المقتضــي للإيمان ..." . نظم الدرر جـــ ٥ ، ص ٣١٤ .

(٢) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـــ ٣ ، ص ٢٣٩٤ .

(٣) ومن بين هؤلاء : الطبري ، وأبو إسحاق النبسابوري ، والزمخشري ، وابن جــزي الكلبــي ، والقاسمي (ينظر : جامع البيان عن تأويل أي القرآن جـــ ١٩ ، ص ١٠ ، والكشف والبيان عن تفسير القرآن – تحقيق / الإمام أبي محمد بن عاشور ج ٧ ، ص ٣٩ – نشر / دار إحيــاء التراث العربي – بيروت لبنان – ط / أولي ١٤٢٢ه ، ٢٠٠٢م ، والكشاف جـــ ٣ ، ص ١٧٢، والتسهيل لعلوم التنزيل جـــ ٢ ، ص ٢٣١ ، ومحاسن التأويل ج ١٢ ، ص ٤٣٨٧ .

(٤) وهو : أنَّ المراد بالزكاة في الآية الكريمة : زكاة الأموال ، وذلك لأنَّ أصحاب هــذا المــذهب يرون أنّ الزكاة أختُصَّت في الشرع بالمعني المذكور ، ولا حاجة إلي القول بغير ذلك بحجَّــة أن السورة مكية ، والزكاة فرضت بالمدينة ، وقالوا : أن أصل الزكاة فرضت بمكة قبل الهجــرة ، وأمَّا الزكاة التي فُرضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصب ، والمقادير الخاصة ، واســتدلَّ هــؤلاء على ما ذهبوا إليه بأنّ الله عز وجل – قال سورة الأنعام – وهي مكية – {وَآتُــوا حَقَّــهُ يَــوْمَ حَصَادِهِ} – جزء من الآية رقم ١٤١ – ينظر : تفسير ابن كثير جـــ ٣ ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ – نشر / مكتبة التراث الإسلامي ١٤٠٠ه ، ١٩٨٠م ، ومحاسن التأويل جـ ١٢ ، ص ٤٣٨٧ .

(٥) وحجَّة أصحاب هذا الرأي تتمثَّل في أنَّ الله عز وجل قال مخبراً عن النفس الإنسانية : {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} – الآيــات (٨ : ١٠) مــن سورة الشمس – وينظر : تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢٣٩ ، وينظر أيضاً : إعراب القــرآن المنسوب للزجاج – تحقيق / إبراهيم الإبيــاري جـــ ٣ ، ص ٨٦٤ – نشــر / دار الكتــاب المصري – القاهرة ط / ثانية ١٤٠٢ ه / ١٩٨٢م .

وفريق ثالث يرى أنَّ المعنيين مرادان معا ؛ باعتبارهما " من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا، وهذا، والله أعلم"[١] ، ولكل أدلَّته .

والذي يطمئن إليه القلب والعقل أنَّ كُلَّ ما سبق ذكره على لسان العلماء من المراد بالزكاة في الآية الكريمة معتبر وصحيح ، أو محتمل للصَّحة ، أعني أنَّنا لو قلنا : إنَّ المراد بلفظ (الزكاة) : الزكاة المفروضة أصبنا ؛ لأنَّها والحالة هذه تكون تطهيراً للمال وتنميةً له ، وفي نفس الوقت تتضمَّن تزكية للنفس البشرية المُزكِّية من أدران الشُّحِّ ودنس البُخل ، ولو قلنا : إنَّ المُراد باللفظ المذكور تزكية النفوس من الشرك والمعاصي أصبنا ، ولا مانع كذلك أن يُقال : إنَّ المعنيين مرادان معاً ، لعموم الآية الكريمة ؛ إذ لا قرينة دالَّه على إرادة واحد منهما بعينه [٢] ، ومن ثم كان كُلٍّ من المعنيين صالح للفهم والاعتقاد ؛باعتبار أن لفظة (الزكاة) تجمع المعنيين معاً ، ويمكن حملها عليهما ، فكلاهما مطلوب ممن أراد الفلاح ومن ثمَّ فلا تنافي بينهما ، وبخاصة إذا كانت لفظة (الزكاة) من قبيل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢٣٩ ، وينظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن للشنقيطي جـ ٥ ، ص ٣٠٧ – نشر / دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ١٤١٥ ه ، ١٩٩٥ م .

(٢) ولو قيل : إنَّ القرينة الدَّالة على أنَّ المراد بلفظ (الزكاة) هُنا زكاة النفس بالفضائل ومكارم الأخلاق ، لا زكاة المال ، تلك القرينة هي : أن السورة مكية ، وزكاة المال إنما فرضت بالمدينة ، لقيل في الجواب على من قال بذلك : أنَّ أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة بدليل أنَّ سورة المعارج ؛ وهي من المكيات ورد فيها ما يدُلُّ على ان الله عز وجل أوجب حقاً معلوماً في المال لمستحقيه ، ولك في قوله تعالى {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} – الآيتان (٢٤ ، ٢٥) من سورة المعارج – وكذلك في سورة الأنعام – وهي مكية أيضاً – أمر الله عز وجل – بإيتاء القدر الواجب إخراجه من الزروع للفقير فقال تعالى : {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} – جزء من الآية ١٤١ من سورة الأنعام – ولو قيل : (إنَّ هُناك قرينة أخرى وهي : أن زكاة المال يعبَّر عن أدائها بالإيتاء كقوله تعالى : {وَآتَوُا الزَّكَاةَ} وهنا عبَّر بقوله تعالى (فاعلون) ، لقيل في الجواب عن ذلك : لقد عُبِّر عن التأدية بالفعل ؛ لأنها فعل ، فالمُراد بالفعل هُنا هو الإيتاء ، أو على أنَّ التقدير : (والذين هم لأداء الزكاة فاعلون) . ينظر : الكشاف جـ ٣ ص ١٧٢ ، والبحر المحيط جـ ٧ ، ص ٥٤٧ ، ومجمع البيان للطبرسي جـ ٧ ص ١٤٠ منشورات محمد على بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م ، والتحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٢ ، وغرائب القرآن للنيسابوري ج ٣ ص ٣٩٤ .

المشترك اللفظي ، كلفظ (القـرء) الموضـوع للحـيض ، وكلفـظ (المـولى) لـ (السيد) و(العبد) [١] .

وبذا تكون كلمة (الزكاة) في الآية الكريمة أدَّت معنـى وافـراً ثريَّـاً ؛ باعتبارها متعدَّدة المعاني ، فهي بمعناها الواسع تطلق علـى تزكيـة النفـوس ، وكذلك على الزكاة المعهودة ، يؤازر ذلك ويقويه مجئ الخبر (فـاعلون) علـى إطلاقه ، ودون تحديد ؛ ليصدُق على كُلِّ ما يجب فعله من ضروب الزكاة المؤدَّية إلى تزكية النفوس [٢] .

هذا ، ولنا نتأمَّل حكمة القرآن وجلالته في مجئ وصف المفلحـين بفعـل الزكاة عقب وصفهم بالإعراض عن اللغو مسبوقاً بوصفهم بالخشوع في الصلاة ، على الرَّغم من أنَّ الزكاة في القرآن الكريم عادة ما تكون مقرونة بالصـلاة بـلا فاصل بينهما [٣] ، إذ إنَّ الحكمة في المجئ المذكور ترجع إلى سببين :

الأول : الدَّلالة على انَّ الإعراض عن اللغو من مُتمَّمات الخشوع ، فلكي يكون المرء جاداً في أمر دينه ، لابد أن يكون خشوعه مشوباً ومتبوعاً بالإعراض

---

(١) ينظر : البرهان في أصول الفقه للإمام الجوينى – تحقيق / عبد العظيم محمود الديب ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ – ط دار الوفاء للطباعة والنشر – المنصورة – ثانية ١٤١٨ ه / ١٩٩٧م ، وينظر : أصول التشريع الإسلامي – للأستاذ / على حسب الله ، ٢٨٧ : ٢٩٠ – ط دار الفكر العربي – سادسة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

(٢)ومما يؤيد ذلك أيضاً ما ورد ذكره في قلب السورة الكريمة مما يتعلق بالهدي الباطن لمجتمـع المؤمنين الذين يُسارعون إلى فعل الخيرات من خشيتهم لله – عز وجل – وشعورهم بمراقبته – سبحانه – والالتزام بتكاليفهم الشرعية والمنوطة بهم – وذلك حينما قال الله عز وجل في حقِّهم (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُـمْ بِـرَبِّهِمْ لَـا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِـكَ يُسَـارِعُونَ فِـي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) – الآيات (٥٧ : ٦١) من سورة المؤمنون .

(٣) وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى : { وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} ، ومثل ذلك كثيـر فـي القرآن الكريم جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة ، وقوله سبحانه : { وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة } من الآية ٢٧٧ من السورة نفسها ، وقوله جل شأنه : { وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } من الآية ٤٣ من سورة البقرة ، ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم .

عن اللغو ؛ إذ إنَّ الأول عماد الثاني ، باعتبار أنَّ الصلاة من شأنها النهي عن المنكر ، والذي هو لغو في حدِّ ذاته ؛ ذلك على نحو ما مرَّ بيانه .

السبب الثاني : هو أن الإعراض عن اللغو هو عماد تزكية النفوس [١] ، عمَّا يخالجها من أدران الشُّح والبُخل ، أو من دنس الشرك والمعاصي ، إذ إنَّه لا سبيل إلى التَّحلِّي بالتزكية المذكورة إلا بمجاهدة النفس والشيطان والهوي ، ولا تكون تلك المُجاهدة إلَّا بالإعراض عن اللغو والتَّخلِّي عنه أوَّلاً [٢] ، وبذا تتوافر أسباب التزكية ، ودواعيها [٣] ، ومن ثم يكون تقديم الوصف بالإعراض عن اللغو على الوصف بفعل الزكاة ، من باب وجوب تقديم التَّخلية على التَّحلية [٤] ، وهذا سرٌّ من أسرار الرَّبط بين الوصفين بالواو { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [٥] ، فالواو دخلت للرَّبط بين السَّبب ومُسببَّه ، وللدَّلالة على أنهما حقيقتان متلازمتان ، ولا تُغني إحداهما عن الأخرى ، وإن كانت كُلٌّ صفة من الصفتين المذكورتين تقتضي فائدة تغاير الفائدة المترتبة على الصِّفة الأخرى .

هذا ، ولا يخفى ما في تصدير الآية باسم الموصول (الذين) ، والضمير (هم) من دلالة على تعيين لذات المُسمَّى التابع للوصف ، فهم مؤمنون

---

(١) ولا يتعارض هذا مع النهي عن تزكية النفوس ، والمشار إليه في مثل قوله تعالى :{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} – جزء من الآية رقم ٣٢ من سورة النجم – لأنَّ المقصود بمثل هذا النهي ، هو عدم التمدُّح بالثناء على النفس ، بنسبتها إلى زكاء العمل ، وزيادة الخير ، وعمل الطاعات ، أو على الزكاء والطهارة من المعاصي ، على سبيل الإعجاب والرياء ... الخ . ، ينظر : الكشاف جـ ٤ ، ص ٤١٥ .

(٢) ذلك لأن الالتزام بالصِّفة (الإعراض عن اللغو) يرقي بالمؤمن ، ويسمو به إلى الرُّقي والفضائل .

(٣) وهذا يعني أنَّ كُلَّاً من الخشوع في الصلاة ، والأعراض عن اللغو عن وسيلة من وسائل تزكية النفوس ، وأنَّ تلك التزكية لا تتم إلَّا بهما ، فهي لا تكون صادرة إلَّا عن قوم مؤمنين خاشعين في صلاتهم ، معرضين عن اللغو.

(٤) إنما كان ذلك الوجوب بناءً على أن (اللغو) ظُلْمٌ ، والظُّلْم لابد أن يتخلَّي عنه المرء قبل أن يتحلَّي بالطاعات التي تزكو بها النفوس ، وإلَّا فلن تكون هُناك قيمة لتلك الطاعات .

(٥) الآيتان (٣ ، ٤) من سورة المؤمنين .

معروفون بذواتهم الموسومة بفعل الزكاة ، ذلك بالإضافة إلى ما في البدء بـــ (الذين هم) من تشويق وتمهيد لما سيأتي بعد .... ذلك على غرار ما سبق ذكره حول الآيتين السابقتين {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [١] .

ثم انظر إلى التعبير القرآني (للزكاة [٢] فاعلون) بتقديم المعمول (الزكاة) على العامل (فاعلون) الذي هو خبر الضمير (هم) مع أنَّ القاعدة تجعل الصدارة للخبر ؛ لتكون الجملة (الذين هم فاعلون للزكاة) ، أو (فاعلون الزكاة)، والهدف من ذلك التقديم هو : الاهتمام بالمقدَّم ، والتفكير فيه ، باعتباره (مصبَّ الفائدة " [٣] ، فلابد أن يكون أوَّل ما يطرق السَّمع ، وتقع عليه العين ، فتُعجب به ؛ لتقع النَّفس تحت أضوائه ؛ فتنشغل به ؛ لأنَّه المقصود بالالتفات إليه، والتركيز عليه ؛ للاعتناء به لأنَّه المقصود بالالتفات إليه ، والتركيز عليه ؛ للاعتناء به ؛ باعتباره مصدر الفعل وسببه ، حيث إنَّ ذلك الفعل ليس مُهمَّاً في ذاته ، وإنَّما المُهِمُّ هو كونه للزكاة التي هي (المحور الذي يدور عليه الحديث وحده ، فيكون هو المقصود والمعنىّ " [٤] ، ذلك فضلاً عمَّا في التقديم المذكور من دلالة على الاختصاص ، أعني الدَّلالة على أنَّ من يسع من أجل فعل هذه الزكاة خصوصاً ، يوفَّقه الله – عز وجل – في أن يهيئ قلبه ، ونفسه لذلك ، وفي ذلك دلالة على تمكُّن هذا الوصف من أنفس هؤلاء المفلحين .

---

(١) الآيتان (٣ ، ٤) من سورة المؤمنين .

(٢) العلماء على انَّ (اللام) في قوله (للزكاة) ؛ للتقوية ، أي لتقوية تقديم المعمول على العامل ، لأنَّ الأوَّل (المعمول) فرع ، والثاني (العامل) أصل ، والأصل لابد أن يُقدَّم على الفرع ، فجاءت اللام المذكورة لتقوية تقديم الفرع على الأصل ، وعلى هذا يكون لفظ (الزكاة) مجرور لفظاً ، منصوب محلّا ، باعتباره مفعول به لاسم الفاعل (فاعلون) – ينظر : الدُّرُّ المصون جـ ٨ ، ص ٣١٥ ، وحاشية الشهاب جـ ٦ ص ٣٢٠ ، وروح المعاني جـ ٧ ، ص ٨ .

(٣) حاشية الشهاب جـ ٦ ، ص ٣٢٠ ، وروح المعاني جـ ١٧ ص ٨ .

(٤) من بلاغة القرآن ص ١١٢ .

ومغزي آخر نلمسه من وراء تقديم (للزكاة) على (فاعلون) ، هو أنَّ المقدَّم حينما يطرق السَّمع يستحضر قوي النفس المؤمنة ؛ لترى ماذا تصنع ؟ وما الذي ينبغي عليهم تجاهه ؟ فإذا ما جاء الخبر (فاعلون) والنفس مستشرفة لمعرفته استقَّر عندها وتأكَّد ، وحرِصت على تنفيذه ، فقامت بالعمل من أجل هذه الزكاة ؛ بما هو معلوم من أهمِّيَّتها .

واللام في قوله (للزكاة) جئ بها على سبيل التأكيد ؛ لما تتضمَّنه من معنى التعليل ، على أن يكون المراد : (والذين هم لأجل أو من أجل الزكاة فاعلون) ، أو (... لبلوغ الغاية في هذه الزكاة ...) ، أن (... لإرادة الزكاة فاعلون) ، وكأنَّ الزكاة هَدَفٌ مقصود في ذاته للفعل ؛ ولذلك لم يُقل مثلاً : (والذين هم فاعلون الزكاة) ، أو (مؤدون الزكاة) ، وما ذلك إلَّا للدَّلالة على أنَّ المؤمنون الذي يُريد الفلاح لابد أن يكون همُّه أن يسعي ، وبكُلَّ هِمَّته من أجل الوصول إلى كُلِّ ما يُمكَّنه من فعل الزكاة حيث كان ، فإذا وجد أنَّ فعل الزكاة ، أو تطهير النفس بتزكيتها يكون من أيِّ جانب يتعلق بذلك ، صار سعيُه متَّجها إليه بلا تردُّد ، وبلا هوادة [1] .

---

(١) يقول صاحب إعراب القرآن المنسوب للزجَّاج : " ... أنَّ معنى قوله {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} (الذين هم عاملون لأجل الطهارة والإسلام ، ويطهِّرون أنفسهم كما قال : {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} – الآية ٩ من سورة الشمس – أو يعني : (قد أفلح من زكَّاها أي من المعاصي والفجور) جـ ٣ ، ص ٨٦٤ .
وأيضاً ذهب الراغب إلى أنَّ الزكاة في الآية الكريمة {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} بمعني الطهارة ، وأنَّ اللام للتعليل ، حيث يقول : " ... أي يفعلون ما يفعلون من العبادة ؛ ليزكيهم الله ، أو ليزكوا أنفسهم ، والمعنيان واحد ، وليس قوله (للزكاة) مفعولاً لقوله (فاعلون) ، بل اللام فيه للعلَّة والقصد ، وتزكية الإنسان نفسه ضربان : أحدهما بالفعل ، وهو محمود إليه قُصِد بقوله : {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} .. الآية ٩ من سورة الشمس – وقوله : {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} – الآية ١٤ من سورة الأعلي – والثاني : بالقول كتزكية العدْل غيره ، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه ، وقد نهَى الله تعالى عنه فقال : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} – جزء من الآية رقم ٣٢ من سورة النجم ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مَدْح الإنسان نفسه عقلاً وشرعاً ...) – المفردات جـ ١ ، ص ٢٨٢ زكا ، وينظر : بصائر ذوي التَّمييز جـ ٦ ، ١٣٨ ، وروح المعاني جـ ١٧ ، ص ٨ .

وهذا يعني أنَّ اللام في قوله (للزكاة) وإن كانت للتعليل ، فإنَّ ذلك التعليل راجع إلى معنى الاختصاص الذي هو المعنى الأصلي لـ (اللام) ، والذي لا يُفارقها ، والدَّال على أنَّ هُنا تعلُّقا بين (الزَّكاة) وفاعلها ، وكأن الفاعلية لابد وأن تكون مختصَّة بالزكاة لا غير[١] ؛ ذلك للمُبالغة في الاهتمام بها ، لأهمِّيتها في حياة المؤمنين ؛ إذ إنها تؤدِّي بهم إلى التحلِّي بجميع الفضائل ، والتخلِّي عمَّا يُفسد قلوبهم ، ويُمرض أرواحهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال .

ولا مانع – لي – كذلك – وبالإضافة إلى ما سبق – أن تكون اللام ، وانبثاقاً من معنى الاختصاص فيها ، متضمنة معنى (إلى) المفيدة لانتهاء الغاية[٢] ، مما يعني أنَّ هؤلاء المُفلحين من سمتهم الوصول إلى الغاية المنشوده عن طريق فاعليتهم للزكاة ، وفي ذلك دلالة ، على أنَّ من لم يأخذ حظَّه من الزكاة ، لمن يأخذ حظِّه من الفلاح ، فعلي قدْر سعي المرء ، لا كتساب حظِّه من الزكاة ، يكون حظة من الفلاح .

وإيثار (فاعلون) على (مؤدون) ، أو (مؤتون) ، أو (مُعطون) ، على الرَّغم من أنه (لا يقول أحد من الناس : " فعل زيد الزكاة) إنما يُقال : (زكَّى الرَّجُل ماله) ، و (أدَّى زكاة ماله) ، أو نحو ذلك من الكلام " [٣] هذا الإيثار أشار إلى علته الإمام الخطَّابي بقوله : " ... وأمَّا قوله عز وجل : (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ

---

(١) ذلك بناءً على ما أورده (المرادي) من أنَّ جميع المعاني المتولِّدة عن اللام راجعة إلى معناها الأصلي ، وهو الاختصاص ، وأنَّ هذا المعنى لا يُفارقها ، وإن دلَّت على معنى آخر غيره – (ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني – تحقيق / د . فخر الدين قباوة ص ١٠٩ نشر / دار الآفاق الحديثة – بيروت – لبنان ١٤٠٣ ه ، ١٩٨٣م ، وينظر أيضاً : كفاية المعاني في حروف المعاني – تأليف / عبد الله الكردي البيتوشي – تحقيق / شفيع برهاني ، ص ٦١ – ط/ دار اقرأ للطباعة والنشر – سورية – دمشق – بيروت – لبنان – ط / أولي ١٤٢٦ ه ، ٢٠٠٥ م .

(٢) .ينظر : السابقان ، وينظر : بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٣٨ .

فَاعِلُونَ) [١]، وقولهم إنَّ المُستعمل في الزكاة المعروف لها من الألفاظ كالأداء والإيتاء ، والإعطاء ونحوها كقولك : (أدَّي فلان زكاة ماله ... ولا يُقال : (فعل فُلان الزكاة) ، ولا يُعرف ذلك في كلام أحد ، فالجواب [٢] : إنَّ هذه العبارات [٣] لا تستوي في مراد هذه الآية ، وإنَّما تُفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ، ومعني الكلام ومُرادُه المبالغة في أدائها ، والمواظبة عليه ، حتي يكون ذلك صفة لازمةً لهم ، فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم مُضافاً إليهم يُعرفون به [٤] ، فهم له فاعلون ، وهذا المعنى لا يُستفاد على الكمال إلَّا بهذه العبارة [٥] ، فهي إذاً أوْلَى العبارات وأبلغُها في هذا المعنى ، وقد قيل : إن معنى الزكاة هنا : العمل الصالح الزاكي [٦] ، يُريد – والله أعلم – والذين هم للأعمال الصالحة والأفعال الزاكية فاعلون " [٧] .

ويمكن أن يضاف إلى ما قال الخطابي : أنَّ التعبير بقوله (فاعلون) فيها دلالة على انَّ منشأ الزكاة هو فعلها لا أثرها ، ولابد لمن يُريد الفلاح بذل الجهد والعمل في كُلَّ لحظة من لحظات حياته من أجل الزكاة ؛ إذ إنَّ الأمر لا يتعلَّق

---

(١)الآية رقم ٤ من سورة المؤمنون .

(٢) وهو بهذا يرُدُّ على الطاعنين في بلاغة الآية المذكورة ، والذين يرون أن الذي يستقيم فيها – من وجهة نظرهم – الأداء ، أو الإيتاء ، أو الإعطاء ، وليس الفعل المُعبرَّ عنه بـ (فاعلون) .

(٣) أي الأداء ، والإعطاء ، والإيتاء .

(٤) لأنه والحالة هذا يكون من شانهم ودأبهم المداومة على ذلك الفعل، حيث أصبح هذا من دينهم .

(٥) أي بقوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} .

(٦) وعلي هذا المعنى لا يصلح أن يُقال مثلاً : (والذين هم للزكاة مؤدون ، أو مؤتون ، أو مُعطون)؛ لأنَّ مثل هذه العبارات لا تصلح إلَّا إذا كان المراد بالزكاة زكاة المال ، أمَّا إذا كان المقصود منها المعنى الواسع الشامل لها (زكاة المال وغيرها من الطاعات وتطهير النفوس وتزكيتها بالتَّخلِّى من كُلَّ ما هو مؤذٍ ومشين) ، ففي هذه الحالة يكون لفظ (فاعلون) هو الأنسب والأوفق .

(٧) بيان إعجاز القرآن ص ٤٤ ، ٤٥ .

بأدائها ، أو إعطائها ؛ أو إيتائها فحسب ، وإنَّما يُضاف إلى ذلك أنَّها أيضاً أقوال وأفعال، يُقصد بها إرضاء الله – سبحانه وتعالي – والتَّقرُّب إليه.

إلَّا أنَّ الزَّمخشري كان له رأي آخر مشيراً إلى أنَّ الزّكاة في الآية الكريمة إمَّا أن يُراد بها فعل المزكِّي (التزكية) ، وإمَّا أن تحمل على العين (القدر الذي يُخرجه المُزكَّى) ، فإن كان الأوَّل ، وهو الذي أراده الله – عز وجل – صحَّ نسبة الفعل إليه ، بجعل المزكِّين فاعلين له ، ولا يجوز فيه سوي ذلك ، لأنَّه ما من مصدر إلَّا ويُعبَّر عن معناه بالفعل ، ويُقال لمُحدثه : فاعل ، كأن يقال للضارب ، فاعل الضرب ، وللقاتل فاعل القتل ، وللمزكِّي فاعل التزكية ، مع أنه لم يمتنع أن يتعلَّق فاعلون بـــ (العين) ؛ لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل ، ولكن لأنَّ الخلق ليسوا بفاعليها ...

وإن كان المراد بالزكاة (العين) ، فيكون على حذف مضاف ، وهو الأداء ، والتقدير : (والذين هم لأداء الزكاة فاعلون [١] .

ومن بلاغة التعبير القرآني أنه قال : (فاعلون) ، ولم يقل (عاملون) ، وقد أشار الزركشي إلى سرَّ تلك البلاغة ، ذاكراً ما يفيد أنَّ الأول يتضمَّن دلالة يقصر عنها الثاني من ناحية أنَّ الأفعال مصدر الأعمال ، حيث " إنَّ العمل أخصُّ من الفعل ، كُلُّ عمل فعل ولا ينعكس " [٢] ، ثم يبيَّن أنَّ العمل من الفعل ما كان مع امتداد في الزَّمن وببطء ، بخلاف الفعل ، فإنه بتطلَّب المسارعة في وقوعه ، والإتيان به بلا توانٍ ، وبلا امتداد في الزَّمن ، وبدون بُطء ، وبذا يُفهم أنَّه لمَّا كان القصدُ هو الإخبار عن أهل الفلاح بأنَّ من سماتهم المُسارعة في فعل الزكاة قدر استطاعتهم ، وبلا تراخ ، أو تهاون ، اقتضي المقام إيثار (فاعلون) دون

(١) ينظر : الكشاف جـــ ٣ ، ص ١٧٢ ، والبحر المحيط جـــ ٧ ، ص ٥٤٧ .
(٢) البرهان جـــ ٤ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(عاملون) ، فقال تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}[١] ، ولم يقل : (والذين هم للزكاة عاملون) [٢] ؛ لأن اللفظة المذكورة (فاعلون) جاءت على قدْر المعنى الذي صيغت له ، على نحو ما رأينا .

ولا يفوتني في هذا المقام أيضاً الإشارة إلى أنَّ التعبير بـ (فاعلون) بدلاً من (يفعلون) ، للدَّلالة على أنَّ فاعليتهم للتزكية ليست من الأفعال العارضة، القابلة للتجدُّد والحدوث ، وأنهم يفعلون تلك التزكية حينا، ويتركونها حيناً آخر، وإنما هي ثابتة ودائمة بالنسبة لهم ، فهي من شأنهم ، وديدنهم ، ومن أخلاقهم ؛ لأنَّها صفة راسخة في نفوس هؤلاء المفلحين ، فهذه الصفة بالنسبة لهم متلازمة لا تقبل نقصاً ولا انقطاعاً ؛ ولا تنفصل ألبتَّة عن إيمانهم المستقر في دواخل نفوسهم ذلكم الإيمان الذى هو صفة من صفاتهم ، وليس فعلاً من أفعالهم ، على نحو ما ذكرت عند قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[٣] كما أنَّ (استخدام صيغة (اسم الفاعل) يؤكَّد استمرار الحركة في الاسمية مع تصوُّر الفاعل في لحظة

---

(١) الآية ٤ من سورة المؤمنون .

(٢) قال الإمام الزركشي بعد ما بيَّن الفرق كُلَّ من العمل والفعل :

" ... وقد اعتبره الله تعالى ، فقال :{يعملون له ما يشاء } – جزء من الآية ١٣ من سورة سبأ – حيث كان فعلهم بزمان ، وقال :{ويفعلون ما يؤمرون } – من الآية ٥٠ من سورة النحل – حيث يأتون بما يؤمرون في طرْفه عين ، فينقلون المُدُن بأسرع من أن يقوم القائم من مكانه ، وقال تعالى {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا}– من الآية ٧١ من سورة (يس) ، {وما عملته أيديهم } من الآية ٣٥ من سورة يس – فإنَّ خلق الأنعام والثمار والزروع بامتداد ، وقال : {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} – من الآية ١ من سورة الفيل – (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) – الآية ٦ من سورة الفجر {وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} – من الآية ٤٥ من سورة إبراهيم – فإنَّها إهلاكات وقعت من غير بطء ، وقال : {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} – من الآية ٢٥ من سورة البقرة – حيث كانت المقصود المثابرة عليها ، لا الإتيان بها مرَّة ، وقال : {وافعلوا الخيرات} من الآية ٧٧ من سورة الحج – بمعنى : سارعوا ، كما قال : {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} . من الآية ١٤٨ من سورة البقرة وقال : {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} – الآية ٤ من سورة المؤمنين – أي يأتون بها على سرعة من غير توانٍ في دفع حاجة الفقير ، فهذا هو الفصاحة في اختيار الأحسن في كُلّ موضع ". البرهان جـ ٤ ، ص ٨٣ .

(٣) الآية ١ من سورة المؤمنون .

قيامه بالفعل " [١] وهذا يعني أنَّ الزكاة مما ينبغي أن تكون طبعاً أصيلاً " في المسلم كحركته ووجوده "[٢]يؤازر هذا ويقويه بناء الجملة على الاسمية المبتدأة بالضمير (هم) .

هذا ، ولمَّا كانت تزكية النفوس لا تتم إلَّا بحفظ الفروج عن الحرام [٣] وتطهير النفوس من الجور والفجور ؛ باعتبار أنَّ المزكِّى نفسه لابد أن ينمِّي إرادته ، وهِمَّته ، وعزيمته بالحفظ والتطهير المذكورين – أقول : لمَّا كان الأمر كذلك – وتعميقاً لمعني التزكية ، أعقب الحقُّ – تبارك وتعالي – الآية السابقة [٤] بقوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ [٥] .

وواضح أنَّ هذا القول القرآني جاء مصدَّراً بـ (واو) العطف – على غرار الآيات الثلاث السابقة – وفي ذلك دلالة على قوة صلة تلك الآيات ببعضها ، وأنَّ جميع ما تضمَّنته من صفات بمنزلة شئ واحد [٦] ، وأنَّ كُلَّ صفة تُحمَلُ على ما قبلها ؛ باعتبار أنَّ السابقة تكون سبباً للاحقتها ، ومُمهِّدة وموطِّئة وبساط لها، فضلاً عن أنَّ هذه الواو تفيد ضرورة الجمع بين هذه الصِّفات في الاتصاف بها –

---

(١) دراسات فنية في القرآن الكريم ص ٥١ .
(٢) السابق .
(٣) يؤازر ذلك ويقويه قوله تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ } ... (الآية ٣٠ من سورة النور) – ولفظ(أزكي) أفعل تفضيل، والمراد أن ذلك الحفظ أكثر تزكية وتطهيراً للنفوس مما يعلق بها من الشرور والآثام .
(٤) وهي قوله تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} – الآية ٤ من سورة المؤمنون .
(٥) الآيتان (٥ ، ٦) من سورة المؤمنون .
(٦) وذلك لما هو معلوم عن أنَّ العطف بالواو يفيد المشاركة والجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، إذا كان هُناك معنى يربط بينهما . – ينظر : دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ .

مع كونها متغايرة – نوبة واحدة ، نفياً للاتصاف بإحداها ، أو ببعضها دون البعض الآخر ؛ إذ إنَّ المؤمنين لا يحصل لهم الفلاح إلَّا بالاتصاف بالصِّفات المذكورة جميعها مجتمعةً[١] ، وأنَّ اجتماعها لابد أن يكون ثابتاً للموصوفين لا ينفك عنهم ، لأنَّها صفات تكريم ، وتعظيم لهم ، ومن ثمَّ فهي متمكِّنة من نفوسهم، ومهيمنة على مشاعرهم ، لا تفارقهم أبداً .

وإذا كانت الواو لم تُفِدْ ترتيباً ، ولا تعقيباً ، إلَّا أنَّ تقديم بعض الصِّفات على بعض له دلالة من حيث إنَّ ذلك التقديم إنما كان على حسب المعاني [٢] ، مما يعني أنَّ وصف المُفلحين بحفظ الفروج عقِب وصفهم بفعل الزكاة فيه دلالة على أنَّ الوصف اللاحق مُرتَّب على السابق ، وأنَّه لا سبيل إلى الاتصاف بحفظ الفروج ، إلَّا إذا كان ذلك الحافظ لفرجه مُزكِّيا نفسه ، ولن يكون مزكِّياً لنفسه إلَّا وهو معرِضٌ عن اللغو ، ولن يكون كذلك إلَّا إذا كان خاشعاً في صلاته ، ومستمراً على الاتصاف بذلك ، وهكذا الشأن في الصِّفتين الآتيتين بعد [٣] .

وبناءً على ذلك يمكن القول بأنَّ قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} جاء مقرِّراً ، ومؤكِّداً لمضمون قوله تعالى قبلاً : {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} ؛ ذلك لأنَّ حفظ الفروج نوع من أنواع تزكية النفوس ؛ إذ إنَّ من يُزكِّيه الله – عز وجل – جدير بأن يقوم بتطهير نفسه من الخَنَا ، والفجور ، وينهض بحفظ فروجه عمَّا حرَّم الله تعالى ، حيث إنَّ الفروج بابٌ واسع من أبواب تزكية النفوس وتطهيرها .

---

(١) ذلك بالإضافة إلى أنَّ العطف بالواو بين هذه الصفات يؤذن بأنَّ الموصوفين لم ينالوا درجة الفلاح إلَّا بعدما بلغوا حدَّ الكمال في الاتصاف بما ذكر ، (على نحو ما ذكرت قبلاً) ، وينظر : بدائع الفوائد جـ ١ ، ص ١٩٠ .

(٢) ينظر : بدائع الفوائد جـ ١ ، ص ٦١ : ٦٤ ، ص ١٩١ : ١٩٣ ، جـ ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

أضف إلى ذلك : أنَّ الوصف بحفظ الفروج في قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ....} ، وإن كان وصفاً بالعِفَّة عمَّا حرَّم الله – عزَّ وجل – فقد جاءت عقب الوصف بالعفَّة عموماً في قوله تعالى :{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}[١] ، ذلك على سبيل ذكر الخاص بعد العام ؛ اعتناءً بشأن الخاص ، وتحقيقاً لكمال العفَّة ، إذ إنَّ " المباشرة أشهي الملاهي إلى النفس ، وأشدُّها خطراً" [٢] .

يقول الإمام الآلوسي : " { والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } وصف لهم ، وهو وإن استدعاه وصفهم بالإعراض عن اللغو ، إلا أنه جئ به ؛ اعتناءً بشأنه ويجوز أن يُقال: إنَّ ما تقدَّم[٣] ، وإن استدعي وصفهم بأصل العفَّة ، لكن جئ بهذا [٤] لما فيه من الإيذان بأنَّ قوَّتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى ، وإنَّهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها ، وبذلك يتحقَّق كمال العفَّة " [٥] .

وإلي نفس العلة أشار الطَّاهر بن عاشور بقوله :" وذُكر حفظ الفرج هنا عطفاً على الإعراض عن اللغو ؛ لأنَّ من الإعراض عن اللغو ترك اللغو بالأحرى كما تقدم آنفاً ؛ لأنَّ زلَّة الصالح قد تأتيه من انفلات أحد هذين العضوين من جهة ما أُودع في الجبلَّة من شهوة استعمالهما ، فلذلك ضبطت الشريعة استعمالها ، بان يكون في الأمور الصَّالحة التي أرشدت إليها الديانة ... " [٦] .

---

(١) حيث إنَّ الإعراض عن اللغو يتضمَّن الوصف بالعفة عموماً ، لأنَّ اللغو يشمل كُلَّ ما يُغضب الله – عز وجل – سواءٌ أكان بعدم حفظ الفروج عمَّا حرَّم الله تعالى – أم بغير ذلك من الشرور والآثام .
(٢) تفسير روح البيان جـــ ٦ ، ص ٦٨ .
(٣) يقصد قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} – الآية ٣ من سورة المؤمنون .
(٤) والمشار إليه هنا هو قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } – الآيتان (٦ ، ٦) من سورة المؤمنون .
(٥) روح المعاني جـــ ١٧ ، ص ٩ .
(٦) التحرير والتنوير جـــ ١٨ ، ص ١٤ ، ١٥ .

وتقديم المعمول (لفروجهم) على العامل (حافظون) ؛ للاهتمام بالمقدَّم؛ باعتباره مصبَّ الفائدة ، ولأنَّه المقصود بالالتفات إليه ، والتركيز عليه ، فضلاً عما في ذلك التقديم من تشويق إلى المسند – على نحو ما مرَّ في نظائره من الآيات الثلاث السابقة – ولذلك كانت العبارة القرآنية أبلغ مِمَّا لو قيل مثلاً : (والذين هم حافظون لفروجهم) بتقديم الخبر على الجار والمجرور ، واللام في (لفروجهم) ؛ لتقوية تقديم المعمول على العامل على غرار ما مرَّ في قوله تعالى: { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [١] .

وكلمة (فروج) : من الكلمات ذات المُشترك اللفظي حيث إنها تُطلق على عدَّة مسمَّيات من بينها سوأة الإنسان المعروفة بعرْضه ، وإطلاقها على تلك السوأة من قبيل الكناية لا التصريح ، "وكثُرت هذه الكناية حتَّي صارت كالصريح في الدلالة" [٢] .

يقول الراغب : " ... الفَرْجُ والفُرْجةُ : الشِّقُ بين الشيئين كفُرجة الحائط ، والفَرْجُ : ما بين الرِّجْلَيْن ، وكُنَّى به عن السَّوْأة ، وكثُر حتي صار كالصريح فيه، قال تعالى : {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} ، جزء من الآية ٩١ من سورة الأنبياء – {لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} من الآية رقم ٥ من سورة المؤمنون – {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} من الآية ٣١ من سورة النور – واستعير الفرْج للثَّغر وكُلَّ موضع مخافة ... وقوله : {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} – من الآية ٦ من سورة (ق) أي شقوق وفتوق ، قال : {وإذا السَّماء فُرجت } الآية ٩ من سورة المرسلات – أي انشقَّت..."[٣] .

---

(١) الآية ٤ من سورة المؤمنون .
(٢) من أسرار التعبير القرآني ص ٢١٥ .
(٣) المفردات جـ ٢ ، ص ٤٨٥ (فرج) .

ويقول ابن منظور :" الفَرْج : الخلَلُ بين الشيئين ، والجمع : فروج ..... والفَرْج : العورة ..... والفَرْج : اسم لجمع سوءات الرِّجال والنساء والفتيان ، وما حواليْها كُلُّه فُرْجٌ ، وكذلك من الدَّواب ونحوها من الخَلْق .... " [١] .

ومن خلال ما ذكره كُلٌّ من الراغب ، وابن منظور يُمكن القول : بأنَّ التعبير بكلمة (فروج) إنَّما كان على سبيل الكناية عن السوْأة ، أو العورة أو العِرض ، " رعايةً للذوق الذي يُستهجن ذكرُه صراحة " [٢] من حيث إنَّ الكلمة المذكورة " لا تمسُّ عفافاً ، ولا تجرح حياءً " [٣] ؛ لأنَّها تجنبت ما تمُجُّه الأُذن وتنبو عنه الأسماع ، مِمَّا يدُلُّ على روعة التعبير القرآني ، وجمال جلاله في استخدام العبارات العالية ، والذوق اللطيف الرفيع في نزاهة ألفاظه السامية ، وشرفها ، ومراعاة الأدب في بيان حفظ الفروج [٤] " الذي لا يشتبه فيه من له أدني بصيرة بذوق العربية والبيان الرفيع ، ذلك من خلال التعبير عن الأمور التي

---

(١) لسان العرب جـ ١٠ ، ص ٢٠٩ (فرج)

(٢) التعبير البياني (رؤية بلاغية نقدية) للدكتور/ شفيع السيد ص ١٢٠ ط / دار الفكر العربي – ثالثة ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م .

(٣) السابق .

(٤) ويرى الإمام الزركشي أنَّ المُراد بالفرج في قوله تعالى في شأن السيدة (مريم عليها السلام – { وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} – جزء من الآية ٩١ من سورة الأنبياء – يري الزركشي أنَّ المراد بالفرج هُنا : (فرج القميص) ، ومن ثم يكون التعبير القرآني كناية عن العفَّة وطهارة الذيل والثياب ، يقول :– (فإن قيل : فقد قال تعالى {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} فصرَّح بالفرْج ؟ قُلنا : أخطأ مَنْ توهَّمَ هُنا الفرج الحقيقي ، وإنَّما هو من لطيف الكنايات وأحسنها ، وهي كناية عن فرج القميص ؛ أي لم يعلق ثوبَها ريبة ، فهي طاهرة الأثواب ، وفروج القميص أربعة : الكمَّان ، والأعلي ، والأسفل ، وليس المُراد غير هذا ؛ فإنَّ القرآن أنزه معنىً ، وألطف إشارة ، وأملح عبارة ، من ان يريدُ ما هذَب إليه وَهْمُ الجاهل ، لا سيَّما والنَّفخ من روح القُدُّس ، فأضيف القُدْس إلى القُدُّوس ، ونُزِّهت القانتة المُطهَّرة عن الظَّنِّ الكاذب والحدْس) – البرهان في علوم القرآن جـ ٢ ، ص٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ولا مانع أيضاً مِنْ أن يكون المراد بالفروج في قوله تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} فروج القمصان والثياب على أن المعنى : انَّ ثياب المؤمنين والمؤمنات لا تنفرج عن ريبة ، ولا تنكشف عن منكر ، بل هم نقية ثيابهم طاهرة أذيالهم ، عفيفة نفوسهم ، وعليه يكون حفظ الفروج كناية عن العفَّه والطهارة . (ينظر : الأسلوب الكنائي – نشأته – تطوّره – بلاغته – للدكتور محمود شيخون) ص١٠٣ – نشر / مكتبة الكليات الأزهرية – ط / أولي ١٣٩٨ د ، ١٩٧٨م ..

يُستحي بها بالكنايات البعيدة التي يُفهم المرادُ منها ، ولا تستحيى من تلاوتها العذراء في خدرها " [١] .

والمُراد بحفظ الفروج – في الآية الكريمة : إمساكها عن الحرام ، وعفَّتها عمَّا لا يحلُّ لها ، وذلك بسترها ، وعدم امتهانها ، وابتذالها ، وبصونها عمَّا يؤدي إلى إتلافها بتعريضها للفجور والمُنكر ، والفُحش [٢] ، ولكل استمتاع محرم وتلذذ محظور .

وانظر إلى دقة التعبير القرآني في (لفروجهم) بإضافة لفظ (الفروج) إلى ضمير المؤمنين (هم) المُخبر عنهم بالفلاح ، إذ إنَّه لما كان عدم حفظ الفروج يؤدَّى إلى شرخ كبير لقيمة العفَّة إذا غابت في أيِّ مُجتمع من المُجتمعات جاءت الإضافة المذكورة ، تأكيداً على أنَّ الفروج المراد حفظها مُحدَّدة ومقصورة على ذاتية هؤلاء المؤمنين وحدهم ؛ لما في ذلك الحفظ من منفعة لهم ، بغضَّ النظر عن غيرهم من الذين لا يحفظون فروجهم ، فهؤلاء المؤمنون مسؤولون عن حفظ فروجهم وفقط ، لا فروج غيرهم ، كما أنَّ في تلك الإضافة أيضاً إشارة إلى أنَّ لهؤلاء المؤمنين في الحفظ المذكور اختياراً ؛ من أجل إيثار الفلاح على غيره ، فالحفظ إنَّما كان برغبتهم ؛ لتشرُّفهم به ؛ ولأنَّه يؤدي بهم إلى الدُّخول في زُمْرة أهل الإيمان المُخبر عنهم بالفلاح ، فلمَّا كانت الإضافة المشار إليها تؤذن بكُلِّ هذه المعاني أوثر قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}[٣] على غيره من مثل قولنا : (والذين هم للفروج حافظون) ، بدون إضافة لفظ (الفروج) إلى ما أضيف إليه في النظم الكريم .

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ، ص ٢٨٩ ، وينظر : خصائص التعبير القرآني جـ ١ ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
(٢) يُنظر : تفسير روح البيان جـ ٦ ، ص ٦٨ ، وتفسير الحداد ، جـ ٥ ، ص ٧ ، والبحر المديد جـ ٣ ، ص ٥٦٢ ، وحاشية شيخ زادة جـ ٣ ، ص ٣٩٨ ، والشرح الممتع على زاد المستنقع لـ (ابن عثمين) جـ ١٤ ص ٣١٣ – نشر : دار ابن الجوزي ١٤٢٢ هـ .
(٣) الآية ١ من سورة المؤمنون .

ثم إنَّه قال : (حافظون) هكذا على الإطلاق ، ودون تحديد نوع الحفظ ، ولا ما يحفظ منه ؛ مِمَّا يعني انَّهم حافظون فروجهم حفظا تامَّاً من الزَّنا حقيقةً ، أو حُكْماً مما يؤدِّي إليه كالنَّظر ، والإبداء وعدم التستر ، واللمس وما شابه ؛ ذلك تزكية لنفوسهم ، وتطهيراً لها وصوْناً للإنساب ، وحفظاً للأعراض ، وبُعداً عن مواطن الرِّيب ، وحياطة للأسر أن تتلاعب بشرفها الأهواء ، أو تعبث بها يد الفساد ، ولاشك في أنَّ ذلك الحفظ نفع لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم [١] ، حيث يقول الحق تبارك وتعالي في آية أُخرى : {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [٢] .

هذا ، وأيضاً من عجيب التَّصرُّف في النظم القرآني أنَّه عدل بالكلام عن صريح اسم (الزنا) إلى كنايته ، أعني أنَّه كنى عن الامتناع عن الزنَّا بـ (حفظ الفروج) ، وبذلك أُخرج السَّبب (الحفظ) والمُسبب (الامتناع) المذكور في لفظ واحد ، مِمَّا يشى بأنَّ هؤلاء المؤمنين ذو غلبة على أمر أنفسهم ، وذو تحكُّم في غرائزهم وشهواتهم ، ولا يطلقون لها العنان ، ومن أجل ذلك فهم يقومون بحفظ فروجهم .

ومن اللطائف العجيبة كذلك أنَّه قال (حافظون) ، ولم يقل : (ممسكون)، أو نحوه مما هو بمعناه ، إذ إنَّ في " اختيار " الحفظ " سِرٌّ بديع ، ذلك أنَّ الذي يمسك فرجه عمَّا لا يحلُّ له ، يكون حافظاً لنفسه " [٣] عمَّا يُدنِّسُها ، ويؤثِّمها ، ومن غضب الله – عز وجل – وحافظاً (لفرجه من الآفات ، والأمراض والأوجاع

---

(١) ينظر : التعريف بالقرآن والسُّنة للأستاذيْن / عبد الحسيب طه حميدة ، شاكر محمود أحمد ص ١٤٥ ط / دار التأليف ١٩٦٧م.
(٢) الآية ٣٠ من سورة النور .
(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل صالح السَّامرائي ص ١٣٣ ، ط / دار عمَّار للنشر والتوزيع – عمَّان – خامسة ١٤٣٠ ه ، ٢٠٠٩ م .

التي تصيبه ، وهى أمراض وبيلة وخيمة العاقبة ، ومَنْ أرسله في المُحرَّمات ، يكون قد ضيَّعه ، وضيع نفسه[١] " [٢] .

ولا يخفى ما في التعبير باسم الفاعل (حافظون) من دلالة على أنَّ من شأن هؤلاء المفلحين التحَّلي بحفظ الفروج على الثبوت والدَّوام ، وأنَّ ذلك الحفظ صفة من صفاتهم القارَّة في نفوسهم ، وليس فعلاً من أفعالهم الطارئة القابلة للتجدُّد والحدوث ، أو النَّقص ، أو الانقطاع ، وما ذلك إلَّا لأنهم ثابتون على إيمانهم ، ولا يتزعزعون عنه قيد أنمُلة .

هذا ، ولمَّا كان حفظ الفروج ليس مطلوباً على إطلاقه ، جاء بعد ذلك قوله تعالى {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } [٣] ، وتتميماً لها ، بياناً للمراد من الآية السابقة عليها ؛ ذلك على سبيل الاحتراز من إطلاق الحُكم بحفظ الفروج بشكل عام ، حيث إن أسلوب الاستثناء (إلَّا على أزواجهم ...) أبان عن الحالة الخاصة التي يُباح فيها للمرء عدم حفظ فرجه ، فالأسلوب المذكور يثبت الحفظ ، ولكنَّه " يُحدُّ من إطلاقه ، ويُقيِّدُ عموميَّته" [٤] . فيجعلُه إلَّا على الأزواج ، وملك اليمين ، لا يتعدَّاه إلى غيرهم مِمَّا يعني أنَّ مَنْ يحفظ فرجه إلَّا على النَّوْعين المذكوريْن يحمل صفة الحافظين لفروجهم ، وكأن

---

(١) يؤيِّد هذا ، ويقويه ما جاء في صحيح الترغيب والترهيب من " أنَّ رسول الله ﷺ – قال : [يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتُليتم بهنَّ ، ونزلْن بكم – أعوذ بالله أن تدركوهنَّ] لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتي يُعلنوا بها إلَّا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم يُنقِصوا الكيل والميزان إلَّا أُخذوا بالسنين ، وشدَّة المؤنة ، وجوْر السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلَّا مُنعوا القِطْرَ من السماء ، ولولا البهائم لم يُمطروا ، ولا نقضوا عهد الله ، وعهد رسوله إلَّا سلَّط عليهم عدوٌّ من غيرهم ، فيأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكُم أئمتهم بكتاب الله إلَّا جعل بأسهم بينهم " – الترغيب والترهيب للمنذري – تحقيق / إبراهيم شمس الدين جـ ١ ، ص ٣٠٩ – الحديث رقم ١١٤٥ – نشر / دار الكتب العلمية – بيروت – أولي ١٤١٧ ه .

(٢) لمسات بيانية ص ١٣٣ .

(٣) الآية ٦ من سورة المؤمنون .

(٤) السياق وتوجيه دلالة النَّص للدكتور عيد بلبع ص ٣٦٣ –ط / بلنسية للنشر والتوزيع – أولي ١٤٢٩ه ، ٢٠٠٨م .

المعنى في الآيتين (والذين هم لفروجهم حافظون في كُلَّ حال إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) ، فأثبت حفظ الفروج على كُلَّ ما عدا الأزواج وملك اليمين، ونُفى عن كل من لا يقوم بضبط نفسه ، ولا يتحكَّم في غرائزه ، وشهواته ، فينال من عرض غير أزواجه وملك يمينه ، ومن ثم تكون (إلَّا) وما بعدها لها دوْر فاعل في بناء المعنى ، حيث إن الآية الأولى [١] ، ولأهمَّية حفظ الفروج بدأت في استحضاره اوَّلاً على الجميع في الذَّهن ؛ " تشويقاً إلى البيان ، وروْماً لزيادة تقرُّره في الأذهان " [٢] ثم جاءت الآية الثانية {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ...} لتخرج منها الأزواج ، وملك اليمين ، ذلك عن طريق أداة الاستثناء (إلَّا) التي أشارت إلى تخصيص حالة من الأحوال التي لا يجب فيها الحفظ ، على نحو ما رأينا من انَّ الأزواج وملك اليمين ليسوا مما يجب حفظ الفروج عليهم .

ومِمَّا يلفت الانتباه كذلك أنَّ الآية التي نحن بصددها جاءت مفصولة عمَّا قبلها ، على سبيل ما يُعرف لدي البلاغيين بالاستئناف البياني ، أو بشبه كمال الاتصال ، حيث إنَّ الحقَّ تبارك وتعالي – لمَّا ذكر في الآية السابقة : { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [٣] ما يفيد انَّ من صفات المفلحين حفظ الفروج ، كان هذا الذَّكر مثيراً لسؤال عن الحُكم فيمن لا يحفظ فرجه عن زوجه ، أو عن ملك يمينه، فجاء قوله تعالى : { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ} جواباً عن هذا السؤال ، وهذا يعني أنَّ الآية الكريمة جزء أصيل من المعنى الأصلي الذي تضمَّنته الآية السابقة وهي قوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [٤] ، وأنَّ اللَّاحقة " موصولة بما قبلها

---

(١) وهي قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} – الآية ٥ من سورة المؤمنون .
(٢) تفسير أبو السعود جـ ٢ ، ص ١٨٠ [تعليقا على قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... } الآية ٤٣ من سورة النساء .
(٣) الآية ٥ من سورة المؤمنون .
(٤)الآية ٥ من سورة المؤمنون .

أوثق اتصال " [١] ، وإنْ لم يكن بينهما حرف وصل ، ولذلك ذكر الزمخشري في الآية الكريمة ثلاثة أوجه من بينها : أنَّ قوله (عَلَى أَزْوَاجِهِمْ) صلة لحافظين المتضمَّنة معنى النفي ، أي نفي إرسال الفروج ، وإطلاقها إلَّا على الأزواج ، أو ملك اليمين [٢] .

ورأى أبو حيان الأندلسي أنَّ الحرف (على) في قوله تعالى { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ } متعلق بـ (حافظون) ؛ لتضمينه معنى (ممسكون) ، أو (قاصرون)، وكلاهما يتعدَّى بـ (على) كما في قوله تعالى : {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ}[٣] ، وعلي هذا يكون المعنى: " والذين هم لفروجهم ممسكون ، أو قاصرون إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم " [٤] .

ومن قبل أبي حيان نرى الفراء يذهب إلى أن (على) بمعنى (من) ، فيقول في معنى الآية: " إلا من أزاوجهم اللاتي أحلَّ الله من الأربع لا تجُاوز"[٥] .

يؤازر هذا المعنى ويقويه أنَّ (من) جاءت بمعنى (على) في قوله تعالى: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [٦] " أي على القوم ... " [٧] .

وكذلك جاء على لسان الرسول ﷺ في الحديث : " احفظ عورتك إلَّا مِنْ زوجتك أو ما ملكت يمينك " [٨] .

---

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢١ .
(٢) ينظر : الكشاف : جـ ٣ ، ص ١٧٣ ، وتفسير أبي السعود جـ ٤ ، ص ٣٧ ، وفتح القدير جـ ٣، ص ٦٧٠ ، ٦٧١ .
(٣)من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .
(٤) ينظر البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٥٤٨ .
(٥) معنى القرآن لأبي زكريا يحيي بن زياد الفراء – تحقيق ومراجعة أ / محمد على النجار جـ ٢ ، ص ٢٣١ – نشر / الدَّار المصرية للتأليف والترجمة – غير مؤرَّخة .
(٦) من الآية ٧٧ من سورة الأنبياء .
(٧) البرهان في علوم القرآن جـ ٤ ، ص ٤٢٠ .
(٨) سنن أبي داود جـ ٤ ، ص ٤٠(كتاب : (الحَمَّام – باب : ما جاء في التعرِّى – الحديث ٤٠١٧)، وسنن ابن ماجه جـ ٢ ، ص ٤٤٨ (كتاب: النكاح – باب : التستر عند الجماع الحديث ١٩٢٠)

وذهب (العكبري) إلى أنَّ (حافظون) بمعني (صانوا) ، وأنَّ (على) متضمَّنة معنى (عن) ، فقال : " (إلا على أزواجهم) في موضع نصب بـ (حافظون) على المعنى ؛ لأنَّ المعنى : صانوها عن كُلَّ فرج إلَّا عن فروج أزواجهم " [١] .

ولكن لماذا أوثر استعمال (على) دون (مِن) ، أو (عن) في هذا الموضع ؟

والجواب عن ذلك يُمكن أن نستلهمه من خلال ما ذكره الزمخشري ، مشيراً إلى دلالة حرف الاستعلاء (على) حينما قال ما نصُّه : " {عَلَى أَزْوَاجِهِمْ } في موضع الحال أي : إلَّا والين على أزواجهم ، أو قوَّامين عليهنَّ ، من قولك : (كأن فلان على فلانة فمات عنها ، فخلف عليها فلان) ، ونظيره : (كان زياد على البصرة ، أي : والياً عليها) ، ومنه قولهم : (فلانة تحت فلان) ، ومن ثَمَّة سُمِّيت المرأة فراشاً " [٢] .

وكلام الزَّمخشري هذا يُشتمُّ منه إنَّ التعبير بـ (على) إنما كان لما فيه من دلالة على (علوِّ مكانة الرَّجل ، وحقِّه في [٣] القوامة على المرأة ، وواجبها في طاعته ، والانضواء تحت إمرته " [٤] ؛ باعتباره متصِّفاً على أمر زوجته ، وإذا كان الأمر كذلك ، فعليه أن يقوم بتأدية حقوقها ، وحفظ عرضها ، وحُرْمتها ، ووقارها ، وعِفَّتها ، كما أنَّ له العلوية ، والفوقية في الخلوة إليها ، وعليه أن

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات لأبي البقاء العكبري – تحقيق / إبراهيم عطوة عوض ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ – نشر / المكتبة العلمية – لاهور – باكستان – غير مؤرخة ، وينظر : الدُّرُّ المصون جـ ٨ ، ص ٣١٨ .

(٢) الكشاف في جـ ٣ ، ص ١٧٢ .

(٣) وذلك انطلاقاً من قول الحقِّ تبارك وتعالي { الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ } ... من الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٤) من أسرار حروف الجرَّ في الذكر الحكيم للدكتور / محمد الأمين الخضرى ص ٩٦ ط / مكتبة وهبة – أولي ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

يأخذ حظَّه في قضاء شهوته منها ؛ إحصاناً لها، وحِفظاً لنفسه من التَّطلُّع إلى غيرها ممن لا تحِلُّ له ؛ حتي لا يقع في المحظور ، وبذا يكون أميناً على غير أزواجه ، ويحفظ لهُنَّ حُرْمتهُنَّ .

هذا ، وقد استظهر النيسابوري أنَّ حرف الاستعلاء يشعر بمعني وجوب الاستيلاء على الأزواج ، والتمكُّن منهُنَّ فيقول : " (إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ) في كلمة (على) دلالة على أنَّهم يجب أن يستولوا على الأزواج، لا بالعكس، وإلَّا كُنَّ عدَّواً لهم كقوله تعالى: { إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ }[1]..." [2] .

وإن كان النيسابوري يري أنَّ " علامة الاستيلاء على الأزواج ان يبتغي بالنكاح النسل ، ورعاية السُّنة في أوانها لاحظَّ النفس وإلَّا كان متجاوزاً طريق الكمال" [3] .

إلَّا أنَّني أرى أنَّه لابد من أن يكون لإشباع رغبة النفس عن طريق هذا الاستيلاء نصيب ، وكأنَّ الزَّوج يستولي على زوجه ، أو على ملك يمينه ، ويتمكَّن منها فضل تمكُّن ؛ ليتمتَّع بها كيفما شاء ، كما أنَّ الاستعلاء يُجسَّد العلاقة الحميمة بين الأزواج ، وبين الرَّجل وملك يمينه ، تلك العلاقة التي هي حقٌّ واجب وأكيد على كُلٍّ منهما تجاه الآخر ، فضلاً عما يُفيده الحرف المذكور من إشعار بعلُوِّ مكانة وقدْر كُلٍّ ، من ناحية أنَّ كُلًّا منهما يحرص على عفَّة الآخر ، وكفِّه عمَّا لا يحلُّ من الأطماع الدَّنيَّة .

وسرٌّ لطيف آخر يمكن أن يُضاف إلى ما سبق ، وهو أنَّ التعبير بـ (على) يؤذن بعلوِّ قيمة عدم حفظ الفروج على الأزواج ، وسموَّ مكانته في مُجتمع

---

(١) من الآية ١٤ من سورة التغابن .
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ٣ ، ص ٢٤٠١ .
(٣) السابق .

المؤمنين ؛ لأنه يؤدَّى إلى عدم الوقوع في المحظور ، الذي هو الابتغاء في الحرام ، إذ إنَّ الامتناع عن هذا الابتغاء من أوجب الواجبات .

ومن خلال ما سبق ذكره من معانٍ ينهض بها الحرف (على) ويُبرزها ، ويجسِّدُها تبيَّن لنا أنَّ الحرف المذكور يتلاءم مع الدَّقَّة الأدائية العالية للنظم القرآني ، وانَّه بذلك يكون قد ألقى بكثير من الإيحاءات التي لا تتوافر في الحرف (مِنْ) ، والذى لا يفيد أكثر من معنى : " منع حفظ الفروج عن الأزواج وملك اليمين " [١] ، وكذا لا تتوافر تلك الدَّقة في الحرف (عن) الذي لا يفيد أكثر من أن يكون المراد هو (صانوا فروجهم وحفظوها إلَّا عن فروج أزواجهم أو ملك أيمانهم) ، وبذا يكون الحرف (على) في الآية ألزم للمعني المراد منهما ، من الحرفين (مِنْ) ، و (عن) .

هذا ، وقال : " { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} ولم يقل مثلاً : (إلَّا على نسائهم) ؛ ذلك على اعتبار أنَّ النساء أعم من الأزواج والإماء ، فليست كُلُّ النساء أزواج ، أو إماء ، ذلك فضلاً عن أنَّ الاستثناء راجع إلى أن من يحِل الاستمتاع بهِنَّ وفقط عن طريق الاقتران بالزَّواج الشرعي ، أو ملك اليمين ، دون غيرهم من سائر النِّساء اللاتي لا تحلُّ إلَّا للغير [٢] ، وكنا غير الدَّاخلات في الأزواج ، ولا يجوز الاستمتاع بِهنَّ .

---

(١) أستلهمت هذا المعنى مما ذكره الإمام عز الدين بن عبد السلام حول قوله تعالى : { وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} . من الآية رقم ٧٧ من سورة الأنبياء حيث قال مشيراً إلى انَّ النصر إن استعمل بـ (مِنْ) كان بمعني المنع ، يقول : " أي ومنعناه من القوم الذين كذَّبوا بآياتنا " .

(٢) على هذا الأساس ذلك ، لـ (أنَّه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحُرَّة زوجان ، ولا يجوز كذلك ان يشترك في المرأة المملوكة سيِّدان) – ينظر : تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان – لـ (عبد الرحمن بن ناصر السعدي – تحقيق / عبد الرحمن بن معلَّا اللويحق جـ ١ ، ص ٥٤٧ نشر : مؤسسة الرسالة ط / أولي ١٤٢٠ ه ، ٢٠٠٠م .

ثم إنَّ التعبير بـــ (أزواجهم) إنما كان ؛ ليشـمل الـذكور والإنـاث ، فاللفظ المذكور عام للرِّجال والنِّساء ، فالرجل زوج والمرأة زوج ، وكُـلٌّ منهمـا يجب عليه حفظ فرجه إلَّا على قرينه وشريكه الذي يحل له ؛ باعتبار أنَّ النسـاء شقائق الرِّجال في الأحكام الشرعية .

وقوله (أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) ، فإنَّه خاص بالرجـال ؛ لأن ملـك اليمـين يقصد به هنا : الإماء من النساء ، ولأن النساء لا يجوز لهُنَّ أن يتمتَّعن بما ملكت أيمانُهنَّ [١] .

وجئ بـ (أو) ؛ للدلالة على التسوية بين الأزواج وملك اليمين في عـدم حفظ العورات أمامهم ؛ باعتبار أنَّ (أو) على بابهـا مـن إفادتهـا للتخييـر ، أو للإباحة ، مِمَّا يعني أنَّ عدم الحفظ يكون على أيٍّ مـن النـوعين بالاختيـار ، أو على كليهما معاً ؛ لإباحة الجمع بينهما في ذلك الأمر .

وبذا يكون المعنى انَّ هؤلاء المُفلحين من المؤمنين مـن شـانهم حفـظ فروجهم في كُلَّ الحالات ، إلَّا في ثلاث منها ، يُباح لهم فيها عدم حفظ فروجهم :

١- إمَّا على زوجه بالإضافة إلى ملك يمينه [٢] إنْ كان يجمع بينهما ، فهو يحفظ فرجه إلَّا عن زوجه ، وإنْ شاء فأيضاً إلا على ملك يمينه مع أزواجه .

٢- وإما أن يكون عدم الحفظ على زوجه فقط ، إذا لم تكن له ملك يمين .

---

(١) ينظر : الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧٣ ، وينظر : المُحرَّر الوجيز جـ ٢ ، ص ٩ ، تعليقاً على قوله تعالى {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ....} . من الآية ٣ من سورة النساء .

(٢) وذلك إنْ وُجِدَت ملك اليمين بسبب مشروع ، والسَّبب المشروع الوحيد الذي يعترف به الإسلام هو السَّبي في قتال في سبيل الله – عز وجل – وهي الحرب الوحيدة التي يُقرُّها الإسلام ، وقـد أباح الإسلام الاستمتاع بأسيرات الحرب بالتَّسرِّي لمن يملكهُنَّ خاصة ، مع ملاحظة أنَّ الإسـلام جفَّف كُلَّ منابع الرِّق ، ما عدا أسرى الحرب ، ولعلَّ هذا الاستمتاع ملحوظ في تلبيـة الحاجـة الفطرية للأسيرات أنفسهنَّ ، كي لا يَنبعنها ، عن طريق المُخالطـة الجنسـية القـذرة ، إذ إنَّ الإسلام يقف بمبادئه صحيحاً نظيفاً لا يدع أسيرات الحرب لفوضي الاختلاط الجنسي القذر كمـا يقع لأسيرات الحروب قديماً وحديثاً . (شرح ومعاني جزء تبارك أ/ محمد محمـد عتـريس – القسم الثاني ص ٢٠٥ – صادر عن دار التحرير للطبع والنشر – بدون تاريخ .

٣- وإمَّا على ملك يمينه فقط ، إن لم تكن له زوجة .

فدخول (أو) أشار إلى أنَّ حفظ فروج المؤمنين واجب في حقِّهم إلَّا في واحدة من الصور الثلاث المذكورة .

ولذلك لم يأت العطف بـ (الواو) ، فلم يُقلْ مثلاً :(إلَّا على أزواجهم وما ملكت أيمانهم)؛ دفعاً لتوهُّم وجوب الجمع بين كُلَّ من الزَّوجة وملك اليمين عند إرادة عدم حفظ الفروج ، وبمعني آخر : أنه لو جئ بـ (الواو) بدلاً من (أو) لَتُوهِّم أنَّ المُراد هو : أنَّ من أراد الفلاح من المؤمنين ، فعليه أن يحفظ فرجه في كُلَّ الحالات عدا حالة واحدة فقط تقتضي عدم الحفظ ، وهي ضرورة الجمع بين زوجة ، وملك يمين معاً لكي يتم الحفظ إلَّا عليهما ، وأنه لابد من اجتماعهما [١]، وإلَّاَ فإنَّ عدم حفظ الفروج على إحداهما دون الأخرى يؤدَّى إلى المُخالفة [٢] ، ولمَّا كان هذا ما لا يقصده الشرع الحنيف ؛ باعتباره أمراً شاقَّاً وعسيراً ، ذلك أنَّ كُلَّ أحدٍ ليس بلازم أن يكون عنده ملك يمين ، وكذلك ليس في مقدور كُلَّ أحدٍ أن يجمع بين الزوجة وملك اليمين ، ولا يستطيعه – أقول : ولمَّا كان الأمر كذلك – جئ بـ (أو) ؛ للدّلالة على أنَّ الطاعة تكون في الحفظ إلَّا على الأزواج ، أو ملك اليمين ، أو على كليهما معاً [٣] ، فكلُّهم أهل لعدم حفظ الفروج عليهما ،

---

(١) ذلك على اعتبار أنّ (الواو) يؤتي بها في الكلام ؛ للدلالة على مُطلق الجمع والمُشاركة .

(٢) ولو كان التعبير بـ (الواو) لتُوهم كذلك أنَّ من له زوجة ، وليس له ملك يمين خاصَّة به ، وخالصة له ، عليه أن لا يحفظ فرجه على ملك يمين غيره من المؤمنين ، أو لا يحفظه على أمة تكون بينه ، وبين غيره بالشراكة ، ولا شك في أنَّ هذا لا يصح على الإطلاق ؛ لأنَّه لا يجوز أن تكون المرأة تحت إمرة اثنين أو أكثر من الرجال بخصوص الوطء يقول السعدي (.... ويدلُّ قوله: (أو مَا مَلَكتْ أيْمَانُهُمْ) ، أنَّه يشترط في حلّ المملوكة أن تكون كلها في ملكه ، فلو كان بعضها لم تحل ؛ لأنها ليست ممَّا ملكت يمينه ، بل هي ملك له ولغيره ، فكما أنَّه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحُرَّة زوجان ، فلا يجوز أنْ يشترك في الأمة المملوكة سيَّدان)) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان – لـ (عبد الرحمن بن ناصر السعدى – تحقيق / عبد الرَّحمن بن معلّا اللويحق جـ ١ ، ص ٥٤٧ – نشر / مؤسسة الرسالة – ط / أولي ١٤٢٠ ه ، ٢٠٠٠م ، وينظر: الأم للإمام الشافعي مع مختصر المازني جـ ٥ ، ص ٤ ، ١١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ثانية ١٤٠٣ ه ، ١٩٨٣م ، والمُحلَّى لابن حزم الأندلسي جـ ٨ ، ص ٨٣ ، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بدون تاريخ .

(٣) وليس معنى هذا أنَّ عدم الحفظ يكون بالجمع بينهما في أن واحد ، ولكن أعني أنَّه على سبيل الفرض والاحتمال والتقدير إن كان للمؤمن زوجة مُضافاً إليها ملك يمين ، فله الاستمتاع بكل ، حيث إنَّ الغالب عادة في الذي لا يحفظ فرجه على زوجه ، أو على ملك يمينه ، لا يجمع بينهما معاً في عدم الحفظ ، إذ إنَّه لو انشغل بهذه ، لم ينشغل بالأخرى ، ومن ثمَّ فإنَّ المقصود أنَّ الأمر مرتبط بكليهما إن كانتا تحت يده ، ولا يتعدَّاه إلى غيرهما ، أو إلى غيرهنَّ .

فالمفلحون يحفظون فروجهم إلَّا على أزواجهم ، وإن شاءوا فأيضاً إلَّا على ملك أيمانهم مع أزواجهم ، وإمَّا على ملك أيمانهم ، وفقط ، فكُلُّ ذلك جائز ، وإن دلَّ هذا فإنمَّا يدُلُّ على شرف الحرف (أو) في الآية الكريمة ، ذلكم الحرف الذي يؤذنُ بأنَّ الصِّنفينْ المذكورين متساويان في الحكم ، فهما أهل لعدم حفظ الفروج عليهما ، وأنَّ الأمر في ذلك مبنيٌّ على التخيير، أو الإباحة .

وأيضاً تجدرُ الإشارة إلى معنى دقيق ولطيف في حذف حرف الجر (على) بجانب (ملك اليمين) ، فلم يُقلْ مثلاً : (إلَّا على أزواجهم أو على ما ملكت أيمانهم) بتكرار الحرف المذكور ؛ وما ذلك إلَّا للدَّلالة على أنَّ بيْن الأزواج ، وملك اليمين مشاركة ، وكأن ثمَّة إشارة إلى وجه من التلاقي بين عدم حفظ الفروج ، على كُلَّ من الأزواج وملك اليمين .

أمَّا عن سرَّ العدول عن (من) إلى (ما) في قوله تعالى " ومَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ" – على الرَّغم من أنَّ الحديث عن العقلاء – فقد تنازعت هذا السَّرَّ أقوال العلماء ، وكان لهم فيه آراء متعدَّدة .

وفها هو (المُبرِّد) يرى : " أنَّ " ما " في الآية الكريمة جئ بها لإرادة معنى الوصفية ، فيقول : (هذا باب ما جاء من الكلم على حرفين .... ومنها " ما " وهي سؤال عن ذات غير الآدميين ، وعن صفات الآدميين ، وقع في جميع مواضع " من " وإن كان معناها ما وصفتُ لك .... ويكون سؤالاً عن جنس الآدميين إذا دخل في الأجناس ، أو تجعل الصِّفة في موضع الموصوف ... فإنَّ " ما " على هذه الشريطة [١] ، تقع على الآدميين لإبهامها [١] قال الله عز وجل {إِلَّا

(١)أي بشريطة جعل قوله تعالى : {أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} محمولاً على الصَّفة ، أو الوصف الدَّاعي إلى عدم حفظ الفروج ، وكأنَّ المعنى : (إلاَّ على أزواجهم أو المملوكين لهم ملك يمين) ، وعلي هذا المعنى تكون " ما" واقعة على صفات من يعقل ، وجنسه ، لا على ذاته وشخصه – وينظر : شرح المُفصَّل لابن يعيش – المجلَّد الأول جـ ٣ ، ص ١٤٥ ، وينظر أيضاً : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري – تحقيق د /مازن المبارك ، ومحمد على حمد الله جـ ١ ، ص ٤٠٥ نشر / دار الفكر – بيروت ط / سادسة ١٩٨٥ م ، والبرهان للزركشي جـ ٤ ، ص ٣٩٩ .

عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، فـ " ما " ههنا للآدميين ، وكذلك تقول : رأيت ما عندك في معنى " الذي " ....." [٢] .

وكذلك حكي المُبرَّد عن غيره ما يفيد أن " ما " وصلتها في تأويل مصدر ، حيث يقول : ".... وقد قيل في قوله عز وجل [٣] ، معناه (أو ملك أيمانهم ، وكذا قيل في قوله عز وجل : {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} [٤] ، أي : وبنائها ، وقالوا : والذى بناها " [٥] " [٦] .

وخير مَنْ كشف لنا عن بلاغة التعبير بـ (ما) في الآية الكريمة هو الإمام " الزمخشري " فقد كان له رَأْيٌ آخر ، حينما رَأَىَ أنَّ التعبير بـ (ما) دون (مِنْ) في الآية الكريمة ، إنَّما كان على سبيل تنزيل (مِلْك اليمين) منزلة من لا يعقل فيقول : " فإن قُلْتَ : هلَّا قيل : (من مَلَكَت) ؟ قُلْتُ : لأنَّه أرُيد من جنس العقلاء ما يجري مجري غير العقلاء ، وَهُمْ [٧] ، الإناث " [٨] .

---

(١) ذلك على اعتبار أنَّ (ما) من الموصولات ، وهو اسم مبهم ، دال على العموم ، ويقع على جنس فلا يصح تعيينه ، وأنَّ ما بعده (ملكت أيمانهم) وإنَّ لم يكن مُعيِّناً – فقد جاء مفسَّراً له ، ورافعاً لإبهامه – ينظر : البرهان الزركشي جـ ٤ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، وبدائع الفوائد جـ ١ ، ص ١٤٢

(٢) المقتضب لأبي العباس يزيد المُبرَّد – تحقيق / محمد عبد الخالق عظيمة جـ ١ ، ص ٤٢ نشر / عالم الكتب – بيروت – لبنان ١٤٣١ ه ، ٢٠١٠ م ، وينظر : بدائع الفوائد جـ ١ ، ص ١٣١

(٣) أي في قوله تعالى : { أو مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ } .

(٤) الآية ٥ من سورة المؤمنون .

(٥) ذلك على أنَّ " ما " في الآية المذكورة بمعني : " الذي " ، وهذا يعني انَّ " ما " و " من " الموصولتين قد تتعقبان ، وأنَّ إحداهما تصلح في الموضع الذي تصلح فيه الأخرى .

(٦) المقتضب جـ ١ ، ص ٤٢ ، وينظر : الصَّاحبي لابن فارس – تحقيق د / عمر فاروق الطَّباع ص ١٧٥ ، نشر / مكتبة المعارف – بيروت – لبنان – ط أولي ١٤١٤ ه ، ١٩٩٣ م .

(٧) هكذا في الكشَّاف (هم) ، وهذا الضمير عائد على (العقلاء الإناث) كم هو واضح من كلام الزمخشري ، وإلَّا فكان عليه أن يقول : (" هو " على لفظ " ما " ، أو " هُنَّ " على معنى "ما") – الدُّرُّ المصون جـ ٨ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٨)الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧٣ .

وقد وضَّح لنا الإمام " الرَّازي " السَّرَّ فيما ذهب إليه العلَّامة " الزَّمخشري من أنَّ إطلاق " ما " قرينة دالَّة على إرادة إجراء (ملك اليمين) مجري (غير العقلاء) ، يقول الرَّازي مشيراً إلى السِّرِّ في ذلك : (هَلَّا قيل : من مَلَكَت ؟

الجواب : لأنَّه اجتمع في السُّرِّيَّة [١]، وصفان : أحدها : الأنوثة ، وهي مظنَّة نقصان العقل [٢] ، والآخر كونها بحيث تُباع وتُشتري كسائر السِّلع ، فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنَّها ليست من العقلاء " [٣] .

ومن خلال ما سبق ذكره من آراء للعلماء في إيثار " ما " على (منْ) في الآية الكريمة نُدرك أنَّ الأولى لها دلالتها ووحيها الخاص في التعبير بها ، وأنَّ المقام هو الذي تطلَّبها ، وأنَّ كُلَّ ما قاله العلماء في ذلك الإيثار صحيح ومعتبر[٤]، ومعتبر[٤]، وأنَّه من اللطائف الدَّالة على كشف أسرار العدول عن التعبير بـ (من) في النظم الكريم ، وأنَّ الحرْف المُختار هو الأنسب للمعني ، والله – تعالى – أعلم بمراده .

وإن كنت أضيف إلى ما سبق ذكره أن المجئ بـ (ما) دون (اللاتي) إنَّما كان باعتبار أنَّ الأزواج أكثر شهرة من ملك اليمين ، ذلك إلى جانب أنَّ

---

(١) السُّرِّيَّة : مرد سِراري ، والمقصود بها : الجارية المُتَّخَذة للملك والجماع ، وسُمِّيت بذلك ، نِسْبة إلى السِّر ، وهو الجماع ، وآخرون على أنَّها موضع سرور الرَّجل ، وضُمَّت السين للفرق بين الحُرَّة والأمة توطأ ، فيُقال للحرَّة إذا نُكحت : سِرَّاً ، أو كانت فاجرة سِرِّيَّة ، وللملوكة يتسرَّاها صاحبها سُرِّيَّة مخافة اللبس (ينظر : لسان العرب جـ ٦ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ – سرر) .

(٢) ونقصان العقل راجع إلى ما أخبر به رسول الله ﷺ عن ذلك في أحاديث كثيرة ، ومن بينها : ما رواه أبو سعيد الخُدْرِيَّ– رضي الله عنه – أنَّ رسول الله ﷺ قال مُخاطباً النساء : ... (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرَّجل الحازم من إحداكُنَّ ، قلنه ، وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : فذلك من نقصان عقلها ....) صحيح البخاري جـ ١ ، ص ١٥٨ (كتاب : الحيض – باب : ترك الحائض الصوم – الحديث رقم ٣٠٤) .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ١ ، ص ٣٤٨ – نشر / دار الغد العربي ط / أولي ١٤١٢ ه – ١٩٩٢ م ، وينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ٣ ، ص ٢٣٩٤ ، ومغني اللبيب جـ ١ ، ص ٤٠٥ .

(٤) ذلك على اعتبار أنَّ النكات البلاغية لا تتزاحم .

التعبير بـــ (ما) أكثر إيجازاً في تركيبها مِمَّا لو قيل مثلاً : (إلَّا على أزواجهم أو اللاتي ملكت أيمانهم) .

ومن دقة الأسلوب القرآني التعبير بالماضـــي (مَلَكَـــتْ) دون المضـــارع (تَمْلِكُ)؛ إذ إنَّ الأوَّل فيه دلالة على أنَّ الحَدَث (التَّمْلُّك) وإن كان قد تحقَّق وقوعه بالفعل في الماضي ، إلَّا أنَّه غير قابل للاستمرار ؛ باعتبار أنَّ المبدأ الأساسي في الإسلام هو المساواة بين البشر ، ومن ثم فقد عمِل على تحرير الأرقـــاء ، عـــن طريق العتق ، أو المُكاتَبة ، وإنفاق المال الاستطاعة في سبيل تحريرهم [١] ، ولا شك في انَّه لو كان التعبير بالمضارع (تملِكُ) لكان المُراد هو الدَّلالة على استمرار الحدَث وتجدُّده في المُستقبل ، وهذا مُنافٍ للمقصود الذي ذَكَـــرْتُ ، وكـــذلك لـــو جاءت الصيغة بالمصدر وقيل : (أو مِلْكِ أيمانهم) لدَّل على أنَّ المراد هو " نفـــس الحدَث بقطع النَّظر عن زمانه" [٢] ولكان كلاماً غير مستقيم ؛ لأنَّه لم يف بالمُراد على نحو ما مَرَّ بيانه .

هذا ، وفي قوله تعالى { أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} أُسند الملك إلى الأيمـــان ، على الرَّغم من المالك هو نفسه لا يمينه ؛ " لأنَّ الإنسان في الأغلب إنَّما يقـــبض المال المَستحَقَّ بيمينه ، ويأخذ السِّلعة المملوكة بيده "[٣] ، وهي صـــفة مـــدح ،

---

(١) ولا أدلَّ على ذلك من الآيات الواردة في هذا الشأن ، ومن بينها : (الآيات المرقومـــة) بـــــ (٩٢ ، ٩٣ / النساء ، ٨٩ / المائدة ، ٥/ المجادلة ، ١١ : ١٣ / البلد) ، وقد جاء في البيان النبوي أنَّ رسول الله ﷺ قال : " منْ أعتق شرْكاً له في مملوك وجب عليه أن يُعتِقَ كُلَّـــه ، إن كان له مال قدْر ثمَنِه يُقام قيمة عَدْلٍ ، ويُعطي شركاؤه حصَّتهم ويُخلِّي سبيل المُعتَق " – صحيح البخاري – جـــ ١ ، ص ٢٩١ (كتاب : الشركة – باب: الشركة في الرقيق – الحديث رقـــم ٢٥٠٣ ، وينظر : الحديث ٢٥٠٤) ، وينظر : الأحاديث الواردة في كتاب العتق – باب : فـــي العتق وفضله ، والمرقومة بـــ (٢٥١٧ ، ٢٥١٨ ، ٢٥٢١ : ٢٥٢٧) وكذا الأحاديث الواردة في نفس الكتاب تحت باب : (بيع الولاء وهبته – ومن بينها الحديث رقم ٢٥٣٦) وممَّـــا ورد في هذا الشأن أيضاً الحديث رقم ٢٥٤٧ (باب : العبد إذا أحسن عبادة ربِّه ونصـــح سـيِّده) ، والواردة في كتاب : المكاتب أرقام (٢٥٦٠ : ٢٥٦٥) .

(٢) بدائع الفوائد جـــ ١ ، ص ١٤٢ .

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص ٣٣ – نشر : عـــالم الكتـــب / مكتبـــة النهضة المصرية – أولي ١٤٠٦ ه – ١٩٨٦ م .

واليمين مخصوصة بالمحاسن لتمكُّنها ألا تراها أنَّها المُنفقة كما قال ﷺ : "حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" [١] ، وهي المعاهِدة المُبايعة ، وبها سُمِّيت الآلية يمينا[٢] ، وهي المُتلقية لكتاب النجاة [٣]، ولرايات المجد ، وقد نهي ﷺ عن استعمالها في الاستنجاء [٤]، وأمر المرء بالأكل بها[٥] [٦] ، فاللهم اجعلنا من أهل اليمين .

وقوله { فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} جاء على سبيل التعليل لما يفيده الاستثناء الوارد في صدر الآية { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} ، والدَّال على عدم حفظ الفروج من هذين النوعيْن، وعلى هذا يكون المعنى " فإنهم غير ملومين

---

(١)جزء من حديث رواه الإمام أبو هريرة – رضي الله عنه – حيث قال : (قال ﷺ : سبعة يُظلَّهم الله في ظلِّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه ، إمام عادل ، وشابٌ نشأ في عبادة الله ، ورجُلٌ قلبه معلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتي يعود إليه ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرَّقا ، ورجُلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجُل دعته ذاتُ منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلمُ شماله ما تنفق يمينه – الموطأ للإمام مالك – تحقيق / محمود بن الجميل ص ٥٥٨ (كتاب : الشَّعَر – باب : ما جاء في المتحابين في الله – الحديث رقم ١٧٢٩) .

(٢) في لسان العرب : " والمرأة : آلِيَةٌ ، وجمعها أوال ، والألْوة والألْوة ، والإلْوة ، والآلِيَّة على فعليه والأليَّا ، كُلُّه : اليمين ..... وآليْتُه على حذف الحرف : أقسمتُ " – جـ ١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ (ألا) .

(٣) وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى : {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} – الآيات (١٩ : ٢٤) من سورة الحاقة – وقوله تعالى {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} – الآيات (٧ : ٩) من سورة الانشقاق .

(٤) وذلك حينما قال ﷺ : " إذا بال أحدكم فلا يأخذن ذكره بيمينه ولا يستنج بيمينه ، ولا يتنفس في الإناء " . صحيح البخاري جـ ١ ، ص ٩٩ – (كتاب الوضوء – باب : لا يمسك ذكره بيمينه إذا بال – الحديث رقم ١٥٤).

(٥) فقد روي عن عُمَر بن أبي سلمة أنه قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصَّحفة فقال لي رسول الله ﷺ : (يا غلام سَمِّ الله وكُلْ بيميكن ، وكُلْ مما يليك) . السابق جـ ٣ ، ص ٧٠٩ (كتاب : الأطعمة – باب : التسمية على الطعام والأكل باليمين – الحديث رقم ٥٣٧٦) .

(٦) المُحرَّر الوجيز جـ ٢ ، ص ٩ (تعليقاً على الآية رقم ٣ من سورة النساء) .

على عدم حفظها منهنَّ " [١] ؛ لأن الله – عزَّ وجل – أحلَّ لهم ذلك ، وبذا يكون الإيجاز بالحذف واضحاً في الآية الكريمة .

وبالإضافة إلى التعليل المذكور يمكن القول : بان الجملة الكريمة جاءت على سبيل الوصف المُحقّق لهؤلاء الحافظين لفروجهم إلَّا على أزواجهم أو على ما ملكت أيمانهم ، وفائدة ذلك الوصف هي " فائدة الوصف المُبيِّن للموصوف المُكمِّل له " [٢] ، وكأنَّ الله – عز وجل – أراد أن يُبيِّن لنا أنهم موسومون بشيئين؛ زيادة في الثناء عليهم ، والمدح لهم .

أحد الوصفيْن : وصف ثبوتي ، وهو كونهم حافظين لفروجهم عمَّا لا يحلُّه الله – عز وجل لهم .

الوصف الثاني : وصفٌ سلبي ، وهو كونهم غير مستحقين لوصف اللَّوْم ؛ لأنَّهم مُغايرون لأهل هذا الوصف [٣] .

وهذا يعني أنَّ لفظة (غير) جاءت واقعة بين متضادَّيْن (حافظون) ، و (ملومين) ؛ للدّلالة على أنَّ الحافظون لفروجهم إلَّا على ما ذُكر صنف آخر مغاير للملومين الذي يبتغون وراء الزوجات وملك اليمين .

وعلي هذا يكون " الإتيان بلفظة (غير) في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المُغايرة المطلوبة " [٤] مما لو قيل مثلاً : (فإنهم ليسوا بملومين) ، أو قيل (فإنَّهم لا يُلامون) ؛ إذ إنَّ كُلَّاً من القوليْن المذكوريْن لم يُفد أكثر من نفي اللوم ،

---

(١) تفسير أبي السعود جـ ٤ ، ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ٢٥ .
(٣) وهم الذين قال الله – عز وجل – بعد ذلك في شأنهم : {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} – الآية ٧ من سورة المؤمنون ، وينظر : بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ٢٤ تعليقاً على قوله تعالى : {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} . الآيتان (٦ ، ٧) من سورة الفاتحة .
(٤) بدائع الفوائد جـ ٢ ، ص ٢٤ .

الأول يُفيد نفي جنس اللوم في الحال ، والثاني يفيد نفي اللوم في المستقبل ، ولم يدُل أيٌّ منهما على المغايرة المذكورة .

وجاءت جملة التعليل (فإنهم غير ملومين) مصدَّرة بـ (فاء) السَّببية ، و (إنَّ) ، واسمية الجملة ذاتِ الخبر الاسمي ؛ كُلُّ ذلك للدلالة على قوة تأكيد عِلَّيَّة الحُكم بعدم اللوْم ، على الحافظين لفروجهم " في جميع الأحوال إلَّا في حال تزوُّجهم أو تسريهم " [١] ، وثبوت ودوام استحقاقهم للحكم المذكور ، ولوصفهم بما وُصِفوا به ، ما داموا بعيدين كُلَّ البُعد عمَّا حرَّمه الله – عز وجل – عليهم .

ثم إنَّ (الفاء) ، وإنْ كانت تغني عنها (إنَّ) إلَّا أنَّه لمَّا كان الأمر يتعلَّق بالعفَّة والشرف ، وصيانة الأعراض من الأدناس والأرجاس ، وعدم التساهل في ذلك جئ بـ (الفاء) الدَّالة على المسارعة ؛ للإشارة إلى قوَّة استحقاق الموصوفين للحُكم عليهم بعدم اللوم ، ذلك على وجه السُّرعة بمجرَّد تنفيذ أسبابه، المتمثِّلة في فقدان الحفظ على الأزواج ، وملك اليمين دون غيرهنَّ ، ومن ثم يزداد الاستحقاق المذكور تأكيداً على تأكيد ؛ حثًّا للنفوس على التَّمسُّك بموجباته .

أضف إلى ذلك ما في هذه (الفاء) من إيحاء بأنها واقعة في جواب شرط مقدَّر أفصحت عنه ، وبذا يكون التقدير:" فإنْ حفظوا فروجهم إلا على أزواجهم أو إمائهم فإنَّهم غير ملومين" [٢] .

هذا ، والمفسَّرون على أنّ قوله (غير ملومين) يشى بأنَّ الجار في قوله تعالى : {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ} مُتعلَّق بمحذوف ، و " كأنَّه قيل : يُلامون على كُلَّ من

(١) الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧٢ .
(٢) ينظر : روح المعاني جـ ١٧ ، ص ١٠ ، ١١ .

يُباشرونه إلَّا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم ، فإنَّهم غير ملومين عليهنَّ"[١]، وعلي هذا يكون الكلام من باب الإيجاز .

ولكن لماذا قال تعالى {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} ، ولم يقُلْ مثلاً (فإنهم غير مذمومين) ؟

أجاب عن ذلك صاحب (روح البيان) بقوله : (إنَّ الذَّمَّ يختص بالصِّفات، يُقال : (الكفر مذموم) ، واللوم يختصُّ بالأشخاص ، يُقال: (فلان ملوم) [٢] .

وبعد ذلك تحدَّث الحقُّ- تبارك وتعالي – عن فريق آخر من الناس يُطلق العنان لشهواته بلا ضابط ؛ باعتبار أنَّ تلك الشهوات عميقة في حسِّ هذا الصِّنف من الناس ، واغلةٌ في أعماق قلبه ، متغلغةٌ في دواخل نفسه ، فقال سبحانه ، مُحذِّراً إيَّاهم من خلال بيان صفتهم :-

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [٣]

فقد جاءت هذه الآية الكريمة في موضعها مراعاةً لحال النَّفس المُخاطبة ، وكأنَّ هذه النَّفس لمَّا أُخبرت قبلاً ، بانَّ من صفات المؤمنين حفظ فروجهم { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} انتقل الذِّهن مُباشرة إلى حكم من يبتغ غير ذلك ، فجاءت الآية المذكورة لبيان هذا الحكم ، ولبيان أنَّ هُناك فرقاً شاسعاً ، وبوناً واسعاً بين هؤلاء المبتغين الذين يتجاوزون حدود الأدب ، فلا يحفظون فروجهم عما حرَّم الله – عز وجل – وبين أولئك الذين لا يُلامون على صنيعهم – على نحو ما مرَّ بيانه ، وأنَّ الموازنة بين هؤلاء وأولئك قوية ، وجليَّة ، إذ إنَّ

---

(١) ينظر : الكشاف ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ومفاتيح الغيب المجلَّد الحادي عشر جـ ٣٤٧، وغرائب الفرقان جـ ٣ ، ص ٢٣٩٤ .
(٢) روح البيان جـ ٦ ، ص ٦٨ .
(٣) ينظر : الكشاف ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ومفاتيح الغيب المجلَّد الحادي عشر جـ ٣٤٧ ، وغرائب الفرقان جـ ٣ ، ص ٢٣٩٤ .

هؤلاء (مُعادون متجاوزون الحدود) ، بينما الآخرون (غير ملومين) ، ولاشك في أنَّ تلك الموازنة تدفع هؤلاء المُبتغين دفعاً إلى الاتصاف بما ينفعهم ويُفيدهم ، وإلَّا فإن استمرارهم على ما هم فيه يؤدِّى بهم إلى وادي المهالك في دُنياهم وأُخرهم ، ذلك بالإضافة إلى أنَّ الموازنة المذكورة تجعل المؤمن الحقَّ بين خياريْن ، فيتبعُ أيَّ السُّلوكين أفضل ، ويسعي إلى تحقيقه ؛ حتَّى يخرج عن دائرة اللَّوْم المُسبَّبة عن العدوان ، ومجاوزة الحدود .

والحكم الذي تضمَّنته الآية الكريمة يحمل في طيَّة إنذاراً وتحذيراً لهؤلاء الذين يتجرأون على حُرُمات الله – عز وجل – " فتطغى بهم شهواتهم إلى أنْ تُخرجهم عن حدود الأدب والسَّنن" [١] الذي رسمه الله تعالى لمن أراد الفلاح في الدُّنيا والآخرة .

على أنَّ التَّحذير المذكور جاء في صورة فنية لها دورها في تنفير النفوس من هؤلاء المتجرئين الشهوانيين ، حيث صوَّرتهم بلاغة الآية الكريمة في صورة مقزِّزة ، حينما وصفتهم وصفاً صريحاً بأنَّهم عادون مجاوزون لحدود الله – عز وجل – (فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) ؛ ليكون هذا الوصف منفِّراً من سلوكهم غير السَّويِّ، والكريه ؛ لبشاعته ، ولشدَّة فظاظته وفظاعته ، وفائدة أخرى يشئ بها هذا الوصف ، وهي الإيماء – عن طريق التلميح لا التصريح – بالمدح والثناء للموصوفين بحفظ الفروج عمَّا لا يحلُّ .

ومن أجل ذلك كُلَّه جاء قوله تعالى : {فَمَنِ ابْتَغَى...} مرتبطاً بما قبله بـ (الفاء)، لا بـ (الواو) ؛ لِما في الأولى من دلالة على (تفاوت ما بين رتبتين) [٢] متقابلتين ، وقد جئ بها هُنا لبيان أنَّ ثمة تفاوتاً شديداً في الرُّتبة بين الفريقيْن (الْحَافِظِينَ لفُرُوجَهُمْ) و (غيرهم) ، أو بالأحري بين المعنى المترتَّب على ما قبل

(١) ينظر : تفسير المنار جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .
(٢) البرهان في علوم القرآن جـ ٤ ، ص ٢٩٧ .

(الفاء) ، وبين المعنى المترتَّب على ما بعدها ، إذ إنَّ الأول يتضمَّن مدحاً (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) ، والثاني يتضمَّن ذَمَّاً (فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) ، فالمعنيان متضادَّان ، والضَّدُّ يُظهر حسنَه الضَّدُّ ، ومن ثم جاء الاتساق بينهما بـ (الفاء) المُصدَّر بها النَّظم الكريم ، والمشعِرة بتعلُّق أحد المعنيين بالآخر من حيث الضِّدِّية التي تُميِّز بينهما .

وممَّا ينبغي التفطُّن إليه أيضاً : هو أنَّ (الفاء) المذكورة لها دوْرٌ بارز في أداء المعنى بأسلوب دقيق وموجز ، يستهدف التركيز وعدم التَّكرار المُمل في الكلام ، حيث إنَّ هذه (الفاء) جئ بها ؛ بغية الإفصاح عن شرط محذوف ، كأنَّه قيل : (إذا عرفتم أنَّ من صفات المؤمنين المفلحين حفظ فروجهم { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} ، وأنهم غير ملومين في ذلك ، وأردتم بيان الحكم على مَنْ لم يحفظ فرجه على غير الصِّنفيْن المذكوريْن ، فأقول لكم [١] : {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [٢] .

ويمكن أن تكون (الفاء) في قوله {فَمَنِ ابْتَغَى...} استئنافية ؛ للدلالة على عدم مشاركة ما بعدها لما قبلها ، وعلي أنَّ هؤلاء المبتغين غير داخلين في حكم قوله تعالى :{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ...} ؛ لأنَّ الجمع بينهما منتف ، من حيث إنهما متضادَّان ، فبينهما افتراق .

وبعد ذلك يأتي دور قوله تعالى : {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} ، واضعاً بين أيدينا تحذيراً ونهياً بارزيْن ، بصورة تبيَّن لنا العاقبة المترتَّبة (على دَنَس المُباشرة في غير حلال ، وعلي عدم حفظ القلوب والأعين

(١) ينظر : تفسير حدائق الرَّوْح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ العلاَّمة : (محمد الأمين بن عبدالله الأرمِي العلوي الهَرَرِيّ الشافعي) – إشراف ومراجعة : د / هشام محمد على بن حُسين ههديَ جـ ١٩ ، ص ٤٥ ط / دار طوق النجاة – بدون تأريخ .
(٢) الآية ٧ من سورة المؤمنون .

من التطلُّع إلى غير حلال ، وعلي انطلاق الشهوات بغير حساب)[١] ، وقد كان ذلك كُلُّه بطريقة يغلب عليها حسن الحذف ، وبلاغة الإيجاز .

بيان ذلك :

لقد جاء التعبير المذكور في بينة أسلوب الشرط الذي يربط السبب بالنتيجة ، وكانت أداة هذا الأسلوب هي (مَنْ) الدَّالة على الإحاطة والعموم والشمول ؛ إذ إنَّ المتأمَّل في جملة فعل الشرط (فمن ابتغي) نجد أنَّ المُقْتَضَي الذي تضمَّنته يصدق على كل مبتغ ، سواء أكان هذا الابتغاء لنفسه أم لغيره ، في كُلّ زمان ومكان ذكراً كان أو أنثي [٢] ، دون تفرقة بين إنسان وآخر ، بصرف النَّظر عن مكانته ، بدليل صيغة الجمع الواردة بعد في جواب الشرط : {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} .

ويصحُّ أن تكون (مَنْ) في الآية الكريمة (اسم موصول) مُشْرَبٌ بدلالة الشرط ، وجملة (ابتغي) صلته ، ويسوِّغ اعتبارها اسم موصول وجود قسيمه في الآية التي قبلها {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } [٣] .

وعلي هذا الاعتبار أيضاً تكون (مَنْ) دالة على العموم [٤] ، مِمَّا يجعل الحُكم المستفاد منها عامَّاً وشاملاً أيَّ مبْتغ ، حيث إنَّه لم يُرد تعيين هؤلاء المبتغين بأعينهم ؛ ولذلك لم يُعبر عنهم بـــ (الذين) ، فلم يقل مثلاً : (فالذين

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن المجلد الرابع .

(٢) وذلك لأنَّه قوله تعالى {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} ليس خاصاً بالرِّجال وحدهم ، ولا بالنساء وحدهُنَّ ، وإنَّما هو (مشترك بينهما) ؛ لأنَّ المعنى : فمن ابتغي من الرِّجال وراء ما أبيح له من التزويج وملك اليمين ، ومن النساء ما أبيح لهُنَّ من التزويج دون ملك اليمين ". البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٢٠٦ .

(٣) الآية ٥ من سورة المؤمنون .

(٤) أي أنها (اسم موصول) يشمل كُلَّ عاقل ، مفرداً ، ومثنَّىً وجمعاً ، مذكَّراً كان أو مؤنَّثاً ، وبهذا تكون (مَنْ) موصولاً مشتركاً قد اختصرت ، وأوجزت ، والبلاغة الإيجاز .

ابتغوْا وراء ذلك فأولئك هم العادون) ، ذلك على سبيل الترغيب في وجوب (الإعراض عنهم ، وترك الالتفات إلى ذاتهم)[١] ؛ لسوء صنيعهم ، فلهذا أوثر التعبير عنهم باسم الموصول (من) الدَّال على العموم ، دون تعيين بلفظ (الذين) ، فبيَّن سبحانه أنَّ هؤلاء المبتغين ، فئة أخرى مذمومة ، لا تستحق تعيينها بذاتها ؛ ليخرجهم بذكر الابتغاء – عن الفئة السابقة الموسومة بحفظ الفروج ، والمُخبر عنها بالفلاح ، والمستحقة له ، ولذلك لم يؤت بـ (واو) العطف ، وإنما جئ بـ (الفاء) فقال سبحانه {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} – على ما مرَّ بيانه – نَصَّاً في صلة الموصول " على سبب استحقاقه للحكم عليه بما يليه " [٢] .

ولنا أنَّ نتأمَّل قوله { ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ} ، إذ إنَّ المعنى : من ابتغي العدوان على الأعراض ، متجاوزاً الحدَّ فـ " التمس وطلب [٣] سوي زوجته وما ملكت يمينه " [٤] .

وقال (فَمَنِ ابْتَغَى) بصيغة (افتعل) ، دون أن يُقال مثلً (فمن أراد) ، أو (فمن كانت بغيته) ، ذلك لما في معنى (ابتغي) على وزن (افتعل) من دلالة على أنَّ مثل هذا الصنيع " لا يقع إلَّا عن إقبال عظيم من النفس ، وإجتهاد في الطلب " [٥] ، فهو يحتاج إلى المبالغة في الاهتمام ، والاعتماد ، والمعاناة في السعي ، وفي تعمُّد المُحاولة من أجل إشباع ما يدور في خلجات النَّفس الإنسانية، ونوازعها ، وتضاعيفها من رغبة في التَّلَذُّذ الذي تشتهيه ، وهي منجذبة إليه

---

(١) نتائج الفكر ص ٣٠٥ .
(٢)أسلوب الدعوة القرآنية (بلاغة ومنهاجاً) للدكتور عبد الغني محمد سعد بركة ص ٢٧٤ ، – نشر / مكتبة وهبة – ط / أولي ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .
(٣) وذلك لأن الابتغاء في اللغة : الاجتهاد في الطلب ، سواء أكان هذا الطلب محموداً أو مذموماً ، يُقال (بغي الرَّجُلُ حاجته أو ضالته يبغيها بُغاءً وبُغية إذا طلبها)) – لسان العرب جـ ١ ، ص ٤٥٦ (بغا) ، وينظر : المفردات جـ ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ (بغي) .
(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن جـ ١٨ ، ص ٤٤٦ .
(٥).نظم الدُّرر جـ ٨ ، ص ١٥٤ [تعليقاً على قوله تعالى : {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} الآية رقم ٣١ من سورة المعارج] .

وأمَّارةٌ به ، وهذا يعني أنَّ الابتغاء المذكور من الأحداث التي تنجذب إليها النفوس، وتكون موضع تعلُّقها واهتمامها [١] ، وأنَّه لمَّا كان عدم حفظ الفروج ، ولو من طريق حرام ، مِمَّا تشتهيه الكثرة الكاثرة من النفوس البشرية ، ومِمَّا تهفوا إليه ، وتتنازعه " كانت في تحصيله أعمل وأجدَّ " [٢] ، ومن ثمَّ كان (ابتغي) هُنا أنسب .

ومن عجائب التراكيب في الآية التعبير بالماضي (فَمَنِ ابْتَغَى) دون المضارع (فمن يبتغى) ، وما ذلك إلَّا لدلالة الأوَّل على أنَّ (الابتغاء) أمر مُحقَّقٌ، ومُقرَّر ثبوته بكثرة كاثرة ، على مدار الزَّمان والمكان ، في أصحاب النفوس المريضة التي تتسق والطبيعة البشرية ذات القلوب التي رانت عليها شوائب اللذات والأغراض المدخولة ، والوسائل المرذولة .

ثم إنَّه قال { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ } ولم يُقل مثلاً :(فمن ابتغى منهم وراء ذلك) ؛ للإشارة إلى أنَّ المبتغي ، أعمُّ من المؤمن ، فقد يكون من أهل الإيمان ، وقد يكون غير ذلك ، ومن هُنا جاء الحكن بالمُعاداة (فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) على كُلَّ من تُسوَّل له نفسه الابتغاء ، سواءٌ أكان مؤمناً أم غير مؤمن ، فليس الحكم مقصوراً على فئةٍ معيَّنة من الناس ، أو على طائفة دون أخرى ، ولمَّا كان هذا المعنى هو المقصود – والله أعلم – اقتضت بلاغة الآية الكريمة حذف اللفظ (منهم) .

أضف إلى ذلك أنَّ الفعل (ابتغي) يتضمن معنى :(ابتغي مجاوزة الحدَّ) باستمتاع غير مُباح ، سواءٌ أكان بكشف عورته ، وعدم حفظ فرجه على ما لا

---

(١) ينظر : الكشاف جـ ١ ، ص ٣٢٧ ، (تعليقاً على قوله تعالى : {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} من الآية رقم ٢٨٦ ، وينظر : شرح مُختصر التصريف للعزّي (في فن الصرف) لـ (مسعود بن عمر سعد الدين التفتازاني) شرح وتحقيق / عبد العال سالم مكرم ص٤٠ – نشر / المكتبة الأزهرية للتراث ، وينظر أيضاً : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٨٤ .
(٢) الكشاف جـ ١ ، ص ٣٢٧ .

يحلُّ له ، أم بغير ذلك ، ولكن أكتُفي بذكر الفعل (ابتغي) مع حذف المفعول [١] ؛ ذلك للاختصار والإيجاز ، وفي الوقت نفسه للإبهام ؛ لاستهجان التصريح بذكر مَا حُذِف مع علم المُخاطب به ، من خلال الآية المذكورة قبلاً { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ....}" [٢] .

فإن قيل : ما فائدة الجمع بين قوله تعالى { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [٣] ، وقوله تعالى : {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [٤] ؟

أليس التصريح بالقول الأوَّل يغني عن التصريح بالثاني ، باعتبار أن الآية السابقة تدل على ما تتضمَّنه الآية اللاحقة من معنى بالتبعية أى بطريق المفهوم ؟

والجواب عن ذلك يمكن أن يكون من ثلاثة وجوه :

الأول : إنَّ المقام (مقام التقرير والإيضاح ، وتأكيد القيم " [٥] والمُثل العليا المُتعلَّقة بصيانة الأعراض ، وستر العورات ، وعدم هتك السُّتور ، وكُلُّ ذلك اقتضي أن يكون معه تأكيد معنوي ، فجي بالآيتين معاً ، ليُفهم من خلالهما أنَّ معنى الآية الأولى هو لازم الثانية ، وأنَّ معنى الآية الثانية هو لازم

(١) ذلك بناءً على ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن لفظ (وراء) الوارد في قوله تعالى {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ } ظرف لا يصلح أن يكون مفعولاً به ، وإنَّما هو سادٌّ مسدَّ المفعول به " – روح المعاني جـ ١٧ ، ص – وإلَّا فإنَّ الإيجاز واقع في لفظ (وراء) نفسه ، باعتبار أنَّه يستوعب الكثير من المعاني على نحو ما سيأتي بيانه ، مع ملاحظة أنَّ من أهل العلم من ير أنَّ اللفظ المذكور منصوب على أنه مفعول الفعل (ابتغي) – ينظر : السابق ، وينظر : التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٥ ، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ٦٧١ .
(٢) الكشاف جـ ١ ، ص ٣٢٧ .
(٣) الآية ٦ من سورة المؤمنون .
(٤) الآية ٧ من سورة المؤمنون .
(٥) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ٢٢٨ .

الأولى " والتصريح بهما معاً كذكر المعنى مرَّتيْن ، أحدهما لفظاً ، والآخر لزوماً ؛ لزيادة الترغيب [١] ، والترهيب [٢] " [٣] .

الوجه الثاني : زيادة الإيضاح والبيان ، من خلال ما تضمَّنته الآية الثانية من أنَّ الأمر ليس مقصوراً على حفظ العورات عما حرَّم الله – عز وجل – وفقط ولكن الأهم من ذلك هو : اجتناب نوازع الهوي والنفس والشيطان ، تلك النوازع المؤدَّية إلى الوقوع في المحظور بمجرَّد التفكير في الابتغاء الذي يشمل كُلَّ المسالك الموِّصلة إلى أيٍّ تلذُّذ مُحرَّمٍ ، صحبه كشف عورة أو لم يصحبه، فهو إذاً ابتغاء بمعناه الواسع على نحو ما سيأتي تفصيله بعد قليل .

الوجه الثالث : أنَّ الآية الثانية فيها إشارة إلى مدي فداحة هذا الابتغاء ، عن طريق بيان جزاء هؤلاء المبتغين ، استعظاماً لصنيعهم ، وتنفيراً عن ارتكابه ، وما ينبغي أن يُحتاط له ؛ مجافاةً لهذا الصنيع ، ولا يخفى ما في ذلك من إشباع للمعني ؛ إذ إنَّ الجزاء المذكور يقطع الطريق على أى مبتغ ؛ حتي لا يتهاون في مثل ذلك الأمر، ولا يتورَّط فيه، وإلَّا فإنَّ عاقبته تكون وخيمة .

وبذا ندرك أنَّ الآيتين متلازمتان ، وأنَّ كُلاًّ منهما مُكمِّلة للأخري ، وأن الآية الثانية بها تلويحات " ببث الحذر في قلوب المؤمنين ؛ حتي تستقيم نفوسهم على الجادَّة " [٤] ، ولا غرو في ذلك ، فإنَّ القرآن الكريم " كتاب تهذيب وتقويم ، وطريقته في التهذيب والتقويم هي النَّفاذ إلى النفس الإنسانية وقيادتها ، وإقامتها

(١) أي الترغيب في صيانة الأعراض ، وحفظ العورات إلَّا فيما أحلَّه الله تعالى .
(٢) أي الترهيب عن كشف العورات فيما يُغضب الله عز وجل .
(٣) السابق .
(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٦٥ .

قيِّمةً على نفسها ، وطريقة التلويح والإيحاء طريقة لا تخطئ في النفاذ إلى النفس وإيقاظها والتأثير فيها " [١] .

ومِمَّا لا يجوز التجاوز عنه دون التنبيه إليه هو : أنَّ القرآن الكريم قال {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ} ولم يقل مثلاً (فمن لم يحفظ فرجه على غير زوجه أو ما ملكت يمينه) ؛ للدلالة على أنَّ مَنْ ينوي مجرَّدَ الابتغاء ، أو الطَّلَب ، أو السعي إلى فعل ذلك ، وإن لم يفعل يكون قد تجاوز الحدَّ ؛ إذ إنَّ من تاقت نفسه ، ونازعت إلى نيل عدم الحفظ ، ومالت طباعة إلى شهوة بمواقعة غير الزوجة ، أو ملك اليمين ، وتعلَّق ذلك بخاطره ، وعزم على الفاحشة ، متلذِّذا بذلك ، وأضمر ذلك في قلبه ، وإنْ كانت المشتهاة مكروهة من قِبَله ، أو إن لم يتمكَّن من الفعل ؛ خوفاً من الفضيحة ، أو من تفشِّي أمره ، يكون قد دخل في المحظور ؛ لأنه يصدق عليه أنَّه قد ابتغي ، ولو انصرف ذلك إلى تمني القلب ، أو الاستهواء به ، هذا الاستهواء ، وذلك التَّمنِّي الذي يُخالف الأعراف والفِطَرَ السليمة ، التي يتمسَّك بها الأسوياء الذين ينأوْن بأنفسهم عن السُّبل المؤدِّية إلى الطريق الحرام ، ولو بمجرَّد التفكير فيه .

ولاشك في أنَّه لو جئ بالصيغة البديلة ما تُوصِّل إلى هذا المعنى – الذي ذكرْتُ – ولكانت تلك الصّيغة مدعاةً إلى التَّوهُّم ، ذلك بأن يتأوَّل بعض الناس ظانِّين أنَّ مُجاوزة الحدود تتمثل في كشف العورات ، وعدم حفظها على غير الأزواج أو ملك اليمين ، لا تتعداه ولا تتخطاه إلى غيره من ميول وأهواء ، وأنَّه يجوز للمرء أن يبتغي في قلبه ، وأن يستقرَّ في ضميره ، واعتقاده ، ووجدانه ، وخاطره الاشتهاء بمن يهواه ، أو التعبير بلسانه عمَّا يجيش في خاطره من نوازع شهوانية ، أو أن يسمع بأذنيه ما يُثير شهوته ، ذلك دون أن يقوم بكشف عورته .

ولمَّا كان هذا ليس مُراداً ، وكان المُراد هو الانتهاء عن الابتغاء ظاهراً وباطناً ، حقيقةً وحُكماً ، جاء التعبير بما يدُلُّ على أنَّ المرء بمجرَّد ابتغائه ، حتي

---

(١) السابق .

وإنْ حفظ فرجه ، فإنَّه بصنيعه هذا يكون قد وقع في المحظور ، وأصبح من العادين المتجاوزين ما حُدَّ لهم وأُمروا به ، ولا يكون من المفلحين [١] ، وعلي المؤمن إذا أراد الفلاح ، فعليه أن يرقي بنفسه مُحاولاً تزكيتها بتطهيرها من الابتغاء ، وبشتَّي أنواعه قدْر الاستطاعة ؛ استجابة لقول الحَّق تبارك وتعالى :{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }[٢] ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنَّ التعبير القرآني جاء بأسلوب موجز ومركَّز ؛ حيث إنَّ كلمتي(وراء ذلك) أغنت عن تفصيل يعلمه المُخاطبون ، حيث إنَّهما يعُمَّان كُلَّ مَنْ هو ليس من الأزواج ، أو ملك اليمين ، بقرينه قوله تعالى قبلاً : { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ....} [٣] ، وعليه فلو جاء التعبير على النحو المذكور في الصيغة البديلة ، وقيل : (فمن لم يحفظ فرجه إلَّا على زوجه أو ما ملكت يمينه فهو من العادين) ؛ لأدَّي ذلك إلى التكرار المُمِلَّ الذي تأباه البلاغة القرآنية .

أضف إلى ذلك أننا إذا تفكَّرنا ثانياً في قوله (وراء ذلك) لوجدنا أنَّ كلمة (وراء) وإن كانت واحدة ، إلَّا أنَّه يدخل تحتها كل مسلك من المسالك المُحرَّمة – والممنوعة شرعاً – لقضاء الشهوات ، ونيل الأوطار كالزنا ، واللواط ، والسحاق ، والاستمناء باليد ، ومواقعة البهائم [٤] .

---

(١) لو تأمَّلنا أحوال الناس في زماننا ، لألفينا أنَّ الكثرة الكاثرة منهم قد طبع الله على قلوبها ، وأنها زائغة النَّظرة ، مسلوبة الإرادة ، وتستهوي التفكير في عدم حفظ الفروج على غير أزواجهم ، وهذا أمر مُشاهد ومعروف في مجتمعاتنا التي حلَّ عليها البلاء ، بل إنَّ كثيراً ممَّن يدعون الإسلام والإيمان يهْوي قلبه ، ويعشق من جمال امرأة فاتنة ، ويبتغي هذا بقلبه ، ووجدانه ، ومشاعره ، فجاءت الآية الكريمة لتكون حُجَّة على مثل هؤلاء ، إنْ لم يرتدعوا عن ابتغائهم .

(٢) من الآية ١٦ من سورة التغابن .

(٣) من الآية ٣٠ من سورة المؤمنون .

(٤) ينظر : روح المعاني جـ ١٧، ص ١١، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ٦٧١ ، وتفسير القاسمي جـ ١٢ ، ص ٤٣٨٨ ، ٤٣٨٩

هذا ، وقد ذكر (ابن أبي الإصبع) ما يُفيد أنَّ لفظة (وراء) في الآية الكريمة ، واردة على سبيل الإيجاز ، فهي كلمة مُجملة تجمع كُلَّ المُحرمات من أصناف النساء ، وقد أعان على فهم المُراد منها ما ورد ذكره بالتفصيل عن هؤلاء المُحرَّمات في آيات أخر من سورة النساء " [١] .

يقول ابن أبي الإصبع : " باب التَّفصيل – التفصيل على قسمين : متَّصل ومنفصل ... وأمَّا المُنفصل من التفصيل : فهو ما يأتي مُجملة في سورة ، ومفصله في أُخرى ، أو في مكانين مفترقين من سورة واحدة ، كقوله تعالى في سورة المؤمنون {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[٢] إلى قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [٣] ، إلى قوله تعالى : {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}[٤] ، فإنَّ قوله تعالى : { وَرَاءَ ذَلِكَ } إجمال المُحرَّمات جاءت مفسَّرة في قوله تعالى {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}[٥] ، إلى قوله تعالى { وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ } [٦] ، فإن هذه الآية اشتملت على خمسة عشر مُحرَّماً من أصناف النساء ذوات الأرحام ، ثلاثة عشر صنفاً ، ومن الأجانب صنفان ، والله أعلم " [٧] .

---

(١) ذلك بناءً على القاعدة القائلة : بأنَّ القرآن يفسِّرُ بعضه بعضاً ، وأنَّ أحسن طرق التفسير أن يفسَّر القرآن بالقرآن ، حيث إن كثيرا ممَّا ورد فيه مُجملاً في بعض المواضع ، ورد تفصيله في مواضع آخر . ينظر : البرهان للزركشي جـ ٢ ، ص ١٧٥ ، ٢١٤ ، والموافقات للإمام الشاطبي جـ ٣ ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٩ .

(٢) الآية ١ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ٥ من السورة الكريمة .

(٤) الآية ٧ من السورة نفسها .

(٥) من الآية رقم ٢٢ من سورة النساء .

(٦) من الآية رقم ٢٤ من سورة النساء ، والآيات بتمامها هي : {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا } : الآيات (٢٢– ٢٤) من سورة النساء .

(٧) بديع القرآن ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

ومن خلال ما تقدَّم يمكن القول ، بأن أسلوب الآية الكريمة أعلي إبلاغاً في الكشف عن المراد ، مع حسن وجازة أسلوبها ، ومن ثم كان هو أولي بالاصطفاء ممَّا لو قيل : (فمن لم يحفظ فرجه على غير زوجه أو ما ملكت يمينه فأولئك هم العادون) .

ولنا أن نتأمَّل النتيجة الحتمية التي تنتظر هؤلاء المبتغين ، تلك النتيجة المتمثلة في قوله تعالى :{فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} .

فقد حكم المولي – عز وجل – عليهم بما يدُل على بشاعة جُرمهم ، وسوء صنيعهم ، حيث وصفهم بأنهم العادون أي " الظالمون [١] " المُجاوزون ما حُدَّ لهم وأُمروا به " [٢] ، لأنهم تجاوزوا حدود شريعته ، وسُنن فطرته ، بابتغائهم " الرَّغبة عن الحلال ؛ طمعاً في الحرام " [٣] .

ولاشك في أنَّ هذا الحكم بمثابة التهديد للمحكوم عليهم به ، بأنَّ مقت الله – عز وجل – لهم سوف ينالُهم لهم لا محالة إن لم يرعووا عن غيَّهم ، وابتغائهم المذكور ، كيف لا ؟ وقد أخبر الحق – تبارك وتعالي – في آيات أُخر بعدم حُبَّه للمعتدين قائلاً:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[٤] ، وقال سبحانه : { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [٥] ، وفي آية أخرى يتوعَّدهم بالعذاب ، فقال – جل شأنه { وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [٦] .

---

(١) في لسان العرب (العادي : الظالم) – جـ ٩ ، ص ٩٢ (عدا) ، وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد أن المعتدين ظالمون لأنفسهم ، حيث قال سبحانه { وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} – من الآية ١ من سورة الطلاق .
(٢) لسان العرب جـ ٩ ، ص ٩٢ (عدا) .
(٣) ينظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن جـ ١٨ ، ص ٤٤٦ .
(٤) من الآية رقم ١٩٠ من سورة البقرة ، والآية ٨٧ من سورة المائدة .
(٥) من الآية ٥٥ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ١٤ من سورة النساء .

ذلك بالإضافة إلى أنَّ الحكم المذكور " يتضمن أنَّ مَنْ لم يحفظ فرجه [١] لم يكن من المفلحين [٢]، وأنَّه من الملومين [٣]، العادين ففاته الفلاح ، واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم " [٤]، فهذا هو واقع حال هؤلاء المبتغين عند الله – إذ إنهم مذمومون ؛ لفظاعة جُرمهم ، ولشَّدة خطرهم ، وهذا الواقع يلزمه أمرٌ بالحكم عليهم بأنَّهم معادون عند الناس إلزاماً ينبغي على كل عاقل الالتزام به ، فكأنَّه قيل : إذا كان هذا هو حالهم عند الله ، فليكن كذلك " وصفهم بالعدوان مشهوراً مقرَّراً " [٥]، عندكم ، تعريضاً بهم ، وهذا يعني أنَّ كُلَّ من تبين له أنَّ هُناك من يبتغي في غير ما أحلَّ الله– سبحانه – فعليه أن يعامله معاملة المعتدين، والمتجاوزين لحدود الله – تعالى– وأن يقف المُجتمع المسلم بكل طوائفه في وجه هؤلاء الظالمين المُتجرئين على حُرُمات الله– عز وجل– حين يكون ولـيُّ الأمر فيها حاكماً بغير كتاب الله– عزَّ وعلا– موقفاً من أجل صيانة الأعراض، والأنساب[٦] ؛ وحرصاً على عدم إشاعة الفاحشة في مجتمع المؤمنين .

ومن خلال ما سبق ذكره عن قوله تعالى { فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} يمكن القول بأنَّه على الرَّغم من إيجازه ، فهو في اللفظ لا يتعدَّي ثلاث كلمات ، ولا يزيد عن كونه خبراً ، لكنَّه مع ذلك يتضمَّن إزراءً بمن وُصِفوا به ، وقد جاء مشوباً

---

(١) أي عن الحرام لا عن الحلال .

(٢) لأنَّ من صفات المفلحين حفظ الفروج عن الحرام كما هو معلوم من قول الله – عز وجل – في وصفهم : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ....} – الآيتان (٥، ٦) من سورة المؤمنون .

(٣) وذلك على عكس المفلحين الذين قال الله تعالى – في حقهم:{فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.من الآية رقم ٦ من سورة المؤمنون .

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير – للعلاَّمة محمد عبد الرؤوف المناوي جـ٦ ، ص ١٨٤ (تعليقاً على الحديث رقم ٨٧٢٢ – ونصُّه : (من زني أو شرب الخمر نُزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه) ط /دار الكتب العلمية– بيروت– أولي ١٤١٥ه ، ١٩٩٤م ، وينظر : تفسير القاسمي جـ ١٢ ، ص ١٥ .

(٥) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٥ .

(٦) ينظر : دلالة الألفاظ عند الأصوليين للدكتور / محمود توفيق محمد سعد ص ٢٦٥ .

بالتنفير مع الاجتراء على ما يقومون بصنيعه من هذا الخلق الذميم (الابتغاء في الحرام) ، حيث أومأت لفظة (العادون) إلى خطأ من يقوم بفعل هذا السلوك المشين الذي يتعلَّق بكشف العورات ، وجعلته من المتعدِّين المجاوزين للحدَّ ، ممَّا يعني أن الأمر ليس مقصوراً على مجرَّد الإخبار بما ذُكِر ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك فإنَّ ذلك الخبر يحمل في طيَّه نهياً عن هذا السلوك الدنئ والمُزري لهؤلاء الموصوفين ، وإلَّا فإنَّ صاحبه يتعرَّض لمقت الله وغضبه ، متبوعاً بسخط الثُّلَّة المؤمنة عليه ، وعدم رضاهم عنه ، ومن ذلك إلى الجزاء المُعدّ له في أُخراه ، وهو جهنم (أعاذنا الله عزَّ وجل – منها) ، إذ إنَّه ما دام الله – سبحانه – قد وصف هؤلاء المبتغين بالتعدَّي والمُجاوزة ، فإنَّ المؤمن الذي يريد الفلاح في الدُّنيا والآخرة ، لابد أن يبتعد عن ذلك الوصف ، بالانتهاء عن فعل ما لا يرضي الله – عز وجل – عنه ، وهو الاجتراء على حرماته سبحانه ، ذلك الاجتراء الذي لا يقُدمُ عليه إلَّا من خَبَت في قلبه نور الإيمان .

هذا ، وعلي الرغَّم من أنَّ ما في الابتغاء المذكور من بشاعة وشناعة تؤدِّي إلى عظيم المفاسد ، فإنَّ الله – عز وجل – حين أراد ذمَّ أصحاب هذا الفعل " لم يستعمل فيه هجين اللفظ ، ولا قبيح المعنى " [(١)] بل سجَّل عليهم ابتغاءهم بترك ما أمر الله – سبحانه به من حفظ الفروج على غير الأزواج ، أو ملك اليمين ، وأخبر عنهم بأنهم (هم العادون) أي لا غيرهم ، فوصفهم بوصف يُقصد به الهجاء ، ومع ذلك جاءت عبارته منزَّهة عن الفُحش ، ذلك على سبيل ما يعُرف عند العلماء البديع بـ (النَّزاهة) [(٢)] .

---

(١) خصائص التعبير البياني وسماته البلاغية جـ ٢ ، ص ٤٥٨ .
(٢) وهي كما عرَّفها ابن أبي الإصبع بأنَّها (عبارة عن نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفُحش) – بديع القرآن ص ٢٩٢ .

وبإنعام النظر مرَّة أخرى في قوله تعالى : { فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } وفي بنيته التركيبية نلحظ أنَّه جاء حاسماً قاطعاً في بيان الجزاء من ناحية مجيئه جملة اسمية ؛ للتأكيد على أنَّ مدلوله أمر ثابت ودائم ، ذلك بالإضافة إلى كونه مصدَّراً بـ (الفاء) التي لا يخفى دورها ؛ إذ إنَّها تؤكد كون اللاحق نتيجة مباشرة للسابق، فقد ربطت الجزاء بالشرط على سبيل الوجوب ، وذلك إذا كانت (من) في (فمن ابتغي) شرطية ، أو ربطت الخبر بالمبتدأ إن كانت (مَن) موصولة ، ربط العلَّة بمعلولها ، وما يعنينا هو : أنَّ هذا الربَّط بـ (الفاء) الدَّالة على الترتيب والتعقيب أفاد استحقاق المبتغين في الحرام ، ما أخبر به من وصفهم بالمعاداة ، ومجاوزة الحدِّ عقب ابتغائهم وعلي وجه السُّرعة ، وهذا يعني أنَّ ما اقترفوه من جرم سبب في مسارعة لحوق الحكم عليهم بـ (العادون) ولصوق هذا الوصف بهم ، بمجرد ابتغائهم ، دون أن يستدعي هذا اللحوق وذلك اللصوق زمناً ممتدَّاً ، وأنَّ هذا الحكم لا يتخلَّف عنهم ألبتَّة ، ومن ثم لا يجوز لجماعة المؤمنين التواني في الحكم على هؤلاء المبتغين بما وصفوا به ، بل يجب عليهم المسارعة في تنجيز الحكم المذكور ، وعدم التهاون ، أو المراوغة ، أو المماطلة فيه ؛ تقريعاً لهؤلاء المبتغين ، وتوبيخاً ، وزجراً لهم وتغليظاً .

ومما يزيد الأمر توكيداً مجيء القول الكريم : {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} في بنيه أسلوب القصر المبني على تعريف الطرفين (أولئك) ، و (العادون) المكتنفين ضمير فصل (هم) ، وهو أيضاً طريق من طرق القصر ، إذ إنَّه يُفيد تقوية الحكم ، وتوكيده ، ويشعِر بملازمة هذا الحُكم على المبتغين ، وأنَّه لا ينفك عنهم ، مِمَّا يدُلُّ على حقارتهم ، كُلُّ ذلك فيه إيذان بالإبلاغ في إفادة حصر صفة (المعاداة ومجاوزة الحدَّ) في هؤلاء المبتغين الذين قاموا بإرخاء العنان لفروجهم ؛ بغية إطلاقها وإرسالها في الحرام ، متجاوزين بذلك حسن الأدب الذي رسمه الشرع الحنيف لهم ، وبذا يكون الحصر المذكور فيه إشارة إلى أنَّهم

بتجاوزهم هذا متناهون في التعدَّي ، وفي الخروج عن حدود الإيمان ، وأنَّ الحكم عليهم بذلك التناهي حقيقة ثابتة لا مِراء فيها ، دلَّنا على ذلك التناهي مجيء الخبر (العادون) معرَّفاً بـ(ال) الدَّالة على كمال تلك السَّمة الرَّديئة التي أطلقت على هؤلاء .

كما انَّ في اجتماع طريقي القصر المذكوريْن إشارة إلى أنَّ مجاوزة هؤلاء المبتغين للحدِّ لا تُدانيها أيُّ مجاوزة أخرى ، وكأن تلك الأخرى لو جاءت فإنَّه لا يُعتدُّ بها ، مِمَّا يعني أنَّه ، وإن كان هُناك تجاوز في الحدِّ ، ففي ذلك الابتغاء لا في سواه ، كُلُّ ذلك على سبيل المبالغة في الزَّجر ، والترهيب ؛ حملاً على الطاعة بحفظ الفروج ، والاتصاف بها ، وتنديداً بالمخالفة في ذلك ، وتعظيماً لها ، ولذلك جيء بلفظ (العادون) على إطلاقه وبدون تقييد لنوعه ، وكأنهم بذلك ارتكبوا جميع أنواع العدوان ، والمجاوزة للحدود .

وأيضاً في التعبير باسم الإشارة الدَّال على البُعد (أولئك) إيذان بأنَّ مثل هؤلاء قد بلغوا مبلغاً لا مثيل له في الحقارة؛ لأنهم بعدوا عن طريق الحق بصنيعهم الذي يستحق الذَّم والتشنيع، وأنَّ منزلتهم في الشَّرِّ والفساد لا تدانيها منزلة .

وفي اسم الإشارة المذكور أيضاً دلالة على أنَّ هذا الفريق المجاوز للحدِّ حاضر في ذهن المُتلقِّي ، واسم الإشارة يومئ إليه ويُجسِّده ، ويُميِّزه أكمل تمييز، وكأنَّ العدوان المرذول لهؤلاء المبتغين قد تكثَّر بدرجة تُبرزُهم في صورة حسَّية يُشار إليها ليُقال : أولئك (هم المستحقون) لإطلاق اسم (العادين) عليهم ، لا غيرهم من العادين " [1] .

---

(١) وذلك على غرار ما ورد ذكره في قوله تعالى {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الآية ١٧٨ من سورة الأعراف – حيث روعي لفظ (من) في قوله (ومن يُضلل)، وروعي معناها في قوله سبحانه (فأولئك هم الخاسرون) – يُنظر : ما ذُكره في ذلك كل من أبي حيان الأندلسي في البحر المحيط جـ ٤ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير جـ ٨ ، ص ٣٥٧ .

مِمَّا يعني أنَّ السامع إذا سمع حالهم ، فمن شأنهم أن يحصل له حِدَّةٌ عليهم ، ونفرة منهم ، من أجل ما يقترفونه من إثم مُريع ، وهذا بدوره يؤدِّي بنا إلى القول بأن في القول الكريم إيجازاً بالحذف ، والتقدير : (فأولئك المبتغون هم العادون) .

ونكتة أخرى نلمسها في مجيء اسم الإشارة جمعاً حيث روعي لفظ (مَنْ) أوَّلاً في قوله تعالى { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ } ، وروعي المعنى ثانياً في قوله : {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} ، ولم يقُل مثلاً (فيكون من العادين) ، أو (فهو من العادين) مُراعاة للفظ (مَن) ، والسِّرُّ في ذلك – والله أعلم – هو : (أنَّ الحديث أوَّلا جاء عن كُلَّ فرد من أفراد هذا المجموع ، ثم جاء الحديث عنه ثانياً في جماعة) [1] ، وهذا السِّرُّ قائم على أساس أنَّ الجمع بـ (أولئك) فيه إشارة إلى نماء عدد المُبتغين في الحرام ، وأنَّ مَنْ يصدر منهم هذا الفعل كُثْرٌ ، بالإضافة إلى اختلاف أحوال هؤلاء المُبتغين ، في كيفية الابتغاء ، وتعدُّد طرقه وجهاته فكُل مبتغ له طريقته فيه ، وإن التقوا جميعاً في التلُّبس بهذا الفعل ، وفي الوصف ، إذَ إنَّ كلاً منهم مبتغ ، وأنهم جميعهم (عادون) ، ومجاوزون للحدِّ ؛ ولذلك جاء المسند (العادون) معرَّفا بـ (ال) الجنسية ، الدَّالة على أنَّ كُلَّ واحد من المُخبر عنهم منسوب إلى الفئة التي تعُرف عند الناس بتلك الصَّفة ، وعلي أنَّ جميع المبتغين مُتَّحِدُون مع حقيقه جميع العادين ، والمجاوين للحدود ، فكل من يفعل ذلك الفعل الشنيع (الابتغاء) منخرط في سلك هؤلاء العادين ، وكأنَّ ذلك الفعل يُري في ذاتهم ، على أن يكون المعنى: (من أراد أن يرى حقيقة (العادين) فلينظر إلى هؤلاء المبتغين في الحرام) .

(١) يُنظر : من بلاغة القرآن ص ١٣٣ .

وممَّا ينبغي التَّفطُّن إليه أيضا : هو أنَّ التعريف المذكور على معنى أنَّ المشار إليه (المبتغون) هو الكاشف لوصف التعدِّي " المبيَّن لحقيقة هذا الوصف، وأنَّه المُجسد لهذا الوصف ، وهذا الطريق يتحوَّل فيه المسند من كاشف إلى مكشوف ، وكأنَّ استجماع هذا الوصف في الموصوف ، واكتنازه فيه بكل صوره ، وخصائصه ، أحال الموصوف إلى أن يكون التجسيد الشاخص للنواظر المتطلعة إلى معرفة الصِّفة " (١) ، " وهذا فنٌّ عجيب الشأن ، وله مكان من الفخامة والنُّبل ، وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقَّه ، والمُعوَّلُ فيه على مراجعة النفس ، واستقصاء التَّأمُّل " (٢) .

ولا يخفى ما في إيثار صيغة اسم الفاعل (العادون) على صيغه الفعل ، حيث إنَّه لم يُقل مثلاً : (فأولئك هم الذين يعتدون) ؛ لا يخفى ما في ذلك من إشارة إلى ثبوت صفة المعاداة في المخبر عنهم واستقراراها في نفوسهم ، وأنها صارت طبيعة فيها ، ولا مجال إلى انتزاعها من تلك النفوس المريضة ؛ لأنها صارت كالسمة والعلامة التي لا يُعرفون إلَّا بها ، وذلك بخلاف صيغة الفعل التي لا تفيد سوي حدوث معنى المعاداة ، وتجدُّدها لدي هؤلاء ، ومن ثم تكون المفردة القرآنية المذكورة " لها قيمتها في إتمام المعنى " (٣) ، و" ألصق بالمعني ، وأشدُّ وفاءً بالمراد " (٤) .

ولاشك في أنَّ لفظ (العادون) أبان عن المُراد بـ (الملومين) الذي دلَّت عليه الآية السابقة، على أنَّ إيثار الأوَّل على الثاني في آيتنا ، إنما كان لما يتضمنَّه لفظ (العادون) من دلالة على شدَّة المُبالغة في الذم ، والتوبيخ لمن

(١) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ٢٥٦ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٣ .
(٣) من بلاغة القرآن ص ٨٧ .
(٤) السابق ص ٨٦ .

وصفوا به ، لبشاعة جُرمهم ، وعِظَم مفسدتهم التي أدَّت بهم إلى " العدوان على الحدود الشرعية " [١] ، أمَّا الصيغة البديلة (ملامون) ، فإنَّها لا تدل إلا على مُجرَّد العتاب ، ولا ترقي إلى درجة التعنيف [٢] ، وهذا مما لا يتوافق وصنيع هؤلاء الذين تجاوزوا ما حُدَّ لهم ، وأُمروا به ، فقاموا بالابتغاء في الحرام ، ومن ثمَّ كان التعبير بـ(العادون) هو الأنسب للوصف – في آيتنا – إذ إنَّه يوضح لنا حقيقة المغايرة بين الفريق المُفلح، وبين غيره من المبتغين المجاوزين للحدود ، هؤلاء الذين هم أهل لما فوق اللوم– على نحو ما رأينا – والله – تعالى – أعلى وأعلم .

هذا ، ولمَّا كانت الصِّفات المتقَّدمة (الإيمان بالله عز وجل وحده لا شريك له – ذلكم الإيمان المقرون بالخشوع في الصلاة ، وبالإعراض عن اللغو ، وبفعل الزكاة ، وبحفظ الفروج إلَّا على الأزواج أو ملك اليمين) " من الأمانات العظيمة "[٣] ، ومن العهود الجديرة بالمراعاة ، بحيث يجب على من يريد الفلاح من المؤمنين الوفاء بها [٤] – أقول : لمَّا كانت تلك الصِّفات كذلك – أتبع الله – عز وجل – الآيات المتضمِّنه لها بقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [٥] .

فهذا النَّص الكريم نصٌّ شامل ، حيث إنَّه يشتمل على معانٍ كثيرة ، ويحتاج منا إلى التفات ، فهو يُبيِّن لنا " أنَّ من صفات المؤمنين المفلحين

(١) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٥ .
(٢) يقول الطاهر بن عاشور :" واللَّوم : الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند المُلائم ، وهو مُرادف العذل ، وأضعف من التعنيف " . السابق .
(٣) نظم الدُّرر جـ ٥ ، ص ١٨٤ .
(٤) ذلك على اعتبار أنَّ الله – عز وجل – أوصي عباده المؤمنين بمراعاتها .
(٥) الآية ٨ من سورة المؤمنون .

الوارثين الفردوس أنَّهم راعون لأماناتهم [١] ، وعهدهم [٢] ، أي مُحافظون على الأمانات والعهود ، والأمانة تشمل كُلَّ ما استودعك الله ، وأمرك بحفظه ، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل مالا يُرضي الله ، وحفظ ما ائتمنت عليه من

حقوق الناس [٣] ، والعهود تشمل كُلَّ ما أُخذ عليك العهد بحفظه من حقوق الله، وحقوق الناس [٤] " [٥] .

---

(١) الأمانات : جمع أمانة ، وهي على نحو ما قال به " ابن منظور " (ضدُّ الخيانة .... والأمانة تقع على الطاعة والعبادة ، والوديعة ، والثِّقة ... والأمانة : الفرائض التي افترضها الله تعالى على عباده) ، لسان العرب جـ ١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ (أمن) .

(٢) قال الرَّاغب : (العهد : حفظ الشئ ومراعاته حالاً بعد حال ، وسُمِّي الموثِق الذي يلزم مُراعاته عهداً ... وعَهِدَ فُلان إلى فُلان يَعْهَدُ أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه ... وعَهْدُ اللهِ تارةً يكون بما رَكَزَه في عقولنا ، وتارةً يكون بما أمَرَنَا به بالكتاب وبألسنة رُسُله) والمفردات جـ ٢ ، ص ٤٥٥ (عهد) ، وجاء في اللسان : "كُلُّ ما عُوهِدَ اللهُ عليه ، وكُلُّ ما بين العباد من المواثيق فهو عهدٌ ... والعهدُ : الوصيَّة ..... ويُقال : عهِد إلى في كذا : أي أوصاني .... والعهد : الحفاظ ورعاية الحرْمة " . لسان العرب جـ ٨ ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(٣) وهذا يعني أنَّ مظاهر حفظ الأمانات كثيرة ومتعدَّدة ، يقول صاحب روح البيان : " ... وقال محمد بن الفضل : جوارحك كلُّها أمانات عندك ، أُمِرْتَ في كُلِّ واحدة منها بأمر ، فأمانة العين الغضُّ عن المحارم ، والنَّظر بالاعتبار ، وأمانة السَّمع صيانتها عن اللغو والرَّفث ، وإحضارها مجالس الذكر ، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان ، ومداومة الذِّكر ، وأمانة الرِّجل المشي إلى الطاعات والتَّباعد عن المعاصي ، وأمانة الفم أن لا يتناول به إلَّا حلالاً ، وأمانة اليد أن لا يمدها إلى حرام ولا يمسكها عن المعروف ، وأمانة القلب مراعاة الحقِّ على دوام الأوقات حتي لا يُطالع سواه ، ولا يشهد غيره ولا يسكن إلَّا إليه " . روح البيان جـ ٦ ، ص ٦٩ .

(٤) وفي مقدَّمة تلك العهود – الإيمان بالله – عز وجل – وحده وعبادته المتمثِّلة في القيام بطاعته، وحفظ حقوقه – سبحانه – على الوجه الذي ينبغي من تنفيذ جميع أوامره ، واجتناب كُلِّ ما نهى الله – عز وعلا – عنه ، يؤيد ذلك ويقويه قوله تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} . الآيتان (٦٠ ، ٦١) من سورة (يس) .

- وقد جاء في الحديث الشريف : "حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " – صحيح البخاري جـ ٤ ، ص ٣١١ (كتاب : الرِّقاق – باب : من جاهد نفسه في طاعة الله – الحديث رقم ٦٥٠٠) .
- من العهود كذلك ما عاهد عليه العبادُ ربَّهم من النذور والأيمان ، قال تعالى : {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} – الآية ٧٥ من سورة التوبة ، وقال سبحانه : {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} من الآية رقم ٩١ من سورة النحل .
- ويقول الإمام الرازي : " واعلم أنَّ هذا العهد إما أن يكون بين العبد وبين الله ، أو بينه وبين رسول الله ﷺ ، أو بينه وبين سائر الناس ، أمَّا الذي بينه وبين الله فهو : ما يلزمه بالنذور والأيمان ، وأمَّا الذي بينه وبين رسول الله فهو الذي عاهد الرسول عليه عند البيعة من القيام بالنصرة والمظاهرة والمجاهدة ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، وأمَّا الذي بينه وبين سائر الناس ،فقد يكون ذلك من الواجبات مثل ما يلزمه من عقود المعاوضات من التسليم والتَّسلم ، وكذا الشرائط التي يلتزمها في السَّلم والرَّهن ، وقد يكون ذلك من المندوبات مثل : الوفاء بالمواعيد في بذل المال ، والإخلاص في المناصرة " . التفسير الكبير للرازي (تعليقاً على قوله تعالى {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} " من الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة) جـ ٥ ، ص ٣٨ .

(٥) أضواء البيان جـ ٥ ، ص ٣١٩ .

وكل من له أدنى صلة بالبيان العربي ، لو تأمَّل في الآية المذكورة يدُرك أنَّها جاءت في موضعها المُلائم لها ، وأنَّ هذا المجئ إنَّما كان بمثابة التوجيه العقدي ؛ تأكيداً على أنَّ الصِّفات المذكورة قبلاً ترجع في الأساس إلى حفظ الأمانات ، ومراعاة العهود ، وأنهَّا جميعها لا يمكن تحقيقها إلَّا بالبناء على هذا الحفظ ، وتلك المُراعاة ، [١] وفي هذا المجيء أيضاً إشارة إلى أنَّ حفظ الفرج من أعظم الأمانات التي لا يجوز التساهل فيها ؛" لأنّه رأس الأمر صلاحاً وفساداً " [٢] ؛ إذ إنَّ من يتساهل في ذلك ، ويبتغي الاعتداء على الأعراض المُحرَّمة ؛ لاشك في أنَّه يكون خائناً للأمانات [٣] ،وخارجاً عن العهود ، غير مراع لها ، وحينئذٍ لا يُنتظر منه إيمان يؤدِّي به إلى الفلاح [٤] ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون من الخاشعين في صلاتهم ، ولا من المعرضين عن اللغو ، ولا من الفاعلين للزكاة ، ولا من الحافظين للأمانات ، والمُراعين للعهود ، وإن حاول الاتصاف بأيٍّ من ذلك كان اتِّصافه وعدمه سواء ، وبالجملة فإنَّ الآية الكريمة – الذي نحن بصدد الحديث عنها – قد جَمَعَتْ كُلِّ ما فُصِّل في الآيات السابقة عليها ، وجاءت الأخيرة امتداداً لما سبق ذكره في تلك الآيات .

وعليه يمكن القول بأنَّ الصِّفات المذكورة في مجموعها مظهر من مظاهر حفظ الامانات ، ومراعاة العهود ، وأنَّ جميع تلك الصفات متلاحمة ، يُكمِّلُ بعضها بعضاً ، ولا يجوز التفريق بينها ، مِمَّا يعني أنَّ المؤمن الذي يريد الفلاح عليه أن لا يجتزئ صفة عن أخرى ، فلا يصح له ولا يجوز أن يقوم باستحسان بعض

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ص ٢٠٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .
(٢) من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبي موسي ص ٢٨٦ .
(٣) وقد حذّر الله – عز وجل – عباده المؤمنين من خيانة الأمانات في قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} الآية ٢٧ من سورة الأنفال .
(٤) يؤازر ذلك ويقوية ما جاء في الحديث : عن أنس – رضي الله عنه – قال : ما خطبنا النبي ﷺ إلا قال : " لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له " – مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٢٠ ، ص ٣٢٤ – الحديث رقم ١٣١٩٩ .

الصفات ، والاتصاف به بعد قبوله ، وردِّ البعض الآخر ، أو إنكاره لا يجوز له ذلك ؛ لأنَّ الصِّفات – التي هي محلُّ الحديث – متماسكة ومتداخلة كالحبل الممدود، لا يصح قطعة ، أو فصل بعضه عن بعض .

ولمَّا كان حفظ الفروج داخلاً في عموم كُلٍّ من الأمانات والعهود المراد حفظها ومراعاتها ، وكان الحفظ الأوَّل وسيلة من وسائل الحفظ الثاني كان مجيء قوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) [١] عقب ذكر حفظ الفروج من باب ذكر العام بعد الخاص ؛ بُغية إفادة الشمول ، مع العناية والاهتمام بشأن الخاص ، عن طريق ذِكْره مرَّتين ، مرَّة منفرداً ، وأُخري مجملاً بِدَرْجة تحت عموم الأمانات .

قال أبو حيان : " والأمانة الظاهر أنَّها كُلُّ ما يؤتمن عليه من أمر ونهي ، وشأن دين ودنيا ، والشَّرع كُلُّه أمانة ، وهذا قول الجمهور ، ولذلك قال أبى زين كعب : (من الأمانة أن اؤتمنت المرأة على فرجها) " [٢] .

وقال الآلوسي : " وكأنَّهِ – جلَّ وعلا – بعد أن ذكَر حفظهم لفروجهم ذكّرّ حفظهم لما يشملُها وغيْرَها " [٣] .

وكذلك لمَّا كانت " الأمانة أعمَّ من العهد [٤] " [٥] . وكان " قد جمع العهد

---

(١) الآية ٨ من سورة المؤمنون .

(٢) البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٥٠٨ (تعليقاً على قوله تعالى : { إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ... } الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٣) روح المعاني جـ ١٧ ، ص ١٧ .

(٤) وهذا يعني أنَّ بينهما عموم وخصوص ، فكُلُّ عهد أمانة ، وليست كُلُّ أمانة عهد ، يقول الطبرسي مشيراً إلى الفرق بينهما : " .... والأمانات ضربان : أمانات الله تعالى – وأمانات العباد ، فالأمانات التي بين الله تعالى – وبين عباده هي : العبادات كالصيام ، والصلاة ، والاغتسال ، وأمانات العباد هي : مثل الودائع والعواري ، والبياعات ، والشهادات ، وغيرها ، وأمَّا العهد فعلى ثلاثة أضرب : أوامر الله – تعالى – ونذور الإنسان ، والعقود الجارية بين الناس ، فيجب على الإنسان الوفاء بجميع ضروب الأمانات والعهود ، والقيام بما يتولاَّه منها)) – مجمع البيان في تفسير القرآن جـ ٧ ، ص ١٤١ ، وينظر : مفاتيح الغيب جـ ١١ ، ص ٣٤٩ ، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٣ ، ص ٢٣٩٥ ، وروح المعاني ج ١٧ ، ص ١٧، وتفسير الحدَّاد جـ ٥ ، ص ٨ .

(٥) فتح القدير جـ ٣ ، ص ٦٧١ ، والتسهيل لعلوم التنزيل جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

والأمانة كُلَّ ما يتحمَّلُه الإنسان من أمر الدين والدُّنيا " [١] ، وكان " كُلُّ عهد أمانة"[٢] ، يجب الوفاء به ، وفي نقض العهود خيانة للأمانة ، وفي خيانة الأمانة نقض للعهود ، لمَّا كان الأمر كذلك جمع بينهما في سِلْكٍ واحد ؛ لئلا يُظَنَّ ان الالتزام بمراعاة أحدهما يُغني عن الالتزام بمراعاة الآخر وحفظه ؛ إذ إنَّه لابُدَّ من مراعاة كليهما ، حتي يتحقَّق حصول الفلاح للعبد .

يقول " الإمام البقاعي " نقلاً عن " الإمام الرَّازي " مشيراً إلى العلة في اقترانهما : " ولمَّا كان العهد أعظم أمانة تلاها به ؛ تنبيهاً على عظمه فقال : " وعهدهم راعون " أي حافظون بالقيام والرَّعاية والإصلاح " [٣] .

ويقول "الطاهر بن عاشور: "والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد؛ لأنَّ العهد كالأمانة؛ لأنَّ الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضية ذلك العهد"[٤] .

وهذا يؤدِّي بنا إلى القول : بانَّه لمَّا كانت الأمانة عامة ، وكان كُلُّ عهد أمانة ، وليست كل أمانة عهد ، كانت الأولى أعلي مرتبة وأَوْلى من الثانية في " مواجب التكليف " [٥] ولذلك قُدّم ما هو أوْلي وأعْلَي إلزاماً في النظم الكريم على الآخر [٦] ، ولمَّا كان العهد مندرجاً تحت الأمانة كان ذِكْرُه بعدها من بابِ الإطناب على سبيل ما يُعرف بـ (ذكر الخاص بعد العام) تنبيهاً بفضل الخاص وتنويهاً بشأنه .

---

(١) فتح القدير جـ ٣ ص ٦٧١ .
(٢) السابق .
(٣) نظم الدُّرر جـ ٥ ص ١٨٤ .
(٤) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٧ .
(٥) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ٦٩ .
(٦) وحسبُنا في ذلك دليلاً ما مرَّ بيانه – منذ قليل – من أنَّ الأمانة تقع ، على الطاعة ، والعبادة والوديعة والثقة ، وجميع الفرائض التي افترضها الله – سبحانه – على عباده – وعلي جميع ما خلق الله – عز وجل للإنسان من جوارح يجب المُحافظة عليها .

أمَّا عن السِّرِّ في مجئ (الأمانات) جمعاً (أماناتهم) ، والعهد مفرداً (عهدهم) ، ولم يقل (عهودهم) ، فقد أشار إليه الآلوسي بقوله : " ... وجُمِعت الأمانة دون العهد قيل : لأنها متنوَّعة جدًّا بالنِّسبة إلى كُلِّ مُكلَّفٍ من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مُكَلَّف من ذلك ، ولا كذلك العهد ... ويجوز أن تُعمَّم الامانات بحيث تشمل الأموال ونحوها ، وجمعها لِما فيها التَّعدُّد المحسوس المشاهد " [١] .

وقال أيضاً : " وكأنَّه لكثرة الأمانة جُمعت ولم يُجْمَعْ العهد ، قيل : إيذاناً بأنَّه ليس كالأمانة كثرةً ، وقيل : لأنَّه مصدر ، ويدُلُّ على كثرة الأمانة ما روي الكلبي : كُلُّ أحد مؤتمن على ما افتُرض عليه من العقائد ، والأقوال ، والأحوال ، والأفعال ، ومن الحقوق في الأموال ، وحقوق الأهل والعيال ، وسائر الأقارب والمملوكين ، والجار وسائر المسلمين ، وقال السُّدِّيُّ : إنَّ حقوق الشَّرع كُلَّها أمانات قد قبلَها المؤمن ، وضمن أداءها بقبول الإيمان ، وقيل : كُلُّ ما أعطاه الله – تعالى – للعبد من الأعضاء ، وغيرها أمانة عنده ، فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله ، وأذن سبحانه له به ، فقد خان الأمانة " [٢] .

وواضح من خلال ما ذكره " الآلوسي " أنَّه لما كانت لفظة " الأمانة كلمة عامة ، تطلق ويُراد بها كُلُّ التكاليف الشرعية ، وكُلُّ ما ائتمن الله – عز وجل – عباده عليه من حقوق وواجبات ، وتشمل أيضا ما بين الخلق بعضهم وبعض من أقوال ، وأحوال ، وأفعال (معاملات وغيرها) – أنَّه لمَّا كانت كذلك – كانت من الكثرة بمكان بحيث يكثر تشعُّبها ، وتنوُّعها ، بخلاف العهد ، ومن ثم استُحِق ورودها بلفظ الجمع .

---

(١) روح المعاني جـ ١٧ ، ص ١٧ .
(٢) السابق جـ ٢٩ ، ص ٦٣ (تعليقاً على نفس الآية أثناء ورودها في سورة المعارج – الآية رقم ٣٠ .

وإن كُنتُ أضيف إلى ذلك : أنَّ مجيء لفظ (أماناتهم) جمعاً يُشتَمُّ منه راحة التَّعظيم ، فهي أمانات جدٌّ كثيرة عظيمة النَّفع ، لمن يقوم بأدائها على أكمل وجه ، وبخاصة هؤلاء الذين يكون شغلُهم الشاغل في كُلِّ لحظة من لحظات حياتهم الاهتمام بأيَّ من هذه الأمانات ؛ تقرُّباً إلى الله – عز وجل – وبذا يكون الأداء المذكور سبباً لرفع درجة صاحبه عند خالقه سبحانه وتعالي .

أمَّا مجيء (عهدهم) بصيغة المفرد ؛ فإنما كان للدَّلالة على أنَّ العهود كُلَّها لدي الموصوفين على قدر كبير من الأهمَّية وأنَّهم يهتمون بمراعاتها جميعاً ، لا فرق بين ما عاهد اللهُ – عز وجل – عليه عباده من الإيمان به – وحده لا شريك له – ومن القيام بطاعته وحفظ حقوقه – سبحانه – وبين ما عاهد عليه العبادُ ربَّهم من النذور والأيمان، أو ما بين سائر الناس بعضهم وبعض بلا غدْر[١] ... إلى غير ذلك من العهود – أقول : يهتمون بمراعات تلك العهود جميعها – بلا تفاوت بين عهد وآخر ، إذ إنَّ تلك العهود عندهم بمنزلة واحدة لا تستعصي على المراعاة ، وكأنها عهدٌ واحد لديهم سواء أكان ذلك فيما يتعاهده الناس فيما بينهم[٢] ، أو فيما عاهد اللهُ – عز وجل – عليه عباده المؤمنين ، أو فيما عاهد عليه العبادُ ربَّهم جل شأنه .

---

(١) حيث إنَّ الغدر في العهود من صفات المنافقين ، على نحو ما جاء عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنَّ النبي ﷺ قال : (أربع من كُنَّ فيه كان مُنافقا خالصاً ومن كانت فيه خَصْلَة منهُنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتي يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) .صحيح البخاري جـ ١ ، ص ٣٤ (كتاب : الإيمان – باب : علامة المنافق الحديث رقم ٣٤) .

(٢) يقول الإمام شلتوت – رحمه الله – (أمَّا عهود العباد بعضهم من بعض، فهي تتمثَّل فيما يحدُث بينهم من عقود والتزامات مالية ، أو غير مالية ، وكذلك فيما يحدُثُ بين الأمَّة والأمَّة في تحديد الحقوق والالتزامات ، وكُلُّها يجب الوفاء بها ما لم تكن في معصية الله بتضييع حقٍّ ، أو إلحاق أذي بالفرْد ، أو الأمَّة ، وقد عُني القرآن بالحثِّ على الوفاء بالعهد ، وشبَّه ناقض العهد بالمرأة الخرقاء { كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا } – من الآية رقم ٩٢ من سورة النَّحل – وطلب أن تكون العهود قائمة على الصَّراحة والوضوح ، لا على الغشِّ والخداع ، واصطناع الاحتيال : {وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) – من الآية ٩٤ من سورة النحل – وألا يُستغلَّ فيها قوَّة أو ضعف (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ

على أنَّ " الواو " في قوله (وعهدهم) ، وإن كانت لمطلق الجمع بين الأمانات والعهود فإنما أيضاً يمكن أن تكون للترتيب ؛ باعتبار أن أداء الأمانات سبب من أسباب حفظ العهود، ومراعاتها ، وعدم نقضها .

كما أنَّ في مجيء لفظتي (أمانات) ، و (عهد) مضافاً إلى ضمير المُخبر عنهم بالفلاح (هم) إيذاناً بأنَّ لهم تعلُّقاً شديداً بتلك الأمانات والعهود ، وأنه لا غني لهم عنها ؛ لأنها من مصالحهم ، ومن ثم فهم لا يتوانون في مراعاتها ؛ لأنَّ تلك المُراعاة تعود بالنَّفع العميم عليهم ، فهي أماناتهم ، وعهدهم هم ، لا أمانات ولا عهود غيرهم ، ولا يقوم بمراعاة ذلك غيرهم ممن ليسوا بأصحابها .

ولا يخفى ما في دلالة الاسمية { هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} من ثبوت تلك المراعاة ودوامها لديهم ، فهي لا تنفك عنهم أبداً .

أمَّا عن سرِّ بدء الآية الكريمة باسم الموصول (الذين) مُصدَّرةً صلتُه بالضمير (هم) ، ومجيء المعمول { لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ } مقروناً بـ (اللام)، ومقدَّماً على العامل الذي هو الخبر (راعون) – أقول : أمَّا عن سرِّ كُلِّ ذلك – فيقال فيه ما قيل في نظائره من الآيات السابقة على الآية التي هي محلُّ الحديث .

هذا ، وفي إيثار (راعون) على غيره مِمّا هو في معناه أو قريب منه نحو : (حافظون) ، أو (مؤدُّون) [(١)] ، أو (موفون) [(٢)] ، إشارة إلى أنَّ أمر

هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ} من الآية رقم ٩٢ من السورة السابقة – أي أكثر منها عدداً أو عدَّة ، وهكذا يضع القرآن أصول العهود ، والمواثيق العادلة ، ويجعل الوفاء بها من البرِّ الذي يسمو بالإنسان في دنياه ، ويسعد في أخراه) – تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) – ص ٨٧ .

(١) حيث ورد في القرآن الكريم الأمر بأداء الأمانات ، وذلك في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ...} من الآية رقم ٥٨ من سورة النساء ، وفي الحديث الشريف (أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك) – سنن أبي داود جـ ٣ ، ص ٢٨٨ (كتاب: البيوع – باب : في الرَّجل يأخذ حقه من تحت يده – الحديث رقم ٣٥٣٤ .

(٢) وذلك على غرار ما جاء في القرآن الكريم من الإخبار عن المؤمنين بأنهم موفون بعهدهم ، كما في قوله تعالى : {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ} من الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة ، وفي قوله سبحانه : {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} – من الآية ٧٦ من سورة آل عمرن ، وقد جاء في الكتاب العزيز أيضاً الأمرُ بالوفاء بالعهود ، حيث قال جلَّ وعلا ، : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) – من الآية رقم ٩١ من سورة النحل – وقوله عز وجل : {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} – من الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

هؤلاء الموصوفين المفلحين لا يقف عند حدَّ المُحافظة على الأمانات ، أو أدائها ، بالإضافة إلى الوفاء بالعهود ، وإنَّما يتخطَّي ذلك ويتعدَّاه ، لدرجة أنهم يقومون بمراعاة تلك الأمانات وهذه العهود مراعاة تامَّة ، ذلك بأن يقوموا بمراقبتها ، وبتفقُّد شأنها ، وملاحظتها ؛ لحفظها من التَّلاشي والإهمال ، ومن الأسباب التي تؤدِّي بها إلى الضياع ، ولإصلاح ما فسدَ منها [١] ؛ حرْصاً على أدائها ، والوفاء بها (على) وجه نافع غير ضار " [٢] ، وبدون إخلال [٣] بما يتطلَّبه هذا الأداء ، وذلك الوفاء ، من قِبَل أصحابه الذين يتولون أمره [٤] .

يدُلُّنا على ذلك ما ذَكَرَتْه المعاجم اللغوية عمَّا تختصُّ به مادَّة (رَعَيَ) ومشتقاتها من معانٍ .

يقول أبو هلال العسكري : " الفرق بين (الحفظ) ، و (الرعاية) أنَّ نقيض الحفظ : الإضاعة ، ونقيض الرعاية الإهمال ، ولهذا يُقال للماشية إذا لم يكن لها راعٍ هَمَلٌ ، والإهمال هو ما يؤدِّي إلى الضياع ، فعلي هذا يكون " الحفظ " صرف المكاره عن الشيء لئلا يهلك ، " والرِّعاية " فعل السبب الذي يصرف المكاره عنه ، ومن ثَمَّ يُقال : فُلان يرعي العهود بينه وبين فُلان ، أي : يحفظ الأسباب التي تبقي معها تلك العهود ، ومن رَاعِي المواشي ؛ لتفقُّده أمورها، ونفي الأسباب التي يخشي عليها الضّياع منها ، فأمَّا قولهم للسَّاهر: أنَّه يرعي النُّجوم، فهو تشبيه براعي المواشي؛ لأنّه يُراقبها كما يُراقب الرَّاعي مواشيه[٥] .

---

(١) ينظر : الكشاف جـ ٣ ، ص ١٧٣ ، والتحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ١٧ .
(٢) نظم الدَّرر جـ ٨ ، ص ١٥٤ .
(٣) ينظر : روح المعاني جـ ١٧ ، ص ١٧ .
(٤) يقول الزمخشري : " والرَّاعي : القائم على الشئ بحفظ وإصلاح كراعي الغنم ، وراعي الرَّعيَّة، ويُقال : من راعي هذا الشئ ؟ أي متوليه وصاحبه " – الكشاف ، جـ ٣ ، ص ١٧٣ ، وينظر : تفسير الرازي جـ ١١ ، ص ٣٤٩ .
(٥) الفروق اللغوية ص ١٦٩ ، وينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ٣ ، ص ٢٣٩٥ .

ويقول الرَّاغب : " ومراعاة الإنسان للأمر : مُراقبته إلى مـــاذا يصـــير ، وماذا منه يكون " [١] .

ويقول ابن منظور : " ... وراعيتُ الأمر : نَظَرْتُ إلام يصير ، وراعيتُه : لاحظتُه ... وفلان يرعي أمر فُلان أي ينظر إلى ما يصير إليه أمره ... والرَّعوي: رعاية الحِفاظ للعهد ... والرَّعيَّة : كُلُّ من شمِله حفظ الرَّاعي ونظرُه " [٢] .

وفي التعبير بالاسم (راعون) دون الفعل (يرعون) إشارة جلية إلى أن مُراعاتهم لتلك الأمانات والعهود تتناسب وإيمانهم الثابت والقارَّ فـــي نفوســـهم ، فهي مراعاة ثابتة ودائمة لا تفارق هؤلاء المفلحين ، ولا تنفـــكُّ عـــنهم ؛ لأنَّهـــا متأصِّلة فيهم ، ولا تنفصل عن إيمانهم المستقرِّ في دواخل نفوسهم ، ولا يطـــرأ على تلك المراعاة أيُّ نقص أو انقطاع ، فهي صفة من صفاتهم ، وليست فعلاً من أفعالهم القابلة للتحوُّل ، أو التَّجدُّد والحدوث الذي هو من لوازم التعبير بالفعل .

هذا ، ولمَّا كانت الصَّلاة من أعظم الأمانات التي يجب المُحافظة عليهـــا ، وعدم التهاون فيها ، وفي أركانها ، وكانت " أجلَّ ما عُهِدَ فيه من أمر الدِّين وآكد ، وهي من الأمور الخفية التي وقع الائتمان عليها ؛ لِما خفَّف اللهُ فيها على هذه الأُمَّة بإيساع زمانها ومكانها " [٣] ، لمَّا كان الامر كذلك – أتبع الحقُّ تبارك وتعالى – قوله السابق[٤]، مُختتماً صفات المؤمنين المفلحين بقوله سبحانه :

---

(١) المفردات جـ ١ ، ص ٢٦٢ (رعي) .
(٢) لسان العرب جـــ ٥ ، ص ٢٥٢ : ٢٥٥ (رعي) .
(٣) نظم الدُّرر جـ ٥ ، ص ١٨٤ .
(٤) وهو قوله سبحانه : {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} . الآية ٨ من سورة المؤمنون .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [١] .

وفي هذا إيماء إلى أن الصلاة من العهد في هؤلاء المفلحين أن يُراعوها بالمُحافظة عليها ، وفي هذا المعنى جاء قول النبي ﷺ : " العهد الذي بيننا وبينهم[٢] الصلاة ، فمن تركها فقد كفر " [٣] .

فبعد أن عدَّدت الآيات الكريمة ما عدَّدته من صفات المؤمنين المفلحين ، عادت لتؤكِّدَ لنا الثناء على أصحاب هذة الصِّفات مشيرة الى انهَّم هم المؤمنون الحقيقيون الذين يحافظون على صلواتهم " بإدامه أفعالها فى أوقاتها [٤]، متى تكَّررت مفروضاتها " [٥] فهم الذين " لا يفوّتونها كسلاً، ولا يُضيِّعونها إهمالاً ،ولا يُقصِّرون فى إقامتها لماينبغى أن تُقام ،إنَّما يؤدُّونها فى أوقاتها [٦] كاملة الفرائض

---

(١) الآية ٩ من سورة المؤمنون .

(٢) الضمير في بينهم للمنافقين ، ومن هو على شاكلتهم من الكفار ، وجميع أعداء الذين بدليل قوله ﷺ في حديث آخر : "بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة" ، وفي حديث ثالث "ليس بين العبد والشرك إلّا ترك الصلاة ، فإذا تركها فقد أشرك" ففي هذين الحديثين، والحديث المذكور أعلاه دليل واضح على أنَّ من ترك الصلاة ممن يدّعون الإسلام ، فأنَّه والكافر سواء ظاهر ، إذ ليس بينهما علامة ظاهرية تكون فارقة . (ينظر : تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري – بحاشية سنن ابن ماجه جـ ١ ، ص ٥٦٤ ، والحديثان مذكوران في سنن ابن ماجه في (كتاب : إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها – باب : ما جاء فيمن ترك الصلاة ، الأولى في ص ٥٦٤ ، تحت رقم ١٠٧٨ ، والثاني في ص ٥٦٥ برقم ١٠٨٠) ط / دار المعرفة – بيروت لبنان – أولي ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦ م .

(٣) سنن ابن ماجه جـ ١ ، ص ٥٦٤ (الحديث رقم (١٠٧٩) .

(٤) على أن تكون تلك الإدامة فى الجماعات التى تُقام فى المساجد .

(٥) أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بـ (ابن العربى) – تحقيق / على محمد البجاوى ص٣ جـ ١٣١١ – ط دار الفكر العربى غير مؤرّخة .

(٦) ولذلك وردت أحاديث نبوية شريفة كثيرة فى منطوق المحافظة على الصلاة وفى مفهومها ، ومن ذلك ما ورد فى أن أداء الصلاة في وقتها من أحبِّ الأعمال إلى الله عز وجل ،فقد روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألتُ رسول الله ﷺ: " أيُّ العمل أحّب إلى الله ؟ قال الصلاة على وقتها . .. الحديث ". (صحيح البخارى ح١ ص٢٥٩ ، ٢٦٠ – كتاب مواقيت الصلات باب: أفضل الصلاة أوقتها الحديث رقم ٥٢٧) وكذلك روى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنَّه ذكر الصلاة يوماً ،فقال : من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة يوم القيامة ،ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورا ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون،وفرعون ،وهامان ،وأبّى بن خلف . (مسند الإمام أحمد بن حنبل ح١١ ، ص١٤١ الحديث رقم ٦٥٧٦) .

الفرائض والسُّنن، مستوفية الأركان والآداب، حيَّة ليستغرق فيها القلْبُ ،وينفعل بها الوجدان" [١] .

ولاشك فى أنَّ من كانت تلك المحافظة صفته ، كان جديراً بأن يكون وقَّافاً عند حدود الله تعالى عاملاً بشريعته ،محافظاً على ما استأمنه الله عز وجل واسترعاه عليه ، بالمعاهدة والالتزام الكامل بما يجب عليه من الوفاء بجميع ضروب الأمانات والعهود ،لا فرق فى ذلك بين ما كان بينه، وبين خالقه سبحانه وبين ما كان بينه وبيْن سائر الخلق [٢] ، وبذا " يكون فى المحافظة عليها [٣] كمال صلاح أمور الدّنيا والآخرة " [٤] .

على أنَّ ذكر قوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [٥] ليس تكريراً لما وصفوا به أوّلاً فى قوله تعالى : { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [٦] ؛ لأن " الخشوع والمحافظة متغايران ؛ بدأ أوّلاً بالخشوع ، وهو المراقبة القلبية ، والتَّذَلُّل بالأفعال البدنية ،وثنَّى بالمحافظة ، وهى تأديتها فى وقتها بشروطها من طهارة المصلِّى ، وملبوسه ، ومكانه ،وأداء أركانها على أحسن هيئاتها ،ويكون ذلك دأبه فى كلِّ وقت[٧]"[٨]، وبذا يكون البدء بالصلاة ، والختام بها فيه " زيادة معنى ، مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة فى كلتا

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٤ ص٢٤٥٦ ،٢٤٥٧ .
(٢) ينظر : تفسير المنار جـ ٢ ص٣٥٠ ،٣٥١ .
(٣) أى : على الصلاة .
(٤) نظم الدّرر جـ١ ص٤٥٠ (تعليقاً على قوله تعالى :{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين} الآية ٢٣٨ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٩ من سورة المؤمنون .
(٦)الآية ٢ من السورة نفسها .
(٧) وإلى هذا المعنى أيضاً أشار الإمام الزمخشرى بقوله " فإن قلت كيف كرَّر ذكر الصلاة أوّلاً وآخراً ؟ قلت : هما ذكران مختلفان ، فليس بتكرير وُصِفوا أوّلاً بالخشوع فى صلاتهم ،وآخراً بالمحافظة عليها ،وذلك أن لا يسهوا عنها ، ويؤدُّوها فى أوقاتها ، ويقيموا أركانها ،ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها ،وبما ينبغى أن تتمَّ به أوصافها " الكشاف جـ٣ ص١٧٣ .
(٨) البحر المحيط جـ٧ ص٥٥٠ .

الجملتين " [١] ،وبخاصة إذا كانت الصلاة لا تتمُّ إلاَّ بالأمرين معاً (الخشوع فيها)، و(المحافظة عليها)،وإلاَّ فإنَّ الإخلال بأحدهما يؤدى بالضرورة إلى النَّقص فى تلك الصلاة وإلى عدم إتمامها ، ولذا فإنَّ المحافظة المذكورة ،لابد أن تكون شاملة لجميع أوقات الصلوات " وشروطها [٢] ، وأركانها ، ومتمِّماتها فى ظواهرها، وبواطنها من الخضوع ،والمراقبة ،وغير ذلك من خلال الإحسان التى إذا فعلوها كانت ولابد ناهية لفاعلها " [٣] عن الفحشاء والمنكر [٤] ، وهذا هو شأن الصلاة الكاملة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :{ إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}[٥] ،وبذا تكون إعادة ذكر الصلاة مبنية على أنَّ المؤمن " مأمور بالمحافظة عليها كما هو مأمور بالخشوع فيها " [٦] .

ونخلص من هذا إلى أنَّ افتتاح الصِّفات المذكورة بالصلاة ،واختتامها بالصلاة فيه دلالة على علُوِّ قدرها ، "وعظيم مكانتها [٧] فى بناء الإيمان ،بوصفها ،بوصفها أكمل صورة من صور العبادة ،والتَّوجُّه إلى الله" [٨] على أنَّ " تقديم

---

(١) التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص١٧٤ (تعليقاً على قوله تعالى { والذين هم على صلاتهم يحافظون } الآية ٣٤ من سورة المعارج .

(٢)أى شروط الصحة الخاصة بالصلاة ،من طهارة البدن ، وستر العورة بلباس طاهر ، والوقوف على مكان طاهر ،والعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ،وما شابه .

(٣) نظم الدَّرر جـ ٨ ص١٥٥ (تعليقاً على الآية (٣٤)من سورة المعارج .

(٤) ولذلك قال الإمام النيسابوري : " الفرق بين (المحافظة) ، و(الخشوع) أنَّ الخشوع معتبر فى نفس الصلاة ، والمحافظة معتبرة فيها ، وفيما قبلها من الشرائط ، وفيما بعدها ،وهو أن لا يفعل ما يحبطها ،ويضيِّعها " غرائب القرآن جـ٣ ص٢٤٠١، ولاشك فى إنَّ إحباط الصلاة ، وتضييعها يكون باقتراف المآثم،كاللغو ، وعدم تزكية النفوس ، وعدم حفظ الفروج ،وبتضييع الأمانات ، وعدم مراعاة العهود ... الخ .

(٥)من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

(٦) أحكام القرآن لحجة الإسلام أبى بكر أحمد علىٍّ الرَّازى الجصَّاص جـ٣ ص٢٥٤ -ط دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان – غير مؤرَّخة .

(٧)وقد ورد فى السُّنَّة النبوية ما يدلَّ على العُلوِّ والعِظم المذكورَيْن ،حيث جاء فى الحديث الشريف الشريف (استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أنَّ خير أعمالكم الصَّلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلَّا مؤمن) – سنن ابن ماجه جـ١ ص١٧٨ (كتاب : الطَّهارة وسننها – باب المحافظة على الوضوء –الحديث رقم ٢٧٧) ، إنَّما كانت الصلاة خير أعمال المؤمنين ؛ لأنها أشرف العبادات بعد الإيمان.

(٨) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص٢٤٥٧ .

الخشوع [إنما كان] ؛ للاهتمام بها ،فإنَّ الصلاة بدونه كلا صلاة بالإجماع ،وقد قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح[١] "[٢] .

وقد جاء " ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ؛ ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار فى الذِّهن ؛ لأنَّها آخر ما قرع السَّمع من هذه الصِّفات [٣] ... "[٤] .

ولنا أن نتأمَّل كذلك ما فى الافتتاح والختم المذكوريْن من تكرير ذكر (الصلاة) على سبيل ما يعرف لدى البلاغيين بـ (ردِّ العجز على الصَّدر) أو بـ (التصدير) ، وهو ضرب من ضروب البيان [٥] ، حيث إنَّ ذلك التكرير إنما كان " تحسيناً للكلام الذى ذكرت فيه تلك الصفات ؛ لتزداد النَّفس قبولاً لسماعها ، ووعيها ، فتتأسَّى بها " [٦] ، وأيضاً جاءت المحافظة على الصلوات فى نهاية الصفات المذكورة ؛ لأنَّه " لمَّا كانت أضداد هذه المذكورات [٧] نقائص ،ومهلكات، ،ومهلكات، وكانت الأنفس– لما لها من النَّقص – نَّزاعة إلى النقائص ، ميَّالة إلى الدَّسائس ، ذكَرَ – سبحانه – بالدواء المبْرِئ من كُلِّ داء " [٨] ما يشير " إلى حفظ

---

(١) وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل فى معرض الكلام عن قوله تعالى : { الذين هم فى صلاتهم خاشعون } الآية ٢ من سورة المؤمنون .
(٢) روح المعانى جـ١٧ ص١٨ .
(٣) ومن أجل هذه الأهمية لذلك عظَّم رسول الله ﷺ أمر الصلاة حيث جعل المحافظة عليها من آخر آخر ما أوصى به أمَته عند وفاته – عليه السلام – قائلاً : " الصلاة الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم " سبق ذكر هذا الحديث وتخريجه فى معرض الحديث عن قوله تعالى { الذين هم فى صلاتهم خاشعون} الآية٢ من سورة المؤمنون .
(٤)التحرير والتنوير جـ١٨ ص١٨ .
(٥) ينظر : بديع القرآن ص٣٦ ، والفوائد المشوِّق إلى علوم القرآن ص٢٦٤ .
(٦) تحرير التنوير جـ ١٨ ص ١٨ .
(٧)أى أضداد الصِّفات التى تضمَّنتها الآيات (٢ : ٨) من سورة المؤمنون ،والتى سبق ذكرها على على قوله تعالى { والذين هم على صلواتهم يحافظون} الآية٩ من السورة نفسها .
(٨) نظم الدرر جـ ٨ ص١٥٤ .

أحوال الصلاة ، وأوصافها ، بعد ذكر الحفظ لذواتها ، وأعيانها [١] ؛ تنبيهاً على شدَّة الاهتمام بها " [٢] ، فقال جلَّ وعلا :{ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [٣] ، [٣]، مما يعنى أنَّ المحافظين على الصلاة هم الذين قال الله – عز وجلَّ – فى شأنهم { قد أفلح المؤمنون ٠الذين هم فى صلاتهم خاشعون } إلى قوله تعالى { والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون }[٤] .

ذلك فضلاً عن أنَّ المحافظة على الصلواتَ عَمَلٌ ، أمَّا ما ذكر قبلاً من صفات فهى أخلاق ، والأعمال أفعال ، والأخلاق صفات ،وفى ذلك دلالة على أنَّ المؤمن لن ينال الفلاح إلَّا إذا صار خشوعه فى الصلاة ، وإعراضه عن اللغو ، وفعله الزكاة ... الخ من أخلاقه وسجاياه ،وطبيعة من طبائع نفسه التى طبع عليها ، وبلا تكلف ، ولمَّا كانت المحافظه – المعتبرة – على الصلوات عَمَلاً من الأعمال جاءت فى ختام الصِّفات المذكورة ؛لأنّ هذا العمل لا يصدُر إلَّا من نفس مؤمنة طُبعِت على تلك الصِّفات ، وصارت جِبلَّة فيها ، ثابتةً ومتمكِّنة فى قلوب أصحابها .

هذا ، ولا يخفى ما فى وصل الآية الكريمة بما قبلها عن طريق (واو) العطف ، من دلالة على أنَّ هؤلاء المؤمنين المفلحين من شأنهم بلوغ حدِّ الكمال والتمام بالمحافظة على تلك الصلوات، كما هو الشَّأن فيما وصِفوا به قبلاً، ذلك بالإضافة إلى بعض الأسرار الأخرى على نحو ما مرَّ بيانه [٥].

---

(١) أى ذوات المصلّين وأعيانهم ، والمراد أنَّ الآية الكريمة :{والذين هم على صلواتهم يحافظون}، ورد ذكرها بعد ذكر الصِّفات التى ما إن تحلَّى بها هؤلاء المصلّون بظواهرهم وكلِّياتهم حفظت جوارحهم ،وسرائرهم ،وضمائرهم من كلِّ نقص،وخلتْ وبرئت من كلِّ عيْب يشينهم

(٢) نظم الدُّرر جـ ٨ ص ١٥٥ .

(٣) الآية ٩ من سورة المؤمنون .

(٤) أى الآيات(١: ٨) من السورة نفسها .

(٥) ينظر ما ذكرته عن دلالة الرَّبط بـ(الواو)،وذلك فى معرض الحديث عن قوله تعالى :{والذين :{والذين هم عن اللغو معرضون} وقوله سبحانه : {والذين هم للزكاة فاعلون } ، وقوله جلَّ

أضف إلى ذلك ما فى تصدير الآية الكريمة باسم الموصول (الذين)،وما فى تصدير جملة الصِّلة بالضمير (هم) من دلالة على الإشادة بذكر أصحاب الصِّفة المذكورة عن طريق تعريفهم ، وتعيينهم بذواتهم إلى غير ذلك من الحِكَم الباهرة ، والفوائد الجليلة ، والأسرار الدقيقة المترتِّبة على التَّصدير المذكور، وقد سبق أن وقفت على ذلك وقفة متأنِّية [١] ، لاداعى لتكرارها ،خوفاًمن الإطناب المملِّ الذى يضيق به القارئ ذَرْعاً .

ذلك فضلاً عمَّا فى تقديم المسند إليه (هم)على خبره الفعلى (يحافظون) من دلالة على تقوية الحكم وتوكيده ،مع الاهتمام بشأن المقدَّم (المُحدَّث عنه " هم") ، وبيان أنَّ القصد إليه[٢] ، على سبيل المدح والثناء ؛ لأن المحافظة المذكورة لا تصدر من هؤلاء المفلحين إلاَّ عن رغبة ، ورضِا ، وهذا يعنى أنَّ فى التقديم المذكور " تأكيداً وإبلاغاً فى المراد إلى أقصى ما يمكن " [٣] فعله مِنْ قِبَل المذكورين تجاه المحافظة على الصَّلوات ، تلك المُحافظة التى هى من شأنهم،

وعلا : { والذين هم لفروجهم حافظون } الآيات (٣ : ٥ من سورة المؤمنون .

(١) وذلك عند تناولى للآيتين(٢ ،٣) من السورة الكريمة.

(٢) والسِّرُّ فى إفادة التقديم المذكور تقوية الحكم وتوكيده راجع – على مذهب الإمام عبد القاهر – إلى أنَّ المُحدَّث عنه (الضمير"هم ") ابتُدئ به على سبيل التمهيد ، والتوطئة للحديث عنه ، فإذا ما جاء الإخبار عنه بعد ذلك بقوله تعالى:{على صلواتهم يحافظون} ثبت هذا الحُكم ، وتقرَّر فى ذهن السَّامع ، ومثل هذا التَّقرُّر ، وذلك الثبوت لا يمكن تحققه إذا ما قيل مثلاً : " والذين يحافظون على صلواتهم " بتأخير ذكر المُحدَّث عنه ، إذ إنَّه والحالة هذه لا يعلم السَّامع أكثر من أنَّ الفاعل مذكور بعد الفعل لا محالة ؛ لأن كُلَّ فعل لابد له من فاعل ، لم يكن فى الكلام ما يلفت، وينبِّه . (ينظر : دلائل الإعجاز صـ ١٣٢ ، وينظر : دراسة فى البلاغة والشعر للدكتور / محمد أبى موسى صـ ٦٥ ، ٦٦ – نشر / مكتبة وهبة – أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
ـ هذا ، وعلى رأى أصحاب شروح التلخيص أنَّ سرَّ إفادة التقديم للتقوية المذكورة راجع إلى أنَّ الإسناد فى مثل هذه الحالة يكون قد تكرَّر ، بمعنى أنَّ الفعل (يحافظون) قد وقع خبراً للمبتدأ الذى هو الضمير المذكور (هم) ، وفى نفس الوقت أسند إلى الفاعل ، وهو ضمير الجماعة العائد على المبتدأ فكأنَّ الحُكم قد ذُكِر مرَّتين ، مرَّة عند إسناد المسند إلى ذات المسند إليه ، ومرَّة أخرى عند إسناده إلى ضميره ، ولاشك أنَّ تكرار الحُكم على هذا النحو يفيد تقويته وتأكيده ، كما أنَّه أقوى ممَّا لو قيل : " والذين يحافظون على صلواتهم " ؛ باعتبار أنَّ النَّص القرآنى اكتسب فيه الحكم قوّة وتأكيداً . ينظر : شروح التلخيص جـ ١ ، صـ ٤٠١ : ٤٠٣ .

(٣) نظم الدُّرر جـ ٨ ، صـ ١٥٥ .

وعادتهم ، فهى ديدنهم ، ومن دأبهم لا من دأب غيرهم الـذين لا يرغبـون فـى الفلاح .

وأيضاً : يُقال فى تقـديم المعمـول (علـى صـلواتهم) علـى العامـل (يحافظون) يُقال فى ذلك ما قيل قبلاً فى نظائره [١] ، وكذلك الأمر فى مجئ لفظ (صلوات) مضافاً إلى ضمير المُخبر عنهم بالفلاح (هم) ، يُقال : فى هذا الشأن ما قيل فى نظائره قبلاً .

هذا ، ولا يخفى ما فى التعبير بحرف الاستعلاء فى قوله تعالى : {علـى صلواتهم }من دلالة على أنَّ هؤلاء المفلحين من شأنهم الثبات على أمر المحافظة على الصلوات ،ذلك كما يثبت الشئ على المكان ، فهم ثابتون على تلك المحافظة وبقوّة ،لا يفارقونها وكأنهم اعتلوها [٢] ،ومستمرّون على المرور عليها ،وإن دلَّ هذا فإنَّما يدلّ على أنَّ من يرغب من المؤمنين فى الفلاح ،فعليه أن يجتهد فـى حفظ صلاته عن طريق المُحا فظة والمداومة عليها ، قدر الاستطاعة .

ولمَّا كان المقصود هو المُحافظة على عموم الصلوات مفروضة [٣] كانت أو مسنونة ، وكان المُراد من تلك المُحافظة هو كثرتها ، واسـتمرارها بتجـدُّدها شيئاً بعد شئ، وتعاقبها بتعاقب الصلوات؛ إذ إنَّه كلَّما انقضت صلاة خلفتها صلاة

---

(١) ومن هذه النظائر : قوله تعالى : { الذين هم فى صلاتهم خاشعون } – الآيـة ٢ مـن سـورة المؤمنون ، والآيتان (٣ ، ٤) التاليتان لهذا القول الكريم من السورة نفسها ، فلتنظـر فـى مواضعها من هذا البحث .

(٢) وما ذكرته هنا إنما هو على سبيل الاستلهام مِمَّا أورده العلماء من أنَّ الحرف (على) يـؤتى به فى الكلام متضمّناً معنى الاستعلاء ، والعلوّ ،والثبات على الأمر (ينظر : الصَّاحبى فى فقـه اللغة لابن فارس – تحقيق الدكتور / عمر فاروق الطبَّاع ص١٥٩ – نشر مكتبة المعـارف – بيروت – لبنان ط أولى ١٤١٤ه – ١٩٩٣م ويقول ابن منظور: " وعلى : حرف جر ، ومعناه : استعلاء الشئ ، تقول : هذا على ظهر الجبل ،وعلى رأسه وعلينا أمير كقولك: عليه مال ؛ لأنَّه شئ اعتلاه، وهذا كالمَثل ،كما يثبت الشئ على المكان كذلك يثبت هذا عليه ". لسان العرب جـ ٩ ص٣٨٠(علا).

(٣) وذلك على نحو ما جاء من الأمر بالمُحافظة عليها فى قوله تعالى: {حافظوا علـى الصـلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين } الآية ٢٣٨ من سورة البقرة .

أُخرى- أقول لمّا كان المقصود هو ذلك -كان لفظ الجمع (صلواتهم) أولَى بهذا المقام ؛لدلالته على المعنى المقصود ، وهو كثرة الصلاة وتنوعها .

يقول الإمام الزَّمخشرى : " فقد وُحِّدت [١] أوَّلاً [٢] ؛ ليُفاد الخشوع فى جنس الصلاة أىِّ صلاة كانت [٣] ، وجُمعت آخراً [٤] ؛ لتُفاد المُحافظة على أعدادها: وهى الصلوات الخمس ، والوتر ،والسُّنن المرتَّبة مع كُلِّ صلاة ، وصلاة الجمعة ، والعيدين ، والجنازة ، والاستسقاء ، والكسوف والخسوف ، وصلاة الضُّحى ، والتَّهجُّر، وصلاة التسبيح ، وصلاة الحاجة ، وغيرها من النوافل " [٥] .

كما أنَّ مجئ (صلواتهم) فى صورة جمع المؤنث السالم ، وهو من صيغ جموع القلَّة التى هى فى حدِّ ذاتها تشى بقلَّة عدد تلك الصلوات ،وحصره – هذا المجئ – يعنى أنَّ التعبير بالصيغة المذكورة يحمل فى طيِّه فائدة بلاغية أُخرى ،من ناحية أنَّ تلك الصيغة تتضمَّن تسهيلاً ،وتفسيراً على المُكلَّفين الرَّاغبين فى الفلاح ؛لأنَّ مفادَها أنَّ الصلوات المرُاد المُحافظة عليها ، وإنْ كانت كثيرة ومتنوِّعة ،إلاَّ أنَّ أعدادها قليلة ويسيرة بالنسبة لهؤلاء المفلحين ،ومن ثَمَّ فإنَّه تسهُل المُحافظة عليها مِنْ قِبَلِهم ، بعد صدق إرادتهم ، وقوَّة هِمَّتهم فى تنفيذها ؛ طمعاً فى الثواب الذي ينتظرهم من قِبَل المولى – عز وجل – لحسن صنيعهم.

فإن قيل : إذا كان لفظ (صلوات)- فى الآية التى معنا – جئ به جمعاً ؛ للعلَّة المذكورة ، فلأىِّ معنى خُصَّ بصيغة الإفراد فى قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ

---

(١) أى : الصلاة .
(٢) أى : فى قوله تعالى: { الذين هم فى صلاتهم خاشعون } الآية ٢ من سورة المؤمنون .
(٣) وقد سبق بيان فائدة إفراد لفظ (صلاة) في الآية المذكورة بالتفصيل .
(٤) أى فى تعالى : { والذين هم على صلواتهم يحافظون} – الآية من سورة المؤمنون .
(٥) الكشاف جـ٣ ص١٧٣ .

عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [١] ، وذلك فى سورة المعارج ، مع أنه وارد أيضاً فى مدح المؤمنين بالمُحافظة على الصلاة ؟

أقول :لقد تهدَّى إلى الإجابة عن ذلك (الإمام البقاعى) مشيراً إلى أنَّ سرَّ التغاير بين الصِّيغتين (الإفراد والجمع) راجع إلى أنَّ كُلَّ واحدة من الآيتين تقدَّمها ما يقتضى حمل ما يُناسبه عليه ، ففى آية (المؤمنون) يرى الإمام البقاعى أنَّ " السياق لأهِل الرُّسوخ فى المحاسن " [٢] ، وهذا يعنى أنَّ المؤمنين فى هذا السياق وُصفوا بأجمع ما ذُكر فى وصفهم،فناسب التعبير بصيغة الجمع[٣]؛ لما فيها من الإشارة إلى محافظتهم على الفرائض، والنوافل بأنواعها[٤] .

أمَّا عن سرِّ العدول إلى صيغة الإفراد (صلاتهم) فى آية المعارج [٥] فقد أشار (الإمام البقاعى) بقوله : " ولكون السياق هذا للتخلِّى عن الأوصاف

---

(١) الآية ٣٤ من سورة المعارج .

(٢) نظم الدُّرر جـ ٨ ص١٥٥ .

(٣) وهذا يعنى أنَّ التعبير بصيغة الجمع الدَّالة على التفخيم فى آية "المؤمنون " ناسب ما اكتنفها من تفخيم وصف المؤمنين وتفخيم جزائهم ، حيث إنَّه افتتح السورة الكريمة بالإخبار عن فلاحهم، فقال تعالى :{ قد أفلح المؤمنون} – الآية من سورة المؤمنون – والمفلح : الظافر ببغيته ، ثم ابتدأ من أوصاف المفلحين بأجلِّ خصالهم ، وهو الخشوع فى الصلاة ، فقال سبحانه: { الذين هم فى صلاتهم خاشعون} – الآية ٢ من سورة المؤمنون– وهذا الوصف منبئ بعظيم خوفهم ، الذى لا يمكن معه تفريط، ولا فتور فى العبادة ، وبعد ذلك جاء وصفهم بالإعراض عن اللغو { والذين هم عن اللغو معرضون } –الآية ٣ من سورة المؤمنين – ومن أعرض عن اللغو سلم من كل ما يشين دينه ،وحصل من هذا، وما قبله ترك المُخالفات جملة ،فما كان بعد ذلك إلاَّ أنْ فخَّم جزاءهم ،واصفاً إيَّاهم بأنهم الوارثون لجنَّة الفردوس التى هى أعلى درجات الجنَّة ،وخصَّهم بتلك الوراثة دون غيرهم ،ووصفهم بالخلود فى تلك الجنَّة ،فقال سبحانه : { أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون }–الآيتان ١٠ ،١١ من سورة المؤمنون . ينظر :ملاك التأويل جـ ٢ ص٨٧٢ ، والمتشابه اللفظى فى القرآن الكريم للدكتور / محمد ماجد العطائى ص٢٢٤، ٢٢٥ – نشر مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان ١٤٣١ ه – ٢٠١٠م.

(٤) ينظر : نظم الدُّرر جـ ٨ ص ١٥٥ ،والمشابه اللفظى ص ٢٢٥ .

(٥)أى فى قوله تعالى :{ الذين هم فى صلاتهم خاشعون }–الآية ٤٣ من سورة المعارج

الجارَّة إلى الكُفر [١] ، وحَّد الصلاة إشارة إلى أنَّه يكفى فى ذلك الفرائض ، وإن كان الجنس يشمل [٢] " [٣] .

(والبقاعى) بهذا يرى أنَّه لمَّا كان قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [٤] وارداً فى السياق المذكور[٥] ، فإنَّ لفظة (صلاتهم)،" وإن كانت تشمل جميع أنواع الصلاة " [٦] ، إلَّا أنها " تشير – مقارنة بصيغة الجمع [٧] إلى إلى أنهم [٨] ، لوْ اكتفُوا بالمُحافظة على أداء الفرائض لكان كافياً " [٩] .

أضف إلى ما ذكره (الإمام البقاعى) أنَّ ما اكتنف آية المعارج " من وصف المؤمنين وجزائهم لم يقع باللَّفظ المفُخَّم كمشابهتها [١٠] ، وإنَّما وصفوا هُنا [١١] بمداومتهم على صلاتهم ، وإنفاقهم من أموالهم ،قال تعالى: {إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ

---

(١) تلك الأوصاف هى المُشار إليها بقوله تعالى : { إنَّ الإنسان خُلق هلوعا .إذا مسَّه الشَّرُّ جزوعاً وإذا مسَّه الخير منوعا } الآيات(١٩: ٢١)من سورة المعارج– ويُنظر ما ذكرتُه عن تلك الأوصاف أثناء تناولى لقوله تعالى : { الذين هم فى صلاتهم خاشعون } – الآية ١من سورة المؤمنون .

(٢) والبقاعى بهذا يُلمح إلى أنَّ لفظ صلاة فى قوله تعالى {على صلاتهم } اسم جنس إفرادى فى معنى الجمع ،فهو يشمل جميع أنواع الصلوات .

(٣) نظم الدُّرر جـ٨ ص ٥١٥٥ .

(٤) الآية ٣٤ من سورة المعارج .

(٥) أى : سياق التخلّى عن الأوصاف الجارة إلى الكفر على نحو ما أشار الإمام البقاعى.

(٦) المتشابه اللفظى فى القرآن الكريم ص ٢٢٥ .

(٧) تلك الصيغة الواردة فى قوله تعالى :{ والذين هم على صلواتهم يُحافظون } – الآية من سورة المؤمنون .

(٨) أى : الموصوفون بالمُحافظة على الصلاة فى قوله تعالى : { والذين هم على صلاتهم يحافظون يحافظون } – الآية٣٤ من سورة المعارج .

(٩) المتشابه اللفظى ص ٢٢٥ .

(١٠) أى كمشابهتها مِمَّا ورد ذكره فى سورة (المؤمنون) من الإخبار عن المؤمنين بفلاحهم ، وغير ذلك من الأوصاف التى بها نجاتهم بتوفيق الله – سبحانه – إياهم ،كذكر الخشوع فى الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، والتنصيص على الزكاة ،إذ إنَّ هذا الأمور جميعها اختُصَّت بها سورة (المؤمنون) دون سورة المعارج .

(١١) أى فى سورة المعارج .

وَالْمَحْرُومِ} [١] وقيل فى جزائهم { أولئك فى جنَّات مُكرمون}[٢] فلمَّا كان هذا الجزاء ، وذلك الوصف دون ما ذُكر فى سياق آية المؤمنين[٣] ، اقتضت المُناسبة المُناسبة العدول إلى صيغة الإفراد ، فقيل : { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[٤] " [٥] .

---

(١)الآيات (:٢٢ :٢٥) من سورة المعارج .

(٢) الآية ٣٥ من سورة المعارج

(٣) وقد كانت تلك الدُّونية – على نحو ما قال به الدكتور فاضل صالح السَّامرَّائى من ناحية أنَّ :" :" الخشوع أعمُّ من الدُّوام ، ذلك أنَّه يشمل الدوام على الصلاة ،وزيادة فهو روح الصلاة وهو من أفعال القلوب والجوارح من تدبُّر وخضوع وتذلُّل وسكون ،وإلباد بصر ،وعدم التفات ، والخاشع دائم على صلاته منهمكٌ فيها حتى ينتهى " ، ويسترسل السَّامرائى في حديثه قائلاً : " قال في (المؤمنون): { والذين هم عن اللغو معرضون} – الآية٣ من سورة المؤمنون – وهو كلٌّ باطل من كلام وفعل ،وما توجب المروءة إطراحه ، ولم يذكر مثل ذلك فى سورة المعارج ،فهذه صفة فضلٍ لم ترد في المعارج " ،ويُتابع السَّامرائى بقوله : " قال في المؤمنون : { والذين هم للزكاة فاعلون } – الآية ٤ من سورة المؤمنون – وقال فى سورة المعارج والذين في أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم " – الآيتان (٢٤ ، ٢٥) وما في سورة (المؤمنون) أعمُّ وأشمل ؛ إذ الزكاة تشمل العبادة المالية ، كما تشمل طهارة النفس ، فهي أعلي ممَّا في المعارج وأكمل ، فإنَّه ذكر في المعارج أنهم يجعلون في أموالهم حقًّا للسائل والمرحوم ، أمَّا الزكاة فإنها تشمل أصنافاً ثمانية (أي التي نُصَّ عليها في قوله تعالى {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ..... الآية } ٦٠ من سورة التوبة) وليس للسائل والمحروم فقط ، هذا علاوة على ما فيها من طهارة النفس وتزكيتها ، كما سبق تقريره)) ثم يخلص الدكتور / فاضل السَّامرائي إلى أنَّه : لمَّا كانت الصفات في آيات سورة (المؤمنون) أكمل وأعلي كان جزاؤهم كذلك (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ، فجعل لهم الفردوس ، والفردوس أعلي جنة وربوتها ، وأفضلها ، ومنه تتفجَّر أنهار الجنَّة ، ثم ذكر أنَّهم خالدون فيها ، في حين قال في سورة المعارج (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) أي أنَّهم في جنَّات ، ولم يذكر أنهم في الفردوس، ولا في أعلي الجنان ، كما أنَّه لم يقل أنَّهم فيها خالدون على نحو ما قال به في سورة(المؤمنون) التي نُصَّ فيها على زيادة في الفضل والمرتبة .

– ومن ثم فقد ناسب كلَّ تعبير موطنه ، فجاء في سورة (المؤمنون) : {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} " بالجمع ، وقال في المعارج " {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} بإفراد الصلاة ، والصلواتُ أعم من الصلاة وأشمل ، والمحافظة على الصلوات أعلي من المُحافظة على الصلاة؛ لما في الأولى من التعدُّد والتنوُّع من الفرائض والسُّنن . – (ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص ١٥٢ : ١٥٥) .

(٤) الآية ٣٤ من سورة المعارج .

(٥) المتشابه اللفظي من القرآن الكريم ص ٢٢٥ .

هذا ، وبالرجوع إلى الآية الكريمة – التي هي محلُّ الدَّراسة – مرَّة أخرى، وبالتَّأمُّل في دلالتها – في ضوء السياق – نلحظ أنَّ التعبير بالفعل المضارع (يحافظون) له غاية معنوية خاصَّة ، ذلك أنَّ السامع ، أو القارئ ، أو المُتلقِّي كان يتوقَّع أن يكون الكلام في غير القرآن الكريم هكذا : (والذين هم على صلواتهم محافظون) ؛ ليُشاكل، أو ليجانس أسماء الفاعلين السابقة (مؤمنون – خاشعون – معرضون – فاعلون – حافظون – راعون) ، لكن لمَّا كانت المُحافظة على تلك الصلوات تتكرَّر وتتجدَّد في كل وقت ، وفي كل حين ، بتجدُّد مرور الصلوات ، وتكرارها ؛ شيئاً بعد شئ ، وحالاً بعد حال ؛ باعتبار أنَّ أوقات الصلات تتخلَّلها فترات انقطاع ، فلكل صلاة وقتها الخاص بها – لمَّا كانت المُحافظة المذكورة كذلك – كانت جملة (يحافظون) وصيغتها المُضارعيه هي المُتَعيِّنة في التعبير عنها ، تلك الصيغة الدَّالة على الاستمرار التَّجدُّدي ؛ لأنَّ حقيقة المُحافظة على الصلوات أمر فعليٌّ شأنه الانقطاع في غير وقت الصلاة ، والتجَّدُّد والحدوث في وقتها إذا وُجد ، وهذا التّجدُّد وذلك الحدوث يُناسبه الفعل المذكور لا الاسم (مُحافظون) الدَّال على الثبوت والدَّوام ، وهذا نوع من أنواع الإحكام في صنعة البيان .

أضف إلى ذلك أنَّ التغيير من صيغة اسم الفاعل (مُحافظون) إلى صيغة المُضارع (يحافظون) ينقل المُخاطب من الثبوت والدوام الذي يدُلُّ عليه الاسم إلى الزمَّن الذي يعيش فيه ، ويُحفِّز ذهنه ؛ لتصوُّر الحدَث في ذلك الزمن المُفاد من التعبير بالمضارع الذي يشى باستحضار صورة الفعل العجيبة الشأن أمام السَّامع، وكأنّه حاضر تلكُ الحال ، فهو يرى المُصلِّين في كُلِّ وقت بصدد تلك المُحافظة وكأنَّ تلك المحُافظة ، بكلِّ دقائقها ، وتفصيلاتها ، ماثلة أمام أعين الناظرين .

وفي إيثار (يحافظون) على (يحفظون) ، أعني أنَّ الحقَّ- تبارك وتعالي – قال : {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} ولم يقل مثلاً : (والذين يحفظون صلواتهم) ؛ ذلك لدلالة الصيغة الأولى في أصلها على المشاركة في حفظ الصلاة والمُحافظة عليها [١] ، والمشاركة مفاعلة ، والمُفاعلة تدُلُّ على المُبالغة والمنازعة والمقاومة ، مما يعني أنَّ هؤلاء المُفلحين من شأنهم الجدُّ والاجتهاد في حفظ الصلوات بالمُحافظة والمُداومة عليها ، ببذل أقصي ما في وسعهم ؛ لأنَّ المفاعلة في الشئ هي فعله المرَّة بعد المرَّة ، ومنه حافظ عليه ، وواظب عليه ، وداوم عليه ، وحفظ الصلاة المرَّة بعد المرَّة على الاستمرار عبارة عن الإتيان بها كُلَّ مرَّة كاملة الشرائط ، والأركان العملية كاملة الآداب والمعاني القلبية ، فالشئ الذي يُتعاهد بالحفظ هو الذي لا يلحقه النَّقص ، وإلَّا لم يكن محفوظاً [٢] .

ولو قيل مثلاً : (والذين يحفظون صلواتهم) لخلا التعبير عن حرف الاستعلاء (على) ، وما تضمَّنه من معان سبق الإشارة إليها ، ولما وقفنا على ما

---

(١) ذلك على اعتبار أنَّ المحافظة على الصلاة تكون بين العبد والرَّبِّ إذ إنَّ من يقوم بتلك المُحافظة يحفظه الله – عز وجل – الذي أمره بالصلاة ، أو أن تكون المُحافظة بين المُصلِّى والصلاة ، وهذا يعني أنَّ هؤلاء المفلحين " يُبالغون في حفظها ويُجدِّدونه ، حتي كأنَّهم يُبادرونها الحفظ ، ويسابقونها فيه فيحفظونها ؛ لتحفظهم " – نظم الدُّرر جـ ٨ ، ص ١٥٥ ، ويبيِّن الإمام الرازي كيفية حفظ الصلاة للمُصلِّى إثر محافظته عليها قائلاً : "واعلم أنَّ حفظ الصلاة للمُصلِّى على ثلاثة أوجه :
الأوَّل : أنَّ الصلاة تحفظه عن المعاصي ، قال تعالى : { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} – من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت – فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء ، والثاني : أنَّ الصلاة تحفظه من البلايا والمحن ، قال تعالى : {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} من الآية ٤٥ من سورة البقرة – وقال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ } من الآية ١٢ من سورة المائدة – ومعناه : إني معكم بالنُّصرة والحفظ إن كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، والثالث : أنَّ الصلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصليها ، قال تعالى : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ} من الآية ١١٠ من سورة البقرة – ولأنَّ الصلاة فيها القراءة ، والقرآن يشفع لقارئه ، وهو شافع مشفعٌ ... " التفسير الكبير – المجلَّد الثالث ص ١٢٥ (تعليقاً على قوله تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} الآية ٣٢٨ من سورة البقرة) ، وينظر أيضاً نظم الدُّرر جـ ١ ، ص ٤٤٨ ، وتفسير المنار جـ ٢ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
(٢) يُنظر : تفسير المنار جـ ٢ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

دلَّ عليه لفظ (يحافظون) من المُبالغة في الحفظ المذكور – على ما نحو ما رأينا – من خلال ما تشى به الصيغة القرآنية من دلالة على المشاركة والمفاعلة ؛ لأن الصيغة البديلة (يحفظون) لم تُفد أكثر من أن المُراد هو : حفظ الصلاة وعدم إضاعتها ، بلا تأكيد ، على أنَّ المطلوب هو التَّجلُّد والتشمُّر لأداء هذا الحفظ أداءً سليماً وكاملاً .

وبذلك نكون قد وضعنا أيدينا على جلال وحكمة العبارة القرآنية ، وعلي السِّرِّ الذى من أجله كانت تلك العبارة أبلغ من مثل قولنا : (والذين يحفظون صلواتهم) ؛ إذ إنَّ الأسلوب القرآني أقدر على أداء المعنى ، وأوفي ببيان المُراد بخلاف الأسلوب البديل ، على نحو ما ذكرْتُ .

فإن قيل : جاء ختم الصِّفات هُنا بالمُحافظة على الصلوات ، وفي سورة المعارج افتُتحت صفات المؤمنين بقوله تعالى { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} ، واختتمت بقوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} فأيُّ فرق بين الدَّيمومة على الصلاة ، والمُحافظة عليها ؟

وقد أجاب عن ذلك الإمام الزَّمخشرى بقوله : " ... معنى دوامهم عليها : أن يواظبوا على أدائها لا يُخِلُّون بها ، ولا يشتغلون عنها بشئ من الشواغل ، كما روي عن النبي ﷺ " أفضل العمل أدومه وإن قل " (١) ، وقول عائشة : " كان عمله ديمة " (٢) ومحافظتهم عليها : أن يُراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ،

---

(١) هذا جزء من حديث أورده الإمام البخاري في صحيحه ، والرواية بتمامها : " عن عائشة – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله ﷺ قال :" سدِّدوا وقاربوا واعلموا أنْ لن يُدْخِل أحدكُم عملُهُ الجنَّةَ وأنَّ أحب الأعمال إلى الله أدومُها وإنْ قلّ ". صحيح البخاري جـ ٤، ٢٩٨ (كتاب : الرِّقاق باب القصْدِ والمُداومة على العمل – الحديث رقم ٦٤٦٤) .

(٢) أورده البخاري في صحيحه ، ونصُّ الرِّواية بتمامها : " عن علْقمة – رض الله عنه – قال : سألت أمَّ المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قُلتُ : يا أمَّ المؤمنين ، كيث كان عملُ النبي ﷺ؟ هَلْ كان يخُصُّ شيئاً من الأيام ؟ قال : لا ، كان عَمَلُه ديمةً ، وأيُّكم يستطيع ما كان النبيُّ ﷺ يستطيع ؟ السابق جـ ٤ ، ص ٢٩٩ ، نفس الكتاب ، والباب الحديث رقم ٦٤٦٦ ، وينظر

ويُقيموا أركانها ويُكمِّلوها بسننها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات ، والمُحافظة إلى أحوالها " [١] .

وها هو الإمام الرازي يزيد الأمر وضوحاً في التَّفرقة بين الديمومة على الصلاة ، والمُحافظة عليها بقوله : " ... معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات ، ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها ، حتي يُؤتى بها على أكمل الوجوه ، وهذا الاهتمام إنَّما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة ، وتارة بأمور لاحقة بها ، وتارة بأمور متراخية عنها ، أمَّا الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلِّق القلب بدخول أوقاتها ، ومتعلِّق بالوضوء وستر العورة ، وطلب القبلة ، ووجدان الثَّوب ، والمكان الطاهريْن ، والإتيان بالصلاة في الجماعة ، وفي المساجد المُباركة ، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس ، والالتفات إلى ما سوى – الله تعالى – وأن يُبالغ في الاحتراز عن الرياء والسُّمعة ، وأمَّا الأمور المقارنة فهو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة ، فاهماً للأذكار مُطَّلِعاً على حكم الصلاة ، وأمَّا الأمور المتراخية فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب ، وأن يحترز كُلَّ الاحتراز عن الإتيان بعدها بشئ من المعاصي [٢] .

هذا ، ولمَّا بيَّن الله – عز وجل – صفات المستحقين للفلاح من المؤمنين، وكانت النفوس المؤمنة تميل إلى الترغيب وإلي المُكافأة على ما تميَّزت به من الاتصاف بالخصال الحميدة – التي نصَّت عليها الآيات السابقة – لم يُكتف بما صُدِّرت به تلك الصِّفات من الإخبار بفلاح أصحابها ، وإنما أراد الحقُّ – تبارك

أيضاً جـ ٢ ، ص ٨٩ ، ٩٠ (كتاب : الصوم – باب : هل يخصُّ شيئاً من الأيام ؟ الحديث رقم ١٩٨٧ " .

(١) الكشاف جـ ٤ ، ص ٦٠٠ .

(٢) التفسير الكبير – المُجلد الخامس عشر جـ ٢٩ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

وتعالي – أيضاً أن يكشف لهم عن منزلتهم عنده ، فأعقب – سبحانه – تلك الصفات بالنتيجة النهائية المترتبة على التَّحلِّي بها ، وبالثَّمَرة المرجوَّة من هذا كُلِّه [١] ، متمثِّلة في الفلاح الأُخروي ، وهو خير ما تطمح إليه تلك النُّفوس المؤمنة من الإحسان إليها ، فذكر الثَّوابَ المُعدَّ لها حتماً ؛ ذلك إشباعاً لرغباتها ، ومُراعاة لحالاتها ؛ وتطميناً لها ؛ حتي تصل إلى حالة من اليقين المقطوع به ، ذلك الثوابُ هو : وراثةُ جنَّةِ الفردوس ، والخلودُ فيها ، تلك الوراثة التي هي خير ما يُجازي الله تعالى به عباده المؤمنين ، كيف لا ؟ والثواب المذكور هو منبع السَّعادة الأبدية الناجمة عن فلاحهم ، فقال – جلَّ وعلا – منوِّهاً بشأن هؤلاء :

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [٢] .

ذلك على سبيل الإكمال لبيان ما يترتَّبُ على الاتصاف بالصفات المذكورة – قبلاً – من ثمرات طيِّبة ؛ مبالغة في استمالة قلوب المتلقين ؛ لحفزهم على التخلُّق بما يكون سبباً لاستحقاقهم الوصف المذكور .

على أنَّ اختتام النَّص الكريم بالآيتين الكريمتين السابقتين فيه فائدة أخرى، وهي التأكيد على أنَّ حُسْن مطلع هذا النَّص يتوافق وحسن ختامه ؛ إذ إنَّه بدأ بالإخبار عن فلاح المؤمنين {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[٣] ، واختُتم ببيان أنَّ فلاحهم في آجلهم مُحقَّقٌ ، ومقطوع بحصوله لا محالة ذلكم الفلاح يتمثَّل في استحقاقهم وراثة (جنَّة الفردوس)، والاستقرار فيها بلا زوال ، وبذا تكون الآيتان المذكورتان جاءتا على سبيل التفسير والتوضيح لذلك الفلاح المُعدِّ للمُخبر عنهم به .

---

(١) أي من التَّحلَّى بالإيمان – الذي هو أساس التكليف – وبالصِّفات المقترنة به .
(٢) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ١ من سورة المؤمنون .

وفائدة ثالثة تتجلَّى من وراء تذييل النصِّ الكريم بالجزاء المذكور ، وهي أنَّ هذا التذييل إنما كان ليكون آخر ما يبقي في الأذان والأذهان من جُمل هذه الصفات ومعانيها ، وكأنَّ ثمَّة دعوة خفيَّة إلى إعمال الذِّهن فيما نصَّت عليه الآيات من صفات يُمكن أن يتجلَّى بسببها الفلاح المُخبر به أوَّلاً .

وأيضاً : لمَّا كان الإيمان وسيلة إلى الاتصاف بالصِّفات المذكورة بعده – على نحو ما مرَّ بيانه [١] – وكان التَّحلِّى بتلك الصِّفات شرطاً في الوراثة المذكورة أُتي بالأولى مُقدَّمة على الثانية ، ولذلك لم يُقلْ مثلاً : (قد أفلح المؤمنون الوراثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون الذين هم في صلاتهم خاشعون ...) ، وإن دلَّ هذا ، فإنَّما يدُلُّ على أنَّ التَّحلِّى المذكور سببٌ أصيل لارتقاء المذكورين إلى درجة الوارثين للفردوس ، أمَّا بدونه فلا سبيل إلى هذا الارتقاء ؛ وبذا يكون التعقيب الختامي بالآيتين اللتيْن هُما محلُّ الدِّراسة – قد جاء في ترتيبه الصحيح ، وهو ترتيب بديع ؛ لأنَّه كشف لنا عن أثر الإيمان في قلوب أصحابه ، ذلك بأن جعلهم يتخلَّقون بالسلوك العملىَّ الذي يتوافق والعقيدة السليمة الخالية من أيِّ زيغ أو شائبة ، هذا السلوك الذي يرفع مقام سالكيه عند الله – عز وجل – إلى ان يجعل مآلهم الخلود في أعلي درجات الجنَّة .

بقي بعد ذلك النظر في القول الكريم : { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ....} والوقوف أمامه من ناحية بنيته التركيبية ؛ لنتعرَّف على مدى إحكام الصنعة البيانية فيها .

فأقول : إنَّ القول الكريم جاء مفصولاً عمَّا قبله ، ولم يُعطف عليه بـ (الواو) ؛ لأنَّ المشار إليهم بـ (أولئك) هُنا ، والمُخبر عنهم بالإرث المذكور هم أنفس المُخبر عنهم بالفلاح ، والمتَّصفين بالصِّفات السابقة ، والمذكورة قبلاً ،

(١) وذلك عند الحديث عن قوله تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} – الآية ١ من سورة المؤمنون ، وقوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) – الآية ٢ من نفس السورة .

ولا شك في أنَّ الشئ لا يُعطف على نفسه [١] ، ولو قيل مثلاً : (وأولئك هم الوارثون) ، بتصدير الجملة الكريمة بـ (الواو) لأوهم أنَّ الحُكم الذي تضمَّنته تلك الجملة ، والتي بعدها ، يجري على حياله ، شأنُه في ذلك شأن الصفات المتقدِّمة عليه .

وكذلك لم يؤت العطف بـ (الفاء) كأن يُقال (فأولئك ....) ؛ ذلك – والله أعلم – لئلا يُتوهم أن وراثة جنَّة الفردوس إنَّما هي بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة في النَّص الكريم وفقط ؛ إذ إنَّ تلك الوراثة لها أسباب جمَّة أخرى ، تستلزمها هذه الصفات ، وتلك الأسباب نستوحيها مِمَّا ورد ذكره في مواضع متفرِّقة من القرآن الكريم ، وفي السُّنة النبوية الشريفة ، على نحو ما تبيَّن لنا في موضعه من هذا البحث " [٢] .

وعليه فإن التعقيب بـ {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ....} على نحو ما قال به الفضلاء من أهل الدِّراية والتفسير والبلاغة – جاء مفصولاً عما قبله على سبيل الاستئناف البياني الذي يُفيد أنَّ هناك صلة وثيقة وتعلُّقا واضحاً بينه وبين ما

---

(١) ينظر : الطراز جـ ٢ ، ص ٣٤ .

(٢) ينظر : ما ذكرته عن ذلك قبلاً عند الحديث عن (ضرورة التلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها) ، على أنَّه مما ينبغي التَّفطن إليه أيضاً – في هذا المقام – هو أنَّ الآيتين الكريمتين {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ ...} ، وإن كان يُفهم منهما أنهما يُقرِّران لقاعدة أساسية مؤدَّاها أنَّ العمل الصالح سببٌ لدخول الجنَّة على نحو ما قال الله – عز وجل – في شأن المؤمنين الذين استجابوا لله – جل شأنه – ولرسله : {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} – من الآية ٤٣ من سورة الأعراف – وقال سبحانه : {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} – الآية ٤٢ من سورة الزخرف – أقول وإنْ كان الآيتان اللتان هما محلُّ الدِّراسة – يُفهم من خلالهما ما ذكرتُ ، إلَّا إنَّ السببية المذكورة ليس معناها أنَّ العمل الصالح – بما في ذلك التَّحلِّى بالأخلاق الفاضلة – يستوجب دخول صاحبه الجنَّة بالاستحقاق الذاتي ، بل إنَّ الله تعالى هو الذي جعله سبباً بمقتضى رحمته وفضله ، وبمقتضى حكمته وعدله ، دَلَّنا على ذلك ما جاء على لسان رسول الله ﷺ في حديث رواه الإمام أبو هريرة – رضي الله عنه – حيث قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لن يُدخل أحداً عملُه الجنَّة قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال " لا ، ولا أنا إلَّا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة ، فسدِّدوا وقاربوا .....) الحديث : صحيح البخاري جـ ٤ ، ص ٤٧ – كتاب : المَرْضَى – باب : تمنِّي المريض الموت – الحديث رقم ٥٦٧٣ .

قبله، مما يستوجب ترك العطف ، لأنَّ السامع إذا سمع ما تقدمَّ من صفات الثنـــاء عليهم ، وما تقرَّر منها تحرَّكت مشاعره ، مُترقباً فائدة تلك الأوصاف ، واتَّجه له أن يسأل : بأنَّ هؤلاء المفلحين قد اختُصُّوا بهذه الصِّفات فهل يختصون بغيرها ؟ وما هو جزاؤهم [١] ؟ فأجيب عن ذلك بقوله تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} مفصولاً عمَّا قبله ؛ مقرِّراً لمضمونه أبلغ تقرير ؛ لبيان أنَّ هـــؤلاء الموصـــوفين ، هـــم المستحقون للفوز بوراثة الفردوس ، بسبب ما تقدَّم من اتصافهم بالإيمان ، ومـــا تبعه من صفات ، وإنْ دلَّ هذا ، فإنَّما يدُلُّ على " أنَّ الكلام يدعو بعضه بعضـــاً ، ويأخذ بعضُه بحجزة بعض " [٢] .

وواضح من خلال ما ذُكر أنَّ في الأسلوب إيجازاً بحذف السُّـــؤال المقـــدَّر الذي تضمَّنته الآيات المتقدِّم ذكرها على الآيتين اللتيْن هما مَحلُّ الحديث .

على أنَّ (اسم الإشارة [٣] هنا [٤] حلَّ محلّ ذكر ضميرهم [٥] ، والإشـــارة أحسن منه [٦] وقعاً ؛ لأنها تتضمَّن جميع اوصافهم المتقدِّمة [٧] " [٨] ، وأيضاً فإن الاسم المذكور يُشعر باستحضار ما سبق وصفهم بالفلاح من المُتصفين بالصِّفات المذكورة قبلاً .

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٢٣٣ : ٢٣٥ ، والطراز للعلوي جـ ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، وتفسير أبي السعود جـ ١ ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، والتحرير والتنوير جـ ١ ، ص ١٥٩ .
(٢) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٣٦ .
(٣) أي (أولئك) .
(٤) أي في قوله تعالى : {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} – الآية ١٠ من سورة المؤمنون .
(٥) أي ضمير الموصوفين في الآيات المتقدِّمة{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...} الآيات (١: ٩) من الســـورة الكريمة عدا الآية رقم ٦ .
(٦) أي أحسن من الضمير .
(٧) ذلك فضلاً عما في التعبير باسم الإشارة (أولئك) من (إشعار بامتيازهم بهـــا عـــن غيـــرهم ، ونزولهم منزلة المشار إليهم حسَّاً ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ طبقتهم ، وبعد درجتهم في الفضل والشرف) – روح المعاني جـ ١٧ ، ص ١٨ .
(٨) التحرير والتنوير جـ ١ ، ص ١٥٩ (تعليقاً على قوله تعالى {أُولَئِكَ عَلَى هُـــدًى مِـــنْ رَبِّهِـــمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} . الآية ٥ من سورة البقرة .

يقول الإمام " الزمخشري " مشيراً إلى أهمية التعبير باسم الإشارة على نحو ما جاء في قوله تعالى : { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} وأنَّه يفيد توكيد استحقاق الموصوفين لذلك الجزاء العظيم ؛ يقول : "... وفى اسم الإشارة الذي هو " أولئك " إيذان بأنَّ ما يرد عَقيْبه ، فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عُدِّدت لهم " [١] .

وإلى نفس العلة أشار أيضاً الإمام " الزملكاني " بقوله :" ومتي ذكرت مشاراً به إلى شئ قد وصفتَه أذن بأنه مستحق لذلك الحُكم ؛ لاشتماله على تلك الصِّفة نحو : { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [٢] ، [٢]، بعد { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [٣] "[٤] .

ومن خلال ما ذكره العالمان الجليلان (الزمخشرى) ، و(الزملكاني) ندريك أنَّ اسم الإشارة (أولئك) جئ به للرَّبط بين الآية المُصدَّرة به ، والآيات السابقة عليه ، أي الرَّبط بين السبب الواقع قبله ، والنتيجة المترتبة على هذا السبب .

مما يعني أنَّ الحُكم بالوراثة المذكورة منشأه " تلك الصِّفات المتقدِّمة على اسم الإشارة"[٥]، " والمعنى : أولئك هم الأحقاء بأن يكونوا الوارثين بذلك " [٦] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ، ص ٥٣ (تعليقاً على الآية ٥ من سورة البقرة) ، وينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص ٢٦ ، والمطوَّل ص ٧٩ ، والتحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ٢٠ .
(٢) الآيتان (١٠ : ١١) من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ١ من السورة نفسها .
(٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ١٥٠ ، ١٥١ .
(٥) التحرير والتنوير جـ ١ ، ص ١٥٩ تعليقاً على قوله تعالى {أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ....} من الآية ٥ من سورة البقرة .
(٦) المصدر السابق جـ ١٨ ، ص ٢٠ تعليقاً على الآية ١٠ من سورة المؤمنون .

وإذا كان المشار إليه بـــ (أولئك) هم ذوات الموصوفين بالصِّفات السابقة من أهل الفلاح من المؤمنين ، فإنَّ هذا يعنـــي أنَّ اللفـــظ المـــذكور جـــئ بـــه ؛ للاختصار، فهو أغني عن تفصيل كثير ، وحلَّ محلَّ ألفاظ كثيرة [١] ، مع وضـــوح المعنى ، وسلامة الأسلوب من التكرار المُمل الذي تأباه البلاغة القرآنية ، ويأنفه الذوق السليم ، كيف لا ؟ وقد قام اسم الإشارة (أولئك) مقام ما يربو على عشرين كلمة لو أُتي بها مُظهرة ، تلك الكلمات هي المذكورة في الآيات جميعهـــا : إذ إنَّ التقدير : (أولئك المفلحون من المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم ، الخاشعون في صلاتهم ، والمعرضون عن اللغو ، والفاعلون للزكاة ، والحافظون فـــروجهم ... هم الوارثون) ، وبذا يكون المُشار به من البلاغة والإيجاز بمكان .

ولا يخفى كذلك ما في استخدام (أولئك) بصيغة الجمع الموضوع البعيـــد من دلالة على أنَّ اتصاف المُشار إليهم بما وُصِفوا به وصل إلى منتهاه ، ومن ثمَّ فإن فلاحهم كان أمراً مُحقَّقاً ، مِمَّا يشى بعلوِّ درجتهم ، ورفعة مكـــانتهم ، وبعـــد منزلتهم في الفضل ؛ بسبب حسن مثوبتهم المتمثِّلة في إرث الفردوس ، المُترتب على ما سبق ذكره من أوصاف ، كانوا قد تحلَّوا بها ، ولاشك في أنَّ هذا العُلُوَّ ، وتلك الرَّفعة ، وبعُدَها من باب تنزيل البُعدِ المعنوي منزلة البُعد الحسِّى [٢] ؛ ليكون الكلام قريباً من الأفهام ، من ناحية أنَّ التنزيل المـــذكور عـــن طريـــق التعبيـــر بـ "اسم الإشارة ، يوضِّح المُشار إليه أكمل توضيح ، ويبرزه في صورة حسِّـــية، يقع عليها الإشارة " [٣] ؛ إحضاراً له في ذهن السَّامع ، وكأنَّه مُشاهد مُحـــسٌّ [٤] ومرئىٌّ بالعين ؛ ذلك لكمال العناية به ، ولحاجه المُخاطبين إلى التنبيـــه عليـــه ،

(١) ينظر : من بلاغة القرآن ص ١٣٦ .
(٢) ينظر : المطوَّل ص ٧٧ ، ٧٨ ، ومن بلاغة القرآن ص ١٣٥ .
(٣) من أسرار التعبير القرآني ص ٨٥ .
(٤) ينظر : الإيضاح ص ٢٥ ، والمطوَّل ص ٧٧ .

والالتفات إليه ، ولمَّا كان الأمر كذلك جئ بـ (أولئك) ، وكأنَّ المعنى : إذا أردتم أن تنظروا إلى أهل الفلاح من المؤمنين ، فابصروا إليهم باللحظ ، فها هُم أولئك الذين يرثون الفردوس .

هذا ، وفي الإخبار عن (أولئك) باسم الفاعل (الوارثون) إيذان بثبوت ذلك الإرث للمُخبر عنهم ، ولزومه لهم ، وكأنَّه صار سجية لهم ؛ إذ إنَّهم لمَّا كانوا ثابتين على أوصافهم المتقدِّمة (الخشوع في الصلاة ، والإعراض عن اللغو ... الخ) ، وكانت هذه الصفات ديدنهم ، أدىَّ ذلك بالضرورة إلى ثبوت فلاحهم وحصوله لهم في الآخرة ، مِمَّا ناسب مجئ وصفهم بالاسم المذكور ، وكأنَّ وراثتهم للفردوس ، حدثت وتمَّت لهم بالفعل ، وأصبحت صفة ثابتة ومستقرَّة جزاءً لهم ، ذلك فضلاً عمَّا في صيغة اسم الفاعل (الوارثون) ، من دلالة على المشاركة ، وكأنَّ هؤلاء المفلحين يشارك بعضهم بعضاً في ذلك الميراث ، ويتقاسمونه فيما بينهم ، كلٌّ على حسب نصيبه فيه .

ولا شك في أنَّ التعبير بالصيغة الاسمية (الوارثون) أبلغ وآكد في ثبوت معناها ودوامه ، ممَّا لو كان التعبير بالفعل من نحو قولنا (سأورثهم) ، أو (سيرثون) ؛ ذلك لدلالة الصيغة البديلة على تجدُّد الوراثة ، وحدوثها ، وعدم استقرارها ، ممَّا لا يتناسب وجزاء المُفلحين الذين يستحقون وراثة الفردوس بصفة دائمة لا متقطعة .

وفي مجئ الخبر (الوارثون) معرَّفاً بـ (ال) الجنسية إشارة دالة على أنَّ المُشار إليهم بلغوا حدَّ الكمال في صفة (الإرث) المُخبر بها عنهم؛ بسبب اتصافهم بالصِّفات المذكورة قبلاً، وفي هذا التعريف كذلك دلالة على تخصيص المسند (الوارثون) بالمسند إليهم، دون غيرهم مِمَّن لم يبلُغوا حدَّ الكمال في تلك الوراثة،

وكأنَّ المعنى: لا وراث سوى أولئك المفلحين الموصوفين بما ذكِر[١] ، وما ذلك إلَّا " لأنهم أحياء القلوب، وقد نالوا من المراتب ما خَلَفَتْها أموات القلوب" [٢] .

وفي مثل هذا الشأن يقول الإمام عبد القاهر :" واعلم أنَّك تجد " الألف واللام " في الخبر على معنى الجنس ، ثم تري له في ذلك وجوهاً : أحدُها : أن تقْصُر جنس المعنى على المُخبر عنه ؛ لقصدك المُبالغة ، وذلك قولك : (زيد هو الجواد) ، و (عمرو هو الشُّجاع) تُريد أنَّه الكامل ، إلَّا أنَّك تُخرج الكلام في صورة توهم أنَّه الجود أو الشجاعة لم توجد إلَّا فيه ؛ وذلك لأنَّك لم تعتد بما كان من غيره ؛ لقصوره عن أن يبلُغ الكمال ... " [٣] .

وعلي مذهب الإمام عبد القاهر أيضاً يمكن القول : بأن تعريف (الوارثون) بـ (ال) يفيد أنَّ المُخاطبين كان قد بلغهم أمر الحدث (وراثة قوم) ، ولكنهم شاكُّون في الفاعل من هو ؟ فلا يعرفون من هم أصحاب تلك الوراثة ، فجئ بـ (الوارثون) مُعرَّفاً ؛ ليكشف عن أصحاب هذا الوصف ، وكأنَّه قيل : (إنَّ المؤمنين المفلحين الذين من صفتهم كيت وكيت هم الوارثون) أي الذين بلغك عنهم أنَّهم يرثون ، [٤] دون غيرهم .

وكان مِمَّا قاله الإمام في مثل هذا الشأن مشيراً إلى الفرق بين قولنا : (زيد منطلق) ، (زيد المُنطلق) : " ..... اعلم أنَّك إذا قلت : (زيد منطلق) كان كلامك مع من لم يعلم أنَّ انطلاقاً كان لا من زيد ولا من عمرو ، فأنت تفيده ذلك ابتداءً ، وإذا قلت : (زيد المنطلق) ، كان كلامك مع مَنْ عرف أنَّ انطلاقاً كان إمَّا

---

(١) ذلك على اعتبار أنَّ التخصيص المذكور مفاد من تعريف الطرفين ، وهذا التخصيص من باب قصر الصِّفة على الموصوف .
(٢) غرائب القرآن للنيسابوري جـ ٣ ، ص ٢٤٠١ .
(٣) دلائل الإعجاز ص ١٧٩ .
(٤) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٠٨ تعليقاً على قوله تعالى : {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} – من الآية ٥ سورة البقرة .

من زيد ، وإمَّا من عمرو ، فأنت تُعليمُه أنَّه كان من زيد دون غيره ، والنُّكتة أنَّك تُثبت في الأول .... فعلاً لم يعلم السامع عن أصله أنَّه كان ، ولكنَّه لم يعلمْه لزيد فأفدته ذلك .... وتمام التحقيق أنَّ هذا كلام يكون معاك إذا كنت قد بُلِّغت أنَّه كان من إنسان انطلاق ... فَجُوِّز أن يكون ذلك كان من زيد ، فإذا قيل لك : (زيد المُنطلق) صار الذي كان معلوماً على جهة الجواز معلوماً على جهة الوجوب [١] ، ثم إنَّهم إذا أرادوا تأكيد هذا أدخلوا الضمير الذي يُسمَّى فصلاً بين الجُزئين ، فقالوا : (زيد هو المنطلق) " [٢] .

ودلالة ثالثة نستوحيها مِمَّا تنبَّه إليه الإمام عبد القاهر فى شأن تعريف المسند بـ (أل) وهى : أن هذا التعريف إنما كان على معنى أنَّ المشار إليه (المفلحون الموصوفون بالخشوع ، وبالإعراض عن اللغو ... الخ) هو الكاشف لوصف (الوراثة) المبيَّن لحقيقته ، والمجسِّد له ، وأنَّ الثانى مكتَنز فى الأول ، ومجسَّد فيه بكل صوره وخصائصه ، ومجسَّد به ، وكأن المسند إليه هو عين المسند ، وليس الثانى جنساً مغايراً للأوَّل ، وذلك مبنىٌّ – من وجهة نظر الإمام – على معنى الوهم والتقدير .... ؟ ه [٣] .

وإليك ما قال به الإمام عبد القاهر في الدلالة المذكورة : يقول الإمام :" واعلم أنَّ الخبر المُعرَّف بـ (الألف واللام) معنى غير ما ذكرتُ لك ، وله مسْلكٌ ثَمَّ

---

(١) وما ذهب إليه الإمام هُنا أفاد منه الزمخشري في تأويله لقوله تعالى : {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} – من الآية رقم ٥ من سورة البقرة – حيث يقول الأخير " ... ومعني التعريف في (المفلحون) : الدِّلالة على أنَّ المُتَّقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنَّهم يُفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أنَّ إنساناً قد تاب من أهل بلدك ، فاستخبرت من هو ؟ فقيل : زيد التائب، أي هو الذي أخبْت بتوبته ..." . الكشاف جـ ١ ص ٥٥ وبالمقارنة بين هذا الكلام ، وبيْن كلام عبد القاهر – المذكور أعلاه – يُلحظ أنَّ اللَّاحق أفاد من السابق أيَّما إفادة .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٣) يُنظر : حاشية السيد الشريف على الكشاف جـ ١ ص ١٤٧ ط دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ١٤٢٨ / ١٤٢٩ ه ، ٢٠٠٨ م . ودلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ٢٥٦ ، ويُنظر : ما ذكرته قبلاً في هذا البحث عن دلالة التعريف في قوله تعالى {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} . من الآية ٧ من سورة المؤمنون.

دقيق ولمْحَةٌ كالخَلْس ، يكون المتأمِّلُ عنده كما يُقال : (يَعْرِفُ ويُنكِرُ) ، وذلك قولك: " هو البطل المُحامي " وهو " المُتَّقَى والمُرْتَجى " ، وأنت لا تقصد شيئاً ممَّا تقدَّم ... ولكنَّك تُريد أن تقول لصاحبك : " هل سمعت بالبطل المحامي " ؟ ، وهل حصَّلْت معنى هذه الصِّفة ؟ وكيف ينبغي أن يكون الرَّجُل حتي يستحقَّ أن يُقال ذلك له وفيه ؟ فإن كنت قتلْته علماً ، وتصوَّرْته حقَّ تصوُّره ، فعليك صاحَبك واشدُدْ به يدك، فهو ضالَّتُك ، وعنده بُغيتك ، وطريقُه طريق قولك : " هل سمعت بالأسد " ؟ " هل تعرف ما هو ؟ فإن كنت تعرفه ، فزيْدٌ هو هو بعينه ..." [١] .

هذا، وبعد أن وضَّح الإمام هذا المعنى وكان ذلك التوضيح مشوباً بتكثير الأمثلة الدَّالة على ما يقول ذهب إلى أنَّ " هذا كُلَّه على معنى الوهم والتقدير، وأن يُصوِّر في خاطره شيئاً لم يره ولم يعلمه، ثم يجريه مجري ما عهِد وَعَلِم " [٢] .

ولا مانع – لديَّ – أن يكون كُلُّ ما سبق ذكره عن دلالة (ال) في (الوارثون) معتبر وصحيح؛ باعتبار أنَّ النكات البلاغية لا تتزاحم ، والله تعالى – أعلي وأعلم بمرده .

وما يعنينا هو أنَّ التعريف المذكور فيه من الدِّقة والأبلغية ما فيه ؛ حيث إنَّه يحمل في طيِّه دلالة قاطعة على أنَّ الموصوفين جديرون بالوصف (الوارثون)، ومستحقون له ، أيًّا كان الغرض من تعريفه – على نحو ما تبيَّن لنا[٣] – ذلك التعريف الذي كان لابد منه ؛ اهتماماً بالخبر ، وللكشف عن المبالغة في الثناء على الموصفين ، والمدح لهم من وجوه مُختلفة ؛ لبيان " حقيقتهم بالصورة التي تليق بتلك الحقيقة ؛ حتي يعرف المتأمِّل بذلك الحكم " [٤] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٤ .

(٣) أي سواء أكان الغرض من التعريف المذكور هو : الدِّلالة على أنَّ المشار إليهم بلغوا حدَّ الكمال في صفة (الإرث) بسبب صنيعهم ، ومن ثم فقد اختصموا بتلك الصِّفه دون غيرهم ،أم كان الغرض هو : الكشف عن أصحاب هذا الوصف ، أم كان بدعوى اتحاد المسند في المسند إليه وتجسيده فيه ، لا على أنَّ الأول جنس مغاير للثاني .

(٤) حاشية الشيخ عبد الحكيم على المطول جـ ٢ ، ص ٣٦٥.

هذا ، وفي توسيط ضمير الفصل (هم) بيْن كُلٍّ من المسند إليه (أولئك) ، والمسند (الوارثون) مزيد من التأكيد على ما يُفيده التعريف – من حصْرٍ وغيره – ورفع توهُّم من يتشكك في نسبة المسند للمسند إليه ، وتمييز المُخبَر عنه بالمُخبر به ، وذلك إظهاراً لقدر المشار إليهم [١] ، وكأنه قيل : هم من هم في هذا الباب ، إنهم الوارثون بكل تأكيد ، أي هم بذاتهم وأنفسهم المتميِّزون بذلك من بين سائر الخلق .

ذلك كُلُّه على سبيل تمجيد المشار إليهم ، والإشادة بذكرهم ؛ ترغيباً في اقتفاء آثارهم ؛ ومن ناحية أخرى فيه تنديد وتعريض بغيرهم مِمَّن لم يتَّصفوا بصفاتهم – المتقدِّمة على اسم الإشارة – ولم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ، وهم طامعون في أن يظفروا بالفلاح ، ظانِّين أنَّهم يرثون الفردوس ، وكأن الحقَّ تبارك وتعالي – يقول لنا : (إذا رأيتم هؤلاء المؤمنين المتَّصفين بهذه الصِّفات المذكورة فاعلموا أنَّهم هم المُفلحون ، وأنهم هم الوارثون ... وإذا رأيتم من يدَّعى أنَّه مؤمن ، ولا يخشع في صلاته ، ولا يُعرض عن اللغو ... ولا يحافظ على صلاته ، فاعلموا أن هؤلاء ليسوا بمفلحين ، ولا يناولون الإرث المذكور ؛ لأنهم بعيدون عن أن يكونوا أهلاً لاستحقاقه) .

---

(١) العلماء على أنَّ ذكر ضمير الفصل في آيتنا أبلغ ممَّا لو قيل مثلاً : (أولئك الوارثون) بدون ذكر الضمير المذكور ، وذلك من جهة أنَّ الإتيان به يُحقِّق فوائد كثيرة ، الأولى: الدِّلالة على أنَّ ما ورد بعده خبر لما قبله لا نعت له ، ولذلك سُمِّي فصلاً، والثانية : توكيد الحكم ؛ للدلالة على ربط المسند بالمسند إليه ، وقيل : توكيد المحكوم عليه ؛ لأنَّه راجع إليه ، فهو تكرير له ، الثالثة : الدِّلالة على حصر المسند في المسند إليه ، فعلاً كان أو اسماً ، معرَّفاً كان أو مُنكَّراً ، ومن العلماء من ذهب إلى أنَّ التخصيص يُفاد من ضمير الفصل ، فيما كان الخبر فيه نكره ، وإلَّا فتعريف الخبر بـ (اللام) الجنسية هو المفيد لحصره على المبتدأ ، وإن لم يكن هُناك فصل كقولك : (زيد الأمير). ينظر : دلائل الإعجاز ص ١٧٨ ، والكشاف ومعه حاشية السيد الشريف جـ ١ ، ص ١٤٦ ، والتفسير الكبير للرازي جـ ١ ، ص ٤٠٠ ، والبحر المحيط جـ ١ ، ص ٤٤ ، وحاشية شيخ زادة جـ ١ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، والتحرير والتنوير جـ ١ ، ص ١٦٣ وذلك تعليقاً على قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} . من الآية ٥ من سورة البقرة، وينظر: الطراز للعلوي جـ ٢ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، وشرح التلخيص جـ ١ ، ص ٣٨٦ : ٣٨٨ .

وفي قوله (الوارثون) استعارة تصريحية تبعية ، حيث إنَّ حقيقة الكلام (أولئك هم المستحقون للفردوس) ، لكن الأسلوب القرآني عدل عن لفظ (المستحقون) إلى لفظ (الوارثون) ؛ إبلاغاً في البيان ؛ لما في اللفظ المذكور من دلالة على شدَّة تمكُّنهم من الجنَّة تمكُّناً لا محيد عنه ؛ إذ إنَّه يصوِّر لنا شدَّة فلاحهم ونجاتهم [١] ، فهم لم يستحقوا الجنّة فحسب ، بل هم قد تحمَّلوا من العناء والمشقة ما تحمَّلوا في سبيل استحقاق الجنَّة ، والفوز بوراثتها ، ذلك على اعتبار أن المرء يكون حريصاً على التَّمسُّك بإرث ما يستحق؛ " لأنَّ الوراثة أقوى سبب يقع في ملك الشئ ، ولا يتعقَّبه ردٌّ، ولا فسخ ، ولا إقالة ، ولا نقض " [٢] .

وعلي هذا ، يكون قد شُبِّه استحقاقُهم الجنَّة بما تحلَّوْا من جميل الخِلال بالورث بجامع ما يترتَّب على كُلٍّ من أثر نافع ، ثُم حُذِف المُشبَّهُ ، وتنوسي التشبيه ، وادُّعى أنَّ المُشبَّه صار فرداً من أفراد المشبه به ، ثم اشتُق من (الورث) بمعني الاستحقاق (الوارثون) بمعني : (المُستحقون) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية [٣] ، كما مرَّ آنفاً منذ قليل .

---

(١) وإن دلَّ هذا فإنما يدُلُّ على شدَّة تمسُّكهم بالتَّحلِّى بالصفات المذكورة .

(٢) روح البيان جـ ٦ ، ص ٧٠ .

(٣) هذا ، ويقول الشريف الرَّضى وهو بصدد تناوله لقوله تعالى :{ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} من الآية ٤٣ من سورة الأعراف – يقول في قوله (أورِثْتُمُوهَا) : (وهذه استعارة خفية ، واستعارة جلية ، وذلك أنَّ حقيقة الميراث في الشرع هو ما انتقل إلى الإنسان من ملك الغير بعد موته على وجه الاستحقاق .... ويكون المعنى الذي سوَّغ هذه الاستعارة : أنَّ هؤلاء المؤمنين لمَّا عملوا في دار الدُّنيا أعمالاً استحقوا عليها الجزاء والثواب ، ولم يصح أن يوفَّر عليهم ذلك إلّا في الجنَّة ، وهي من الدار الآخرة ، فكأنَّهم استحقُّوا دخولها ، فحسُن من هذا الوجه أن يوصفوا بأنَّهم أورثوها ، وإن لم يكن سُكناهم لها بعد سُكني قوم آخرين ، انتقلوا عنها .

ـ وسوَّغ ذلك أيضاً : اختلاف حال الدَّارين ، وانتقالهم من الأولى إلى الأخرى ، وكأنَّ ما عمِلوا في الدار الأولى كان سبباً لِما وصلوا إليه في الدَّار الأخر كما يُستحقُّ الميراث بالسبب " . تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ٥٤ ، ٥٥ ، وينظر : من هدي القرآن الكريم – تفسير بلاغي لسورة (المؤمنون) ص ٢٤ .

ثم يأتي قوله تعالى : { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [١] بياناً للقول السابق [٢] ، وتوضيحاً وتفسيراً لنوع المثوبة الذي دلَّ عليها لفظ (الوارثون) ، وتقييداً لها ، بعد إطلاقها ؛ ولذلك كانت الآية المذكورة من العطف – على سابقتها بمعزل ؛ ذلك على سبيل ما يُعرف بـ (كمال الاتصال) بين كُلٍّ من الجملتين .

وإن دَلَّ هذا ، فإنما يدُلُّ على أن حذف ما يرثه هؤلاء المفلحون ، وهو معمول (الوارثون) في الآية الأولى ، إنَّما كان " ليحصل إبهام وإجمال ، فيترقَّب السامع بيانه " [٣]، فإذا ما جاء بعد ذلك قوله تعالى { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [٤] ، تمكَّن المراد في ذهن السامع فضل تمكُّن ، كُلُّ ذلك كان " قصداً لتفخيم شأن الوراثة المذكورة ، ولرفعه مكانتها " [٥]في نفوس المتلقين ؛ لفضلها ولشرفها" ،"من حيث كونه وراثة الفردوس، لا من مجرَّد البيان" [٦]والتوضيح .

هذا ، والتعبير بالموصول (الذين) إنَّما كان ؛ ليُنَصَّ في صلته على الإرث الذي يستجيش النفوس إلى الشعور بالرَّغبة إليه ، مِمَّا يستوجب المسارعة إلى التَّحلِّى بالأخلاق الفاضلة ، والتي تكون سبباً في نوال الإرث المذكور ؛ ذلك فضلاً عمَّا يفيده التعبير باسم الموصول من تعظيم وامتنان بالنعمة التى أنعم الله – عز وجل – بها على عباده الوارثين للفردوس [٧] .

---

(١) الآية ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) أعني قوله تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} الآية ١٠ من سورة المؤمنون ، فالآية اللاحقة جاءت مقرِّرةً ومؤكدِّة لمضمون الآية السابقة . ينظر : حاشية الشهاب جـ ٦ ، ص ٣٢١ ، وروح البيان جـ ٦ ، ص ٧٠ ، وروح المعاني جـ ١٧ ، ص١٨ .

(٣)التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ٢٠ .

(٤) الآية ١١ من سورة المؤمنون .

(٥) ينظر : حاشية الشهاب جـ ٦ ، ص ٣٢١ ، وروح البيان جـ ٦ ، ص ٧٠ ، وروح المعاني جـ ١٧ ، ص ١٨ ، والتحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ٢٠ .

(٦) حاشية الشهاب جـ ٦ ، ص ٣٢٢ .

(٧) ذلك بالإضافة إلى بعض الأسرار البلاغية الأخرى من تشويق السامع إلى ما يُذكر بعد اسم الموصول ، وغيره على نحو ما مرَّ بيانه في مواضع متفرِّقة من هذا البحث .

ولنا أن نلحظ : أنَّه لم يُقل مثلاً : (أولئك هم الوارثون للفردوس) ، وإنَّما جئ بالنظم الكريم على ما جاء عليه ، متضمِّناً الفعل المضارع (يرثون) ؛ لإبراز المشهد ، وكأنَّه ماثل أمام أعين المتلقيِّين ؛ ذلك تقويةً لأثره في نفوسهم ؛ حثَّاً لهم على الاتصاف بالخلال الكريمة ، والخصال الحميدة ، التي تكون سبباً في نوال ما يترتَّب على ذلك من ثواب عظيم ؛ إذ إنَّ الفعل المذكور بصيغته ، يُضفي على المشهد حركة ، وحياة بما فيها من تصوير يُشخِّص المعنى ، ويؤدِّى إلى طبعه في قلوب من يُريد الفلاح من المؤمنين .

على أنَّ مجئ اسم الفاعل (الوارثون) أوَّلاً [١] ، بيان لاستقرار الوراثة ، وثباتها في الآخرة ، والفعل (يرثون) ثانياً [٢] ؛ يدُلُّ على حدوث الوراثة وتجدُّدها، مِمَّا يعني أنَّ أمر الدُّنيا مبني على التجدُّد والحدوث ، وأمر الآخرة على الثبوت والدوام .

و (الفردوس): (حديقة في الجنَّة) [٣]، وأصله:" البستان الواسع الجامع لأصناف الثَّمَر"[٤] ، وهو : في مصطلح القرآن : اسم من أسماء الجنَّة ، أو من أسماء أشرف جهات الجنَّات [٥] ، ولذلك كان ﷺ حريصاً على دعوة أمته إلى أن

---

(١) أي في قوله تعالى : { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ } الآية ١٠ من سورة المؤمنون .
(٢) أي في قوله تعالى : {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} الآية ١١ من السورة نفسها .
(٣) لسان العرب جـ ١٠ ، ص ١٢٦ (فردوس) .
(٤) التحرير والتنوير جـ ١٨ ، ص ٢١ .
(٥) ينظر : السابق ، هذا ، وقد ورد في الحديث الشريف ما يفيد معنى وراثة الجنَّات فـ (عن أبي أبي هريرة – رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ " ما منكم من أحدٍ إلَّا له منزلان : منزلٌ في الجنَّة ، ومنزلٌ في النار ، فإذا مات فدخل النار ، وَرِثَ أهلُ الجنَّة منزله ، فذلك قوله تعالى {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} الآية ١٠ من سورة المؤمنون سنن ابن ماجه جـ ٤ ، ص ٥٤٢ (كتاب: الزهد باب: صفة الجنَّة – الحديث رقم ٤٣٤١) ، وقال الإمام البوصيري تعليقاً على الحديث المذكور : (فسمَّاهم الوارثين ، وهم : الآخذون ما تركه الآخرون) " السابق ، وقيل : " معنى الوراثة هو : أنَّه يؤول أمرهم إلى الجنَّة ، وينالونها كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث " – معالم التنزيل في التفسير والتأويل للإمام البغوي جـ ٤ ، ص ١٤٠ – ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٢ ه ، ١٩٩٢ م .

يسألوا الله – عز وجل – الفردوس ذلك لعلوِّ درجته ، حيث ورد في الحديث الشريف (عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال :" إنَّ في الجنَّة مائة درجة أعدَّها الله للمُجاهدين في سبيله ، كُلُّ درجتين ما بينهما كما بيْن السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنَّه أوسط الجنَّة ، وأعلي الجنَّة ، وفوقَهُ عَرْش الرَّحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجَّنة " [١] .

و (ال) في (الفردوس) للعهد ، والمُراد الفردوس المعهودة في أذهان المُخاطبين على نحو ما تصوَّرته من خلال ما ورد ذكره في القرآن الكريم ، وعلي لسان رسول الله ﷺ .

ولمَّا كان الأمر ليس مقصوراً على وراثة الجنة فحسْب ، وإنَّما هم فيها خالدون خلوداً أبدياً دائماً ، جاء قوله تعالى { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} على أنَّها جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً على سبيل شبه كمال الاتصال ؛ باعتبار أنَّ المؤمن المفلح إذا صادف النعمة المذكورة ، وهي وراثة جنَّة الفردوس ، فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى ذهنه سؤال مفاده : أتدوم هذه النعمة ؟ أم تزول ؟ فجاء الجواب بالإشارة إلى كمال تلك النعمة بخلودهم في تلك الجنَّة ودوامهم ، واستمرار استفادتهم من نعيمها ، فخلودهم فيها خلود أبدي لا يزول ، وعلي هذا يكون المعنى : " لا يموتون ولا يخرجون منها " [٢] ، أبداً ، فهم في الفردوس المذكور إلى أبد الآبدين .

ويمكن القول أيضاً : بأن الجملة المذكورة جاءت على سبيل الـ " احتراس من توهُّم الانقطاع بما تعوَّدُوا من انقطاع اللَّذات في الدُّنيا ؛ لأنَّ جميع

(١) صحيح البخارى جـ ٤، ص ٦١٩(كتاب : التوحيد – باب : وكان عرشه على الماء (هود : ٧)... الحديث رقم ٧٤٢٣ ، وينظر : نفس المصدر جـ ٢ ، ص ٤٢٦ (كتاب : الجهاد والسير باب : درجات المجاهدين في سبيل الله – الحديث رقم ٢٧٩٠ .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٤ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، وينظر : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٣٥٢ .

اللُّذات في الدُّنيا مُعَرَّضة للزوال ، وذلك يُنغِّصُها عند المُنعم عليه " [١] ؛ ولذلك جاء وصف بقاء هؤلاء في الفردوس بالجملة الاسمية (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ؛ لإفادة الثبوت والدوام ، فهم لا يخرجون منها إلى أي لون من ألوان الشقاء .

ولا يخفى ما يشى به حرف الظرفية (فى) من دلالة على أنَّ هؤلاء الوارثين لجنَّة الفردوس يتمكَّنون فيها تمكُّناً يضمن لهم عدم مغادرتهم لها ، أو الخروج منها ، على أن التأنيث في قوله (فيها) إنما كان ؛ لأنَّ الفردوس (اسم للجَّنة) ، أو لطبقتها العليا " [٢] .

وفي تقديم الجار والمجرور (فيها) على الخبر (خالدون) الدَّال على الثبوت والدُّوام ، إشارة إلى عِظَم هذا الجزاء وبيان مدى الفضل الذي يناله هؤلاء المُفلحون ، إذ إنَّ خلودهم ثابت في الجنَّة لا في غيرها ، وهذا يبيِّن مدى الفضل الذي ينعم به هؤلاء المُفلحون ؛ لاتصافهم بأفضل الخلال المذكورة في الآيات الكريمات .

ولطيفة أخرى تتمثَّل في تكرار التعبير بالضمير (هم) العائد على الوارثين المذكورين ، فلم يُقلْ مثلاً : (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس خالدون فيها) ؛إذ إنَّ في ذلك التكرار زيادة إيضاح وتقرير ؛ لتمييزهم على غيرهم ، فكما ثبت لهم التمييز بوراثة الفردوس ، ثبت لهم أيضاً التمييز بالخلود فيها .

وأخيراً وليس آخراً : في نهاية جولتي مع (صفات المُفلحين كما صوَّرتها سورة " المؤمنون) أودُّ أن أختم كلامي بما يفيد أنَّ النَّص الكريم الذي عايشته طويلاً ، وإنْ كان وارداً في صورة عدَّة جمل خبرية إلَّا أنَّها تحمل في طيِّها طلباً

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١ ، ص ٣٥٧ (تعليقاً على قوله تعالى {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} من الآية ٢٥ من سورة البقرة .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٤ ، ص ٣٨ .

مراداً منه الأمر ، وهذا الأمر مفادٌ من مدح الفاعلين عن طريق الإخبار بفلاحهم الذي كفله الله – عز وجل – لهم ، هذا الفلاح المُنتهي بوراثة المؤمنين الفردوس مروراً بذكر صفاتهم التي تؤهلهم للفلاح في دُنياهم وأخراهم معاً ، ذلكم الإخبار الذي يدُل بطريق الاستلزام على أنَّ كُلَّ مؤمن يُريد الفلاح عليه أن يتمسَّك بما دَلَّ عليه النَّص الكريم من صفات يجب التَّخلُّق بها ، والعمل بمقتضاها .

وفي إيثار مجئ الأمر – في آياتنا – في صورة الخبر إشارة إلى أنَّ المأمور به مما ينبغي أن يكون ولابد ؛ حتي يحصل لهم الفلاح المذكور ، وكأنَّ المُخاطبين أُمِروا وسارعوا إلى الامتثال ، ثم أُخبر عنهم بذلك ، ولا يخفى ما في تلك الطريقة من المُبالغة في الطَّلب ؛ باعتبارها تُبرز المأمور به في معرض الواقع المُحقَّق ؛ رغبةً في حدوثه ، وحرْصاً على تحقيقه ، وحثَّاً على الامتثال ، وسرعةِ الاستجابة ، على نحو ما أشار إلى ذلك أصحاب شروح التلخيص [١] .

أمَّا لو كان الأمر قد جاء بصيغته ، وقيل مثلاً : اخشعوا في صلاتكم ، وأعرضوا عن اللغو ... لكان هذا يعني أنَّ المأمور به لابد أن يكون فعلاً غير مستقر – من أفعالهم لا صفةً ثابتة في نفوسهم ، ولخطر بالبال أنَّ الأمر إرشادي وفقط ، وليس وجوبيَّاً ، ولتوهِّم أنَّ المأمور لو قام بفعل المأمور به في برهة من الزَّمن ، أو قام بفعله تارة ، وتركه أخرى لكان ممتثلاً للأمر ، ولأدَّى ذلك إلى التهاون في التحلِّى بالأخلاق المذكورة ، وخصوصاً إذا ما كانت الأوامر مبنيَّة على الاستطاعة [٢]، ومن ثم يكون قد فات المُخبر عنهم الفلاحُ الذى نصَّت عليه الآيات الكريمة .

والحمد لله أولاً وآخراً ،،،

---

(١) ينظر : شروح التلخيص جـ ٢ ، ص ٣٣٨ .

(٢) وذلك على نحو ما هو مفاد من قوله تعالى : { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } من الآية رقم ١٦ من سورة التغابن.

خاتمة البحث وأهم نتائجه

الحمدُ لله ربِّ العالمين الذى بنعمته تتمُّ الصالحات ،والصلاة والاسلام على صاحب أكمل الرسالات سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ثم أما بعد :

فبعد هذه السياحة التَّأمُّلية التحليلية من وجهة نظر بلاغية ،في هذا البحث المتواضع الذى تناول : (صفات المفلحين كما صوَّرتها سورة (المؤمنون) " دراسة بلاغية تحليلية تأمُّلية " لا يسعني أن أضع قلمي قبل أنْ أذكر أهم ما توصَّل إليه البحث من نتائج أوجزها فيها يلى :

١- إنَّ صفات المؤمنين والمفلحين في القرآن الكريم لها مكانتها الخاصة في نفوس أصحاب الهمم العالية من المؤمنين الخُلَّص ،مما يستوجب على أهل العلم –وبخاصة البلاغيين – أن يولوا تلك الصِّفات العناية والاهتمام .

٢- حفل القرآن الكريم بأوصاف أهل الإيمان ،وفضائلهم وسجاياهم ،وطبائعهم ، وجدَّ في ذكرها بكثرة كاثرة في مواضع متعدِّدة من سوره ،لغايات سامية وجليلة ،من بينها تهذيب النفوس المؤمنة ،وتزكيتها ،واستمالتها ،وتوجيهها إلى التَّمسُّك بالهدى الرَّباني ،رفعةً من مكانة تلك النفوس ،وجعلها بمصاف النماذج الرَّفيعة من الذين اختارهم الله – سبحانه – وهداهم إلى الطريق المستقيم ،تربيةً لهم على ما ينبغي أن يكونوا عليه من طاعة لأوامر الله – عز وجل – واجتناب لنواهيه .

٣-أثبت هذا البحث أنَّ القرآن الكريم عُنى بأسلوبه المعجز عناية فائقة بأساليب تلك الصِّفات في كُلِّ جانب تناولها فيه ،فتارة يذكر بعضها في موضع منه ، والبعض الآخر في مواضع أُخر ، ويستقصى تارة ، ويقتصر أُخرى ،وهكذا

ينثر الصِّفات في أماكن متعدِّدة ،وفى سور مختلفة منه ، ذلك بحسب المُناسبات والعِبر التي يدعو إليها المقام الذى يتحدَّث فيه ،مما يعنى أنَّ ذكر تلك الصفات يكون على وجوه متباينة ،وهذا التباين يتنوَّع ما بين الطول والقصَر، والإجمال والتفصيل ،والاقتصار ،والإكمال ،بحيث لا تصلح صفة مكان الأخرى ؛إذ إنَّ لكل صفة معنى يقتضيها ،ويوجب تعيينها بالذكر ،ولكل صفة موضعها الذى اختصَّت به.

٤- تعدُّد أوصاف أهل الإيمان فيه دلالة على أن أصحاب تلك الأوصاف قد يتفاوتون ،ويتراوحون في درجات إيمانهم ،وأنَّ لكلٍّ أوصافه ،ودرجته التي تُميِّزه عن غيره ، فمنهم المُتَّقون ،ومنهم المُخبتون ،ومنهم المُحسنون ،ومنهم عباد الرحمن وأنَّ كُلّاً أهلٌ للتَّحلِّي بخلال ومحامد تليق بمقامهم على الرَّغم من أنَّ لفظ (المؤمنين)شامل لكل هؤلاء ؛حيث إنَّ (الإيمان)هو القاعدة الأساسية التي ينطلق منها الطائعون لله – عز وجل-إلى تلك الدَّرجات المتفاوتة (التقوى، والإخبات ، وعبادة الرَّحمن ، والإحسان).

٥- أما ما يخصُّ (صفات المُفلحين على نحو ما صوَّرته سورة المؤمنون)،فقد جاءت الآيات المُتضمِّنة لتلك الصِّفات محمولة على ما تقدَّم ذكره في خواتيم سورة (الحج) ، وكان الخطاب بالأمر في ذلك المتقدِّم موجَّهاً للذين آمنوا ،فالمتأخر كان امتداداً وتفصيلا لما أجمل في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[1] . إذ إنَّه لمَّا قام المنادَى عليهم بوصف الإيمان { يا أيها الذين آمنوا ... } بالاستجابة للأوامر الإلهية ، منفِّذين التوجيهات ، عشقاً للفلاح الذى منَّاهم الله – عز وجل – به ، ومُحلِّلا ما طُلِب منهم بتحقيقه ، جاء قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [2]

(١) الآية ٧٧من سورة الحج .
(٢) الآية ١ من سورة المؤمنون .

مشفوعاً بما ورد بعده من آيات ، مدحاً لهؤلاء ، وبعثاً للاطمئنان في نفوسهم، مُقرِّراً ، ومؤكِّداً فضل الله – تعالى – عليهم ، بثبوت وتحقُّق ما كان توقَّعه هؤلاء من فلاح لا يُنازعهم فيه أحد .

كما أنَّ الآيات الواردة بعد قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } جاءت لتبين المقصود من العبادة ، وفعل الخير المأمور بهما المنُادَى عليهم [1] ؛ ذلك لكي يكمُل فلاحهم في الدُنيا بما ينالُهم من عِزٍّ ورفعة ، بسبب استجابتهم لأوامر الله – عز وجل – على سبيل الطاعة له ، وفلاحهم في الآخرة بوارثة جنة الفردوس والخلود فيها ، حيث وعدهم الله – سبحانه – بذلك .

٦– أول ما يلفت النظر في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } مجيؤه على هذا الترتيب البديع ، الذى مدح الله – عز وجل – فيه عباده المؤمنين المفلحين بأحسن أوصافهم وأعمالهم ، على سبيل الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، أو على سبيل ما يُعرف عند البديعيين بصحة التفسير ، حيث جاء الإخبار عن المؤمنين بالفلاح أوَّلاً { قد أفلح المؤمنون } ، وبعد ذكر هؤلاء المؤمنين إجمالاً ، جاء ذكر صفاتهم مفصَّلاً { الذين هم في صلاتهم خاشعون } ، تلك الصِّفات التي نالوا بسببها الفلاح المذكور ، فبيَّن أنهم هم الخاشعون في صلاتهم ، والمعرضون عن اللغو ، والفاعلون للزكاة ، والحافظون لفروجهم إلّا فيما أحلَّه الله – عز وجل – لهم ، والمُراعون

(١) أي في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الآية ٧٧ من سورة الحج .

لأماناتهم ، والمُحافظون على صلواتهم ، ثم عقَّب على ذلك بالثناء على هؤلاء المُفلحون والتنويه بشأنهم فقال سبحانه : {أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون }، وبذا ندرك أنَّ التفصيل المذكور من شأنه تحديد من هم المؤمنون المفلحون ؟ ومتى يكونون كذلك ؟

٧ – بتأمل المزيد من خصائص الأسلوب في النَّص الكريم الذى هو مجال الظاهرة المدروسة ، نجده لم يبدأ بذكر صفات المُفلحين مُباشرة ، وفجأة دون تمهيد ، وتهيئة تمنح هذه الصِّفات صفة القبول والإقناع ، بل بدأ النَّص الكريم بذكر مكانة ومنزلة هؤلاء المتصفين بقوله : { قد أفلح المؤمنون } تلك الصِّفة التي تجذب الأذهان إلى المُتابعة ، ويدعوها إلى الاستفسار والرَّغبة في الفهم ؛ لتحصل الفائدة ، وكأن السامع للآية المذكورة قد تحركت مشاعره ، وتطرَّق إلى ذهنه سؤالاً مفاده : من هم هؤلاء المؤمنون المفلحون ؟ فجاء قوله تعالى: { الذين هم في صلاتهم خاشعون...الخ } مستأنفاً مفصولاً عمَّا قبله، جواباً عن ذلك السؤال المقدَّر ، كشفاً عن سبب فلاح هؤلاء المؤمنين ودوافعه... الخ ، فالفصل المذكور قائم على ما لا يقتضى النَّسق غيره ، ولا يرتضي سواه .

٨– مجيء الإخبار بفلاح المُخبر عنهم بصيغة الماضي ، مُصدَّراً بالحرف (قد) فيه مزيد من تحقُّق وثبوت الخبر ، وفي التصدير المذكور إبلاغ في الصِّفة ، بخلاف ما لو جاء الفعل (أفلح) مُجرَّداً من ذلك الحرف ، الذى في ذكره دلالة على غاية التكريم والتشريف الذى يناله هؤلاء المُفلحون .

٩– مجيء الصِّفات المذكورة عقب الإخبار بفلاح المؤمنين دليل قاطع وبرهان ساطع على أنَّ الاتصاف بهذه الصِّفات جميعها من قواعد الإيمان وأساسياته ، وأنَّ الإيمان هو القاعدة الأساسية لمن أراد أن يتصف بما ذُكِر ، وأنَّ الإخلال بالاتصاف بواحدة منها يُخلُّ بقواعد الإيمان ، وكُلَّما تحلَّى المؤمن ، وزاد اتصافه بتلك الصِّفات تعمَّق الإيمان في قلبه ، إذ إن الإيمان عقائد وأخلاق

وسلوك ، وليس عقيدة فحسْب ، وإن دلَّ هذا فإنَّما يدُلُّ على أنَّ الإيمان منظومة رائعة للعقائد والأخلاق ، وسلوك في القول والعمل ، وأنَّ الصِّفات المُخبر بها في النَّص الكريم عن المؤمنين المفلحين حدَّدت وضعهم ، ووصفهم بأمرين ، وتشمل معنيين في آن واحد :

الأول : أنَّ الصفات المذكورة هي من حقيقة الإيمان ، وأنَّه لا يتحقَّق إلا بها ، مجتمعة ودون تجزئة ؛ إذ إنَّ الفلاح في الدُّنيا والآخرة ، مرتبط بصلاح الدين والدنيا معاً .

المعنى الثاني : هو التهديد الخفي للذين آمنوا إن لم يتصفوا بهذه الصفات ؛إذ إنهم والحالة هذه يخرجون من دائرة الإيمان الحقيقي ، ولا يتحقق لهم الفلاح ، وإنْ أدَّوا بعض شعائر الإسلام وأقاموا حدوده .

وبناءً على هذين المعنيين يكون مفاد النَّصِّ الكريم : أنَّ الحق تبارك وتعالى كأنه يقول لنا : إذا رأيتم هؤلاء المؤمنين المتَّصفين بهذه الصفات المذكورة ، فاعلموا أنَّهم مفلحون يستحقون إرث جنَّة الفردوس ، وإذا رأيتم من يدَّعي الإيمان ولا يخشع في صلاته ، ولا يُعرِض عن اللغو ، ولا يقوم بفعل الزكاة، ولا يحفظ فرجه ... الخ ، فاعلموا أنَّه ليس من المُفلحين ؛ ذلك أنه لا يتصف بهذه الصِّفات ، بوصف كونه مؤمناً .

١٠- جاءت الجمل المتتابعة الواصفة لاسم الفاعل في قوله تعالى : { قد أفلح المؤمنون} بأنهم : { الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ... } أقول : جاءت كُلُّ تلك الجمل المتعاقبة ؛ للدِّلالة على معنى هؤلاء المؤمنين المفلحين ، قاطعاً بعدم احتمال غير هذا المعنى الذى حدَّده السياق تفصيلاً ، بست جمل واصفة .

وبذا يتبيَّن لنا أنَّ المُراد بالمفلحين من المؤمنين هم هؤلاء الموصوفون ، ومن لم يكن ديدنه الاتصاف بما ذُكِر ليس مفلحاً على نحو ما هو ظاهر من النَّص القرآني .

١١- الصفات المذكورة في النَّصِّ الكريم جميعها جاءت في معقدٍ مكوَّناً من آيات متناسبة متناسلة بينها من العلائق والوشائج ما بينها ، حيث " إن في كُلِّ آية معنى تنتظم به بما قبلها ، ومعنى تتهيَّأ به للانتظام بما بعدها ، وبذلك كان انتظام الآى داخلا في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً " (١) .

١٢- كشف البحث عن حسن نسق الآيات ، حيث جاءت جملُها مرتبة ترتيباً حسناً، خالياً من عيوب النظم ، فقد بدأ سبحانه بالإخبار عن فلاح المؤمنين ، ثم شرع في بيان صفات هؤلاء المؤمنين المفلحين بادئاً بأهم أوصافهم ، وهو الخشوع في الصلاة ، ذلكم الخشوع الذى عن طريقه يتعلَّق قلبُ المؤمن بالله – سبحانه – ثم ثنَّى بالإعراض عن اللغو ... ثم أخبر عنهم بأنهم الوارثون : { الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون } ، والمتأمِّل يرى أنَّ كُلَّ جزء تقدَّم على آخر ، فإنَّ المُتقدِّم يكون سبباً فيما يليه ، إذ إنَّ الإيمان أعلى مرتبة ، وهو الذي ينشأ عنه الخشوع في الصلاة ، والخشوع المذكور ينشأ عنه الإعراض عن اللغو ، والإعراض عن اللغو ينشأ عنه فعل الزكاة ، الذى ينشأ عنه حفظ الفروج ، وذلك الحفظ أمانة ، وهى كالسبب في الحفاظ على الأمانات، ومراعاة العهود ، واللتان هما كالسبب في المُحافظة على الصلوات ،

---

(١) نظم الدُّرر جـ ١ / ٨٧ ، وهذا النَّص المذكور ذكره الإمام البقاعي نقلاً عن الإمام الحرالي ، هو بصدد تفسيره لقوله تعالى : { وإذا قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... } الآية ٣٠ من سورة البقرة – وما ذكره الإمام الحرالي هُنا – بلا شك – ليس خاصَّاً بما نحن بصدد تناوله هُنا ، وإنما هو عام في جميع سور القرآن الكريم ، ومعاقده ، إذ إنَّ من أهم ما يتميز به كتاب الله الخالد ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى يكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني . ينظر : نظم الدُّر (مقدمة المؤلف) جـ ١ ص ٦ .

وكُلُّ تلك الصِّفات سبب في وراثة جنَّة الفردوس ، تلك الوراثة التي هي الفلاح بعينه، وبالجملة فإنَّ كُلَّ صفة من الصِّفات المذكورة كاشفة لسابقتها مفسِّرة ، بلاحقتها ،كأنها دليل للسابقة نتيجة للاحقة ،ومن ثم كان حسن الترتيب في النظم ناشئاً عن تقديم ما يجب تقديمه ،وتأخير ما يجب تأخيره ، حتى يكون للكلام موقع في النفوس ،وتأثير في القلوب ،وهذا ما لا يتوافر في كلام البشر ،حيث تشابكت العلاقات فيها بين الصفات المذكورة ،بحيث تأخذ كُلُّ صفة بحجُز الأخرى ،حتى يتحقَّق " الإيمان بكل قضاياه ودلائله، وصفاته "[١] ، ومن ثم صارت تلك الصِّفات من النمط العالي في ترابط أجزائها ، وعرضها عرضاً حسناً ،يمتاز هذا العرض بالجمع بين سهولة العبارة ، وقوَّة متانتها ، وسلاستها في صورة جمل خبرية ممزوجة بالمنطق الذى أكسبها المتانة والرَّصانة .

١٣- أضف إلى ذلك أنَّ الاتصاف بهذه الصِّفات بعد التحلِّى بالإيمان فيه إشارة إلى (تشييع التخلية بالتَّحلية) اللتين هما رفيقتان أبداً ، حيث إنَّ التزيين يكون بعد التنزيه ، ألا ترى أنَّ الإيمان بالله – الواحد القهَّار – في حدِّ ذاته تنزيه عن الشرك ؟ ثم إنَّ التحلية تكون بالاتصاف بأوصاف أهل الإيمان ، تلك الأوصاف التي لها أثرها ، وخصائصها ، ودورها في حياة الشخصية المؤمنة ، تلك " الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذى كرَّمه الله ، وأراد له التَّدَرُّج في مدارج الكمال " [٢] .

١٤- جاء الوصل بـ (الواو) بين الآيات المتضمِّنة لها ؛ ليتم التَّكامل بينها ؛ وليستقيم المعنى ، وللجمع بينها كلها في بوتقة واحدة ، وكأنَّ تلك الصفات

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ، ص ٢٤٥٢ .
(٢) في ظلال القرآن جـ ٤ ، ص ٢٤٥٧ .

جميعها شيء واحد ، لا انفصام بينهما ؛ باعتبار أنَّ كُلَّ صفة تتطلَّبها ، وتستلزمها الصِّفات الأُخرى ، وإن كانت كُلُّ صفة ذات معنى مستقل عن الأخرى ، ومتميِّزة عنها ، إلَّا أن العطف بـ (الواو) يُفيد كمال الموسومين في كُلِّ صفةٍ منها على حدة ، وأنَّ هذا الكمال لا يتم إلَّا بعد التَّحلِّي بجميع الصِّفات؛ نظراً لما بينها جميعها من تلاحم ووشائج ، واعتلاق ، وأنَّ اللاحق من تلك الصفات مبني على السابق ؛ لأن الفلاح لهؤلاء المؤمنين متوقِّف على الجمع بينها جميعها ، ف (الواو) بين المتعاطفات ، وإن كانت – كما يُعلم – تفيد الجمع بلا ترتيب إلَّا أنَّ هذه الصِّفات – والله أعلم – جاءت مُرتَّبة على حسب منزلتها من عناية الشارع ؛ باعتبار أنَّ كُلَّ صفة تَسلِّم إلى الأُخرى ، ذلك بالإضافة إلى أنَّ الوصل بين الآيات بالحرف المذكور ، إنما كان لما بينها من المُناسبة ما يقتضي الوصل ، ذلك على سبيل ما يُعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين نظراً لتغاير الصفات وتباينها ، وتنزيل هذا التغاير منزلة تغاير الذَّات ، ومن ثم كان العطف على نحو ما ذُكر ، وإن كان لا تغاير بين الموصوفين من جهة الذات ، إلَّا أنَّ وجه العطف يتمثَّل في تغاير الصِّفات بحسب مضمون الصِّلة ، وكأنه قيل : (قد أفلح المؤمنون الجامعون بين الخشوع في الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، وفعل الزكاة ، وحفظ الفروج ، ومراعاة الأمانة والعهد ، والمحافظة على الصلوات) ، فهذه الصِّفات ، وإن كانت متنوِّعة إلَّا أنها في نفس الوقت متلازمة ؛ ولا يحصل لحامليها الفلاح إلَّا بها مجتمعة ، ولو حُذفت (الواو) لذهب معنى الجمع بينها .

١٥- كشف البحث : أنَّ العطف بـ (الواو) بين كُلٍّ من قوله تعالى : {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} وقوله : { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} إنما كان لسببين :

الأوَّل : ما سبق توضيحه من ضرورة الجمع بين هاتين الصِّفتين .

والسبب الثاني : للتضاد المعنوي الواقع بين صفتي الخشوع في الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، وفي ذلك دلالة أيضاً على انَّ الخشوع المذكور لا يتمُّ إلَّا بهذا الإعراض ، فحسُن ذكر الإعراض عن اللغو ليقترن بما سبقه ؛ لتضمُّن (الإعراض) دفع الشَّرِّ ، وتضمُّن ما قبله جلب الخبر للمؤمن عن طريق خشوعه وخضوعه لله عز وجل ، وبناءً على هذا تظهر الفائدة في تقديم الخشوع في الذكر .

١٦- تبيَّنت حكمة القرآن وجلالته في تكرار اسم الموصول (الذين) ست مرَّات ، مع تأكيد نسبة الوصف في كُلِّ مرَّة بذكر الضمير (هم) ، واختصاصها لهؤلاء المؤمنين ، على أبدع نظام ، وأحسن سياق (الذين هم – الذين هم – الذين هم ....) ، وكان يُمكن الاستغناء عن ذلك التكرار بدلالة السياق ، ويُقال : (الذين هم في صلاتهم خاشعون . وعن اللغو معرضون . وللزكاة فاعلون ....) ، إلَّا انَّ الذوق البلاغي يهدينا إلى القول بأنَّ الذي سوَّغ هذا التكرار ، ودعا إليه هو: التنويه بالموصوفين ، والإشادة بذكرهم ، تعريفاً لهم بأعيانهم ، وقصد ذواتهم ، إبرازاً لصفتهم في كُلِّ مرَّة ؛ باعتبار أنَّ المقام مقام مدح وتعظيم لهم، ومن ثم كانت الرَّغبة مُلحَّة في زيادة الإيضاح والتقرير للدور الذي يجب أن يقوم به المؤمن في تصرُّفاته ، وسلوكيَّاته ؛ لعلوِّ شأنه ولما ينبغي أن يتصف به المؤمن من أنواع القيم ، والسلوك التي كشفت عنها الصِّفات المذكورة ؛ باعتبار أنَّ كُلَّ صفة منها " سجيَّة في ذات هؤلاء الموصوفين متوغِّلة في كينونتهم ، متأصِّلة في واقعهم" [١] ، ملازمة لهم ، لا تفارقهم أبداً ؛ باعتبارها صفات تكريم ، لصيقة بهم ، لا تتخلَّى عنهم ، لأنها متمكِّنة

(١) ينظر : دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ٢٢٥ .

من نفوسهم ، مهيمنة على مشاعرهم ، ذلك فضلاً عمَّا في التكرار المذكور من إشعار بتعداد مزايا هؤلاء الموصوفين ، وإشارة إلى استحقاق كُلٍّ صفة للإصالة في نفسها ، وكأنَّه قيل : (هؤلاء المفلحون هم الذين من شانهم الخشوع في الصلاة ، وهم الذين من شأنهم الإعراض عن اللغو ، وهم الذين من شأنهم فعل الزكاة ..... الخ) ، إلى غير ذلك من الأسرار البلاغية التي عرض لها هذا البحث في ثناياه ، عن شأن التعبير باسم الموصول ، وتكرار الضمير (هم) ، وإن دلَّ هذا فإنَّما يدُل على أنَّ كُلًّا من (اسم الموصول) ، والضمير (هم) على الرَّغم من تكرارهما ، إلَّا أنَّ كُلاً قد جاء متمكِّناً في موضعه لا يُلمح فيه أثر التكرار ؛ لأنَّ السياق في كُلِّ موضع يسهم بدور بارز في إعطاء معنى جديد للآية المذكور فيها الاسم والضمير (المذكوران) ، وفي ذلك إشارة في النهاية إلى استحقاق الفلاح الأُخروى متمثِّلاً في وراثة جنة الفردوس ، فسبحان من كان هذا القرآن كلامه .

١٧- أبرز البحث أنَّ مجيء لفظ (المؤمنون) في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} بالصيغة الاسمية فيه دلالة على أنَّ إيمان هؤلاء المُفلحين له حقيقة واحدة هي : ثبوت ذلك الإيمان ودوامه في قلوبهم ، وذلكم الإيمان الثابت الدال على رسوخ العقيدة في نفوسهم ، ناسبه التعبير عن صفاتهم المتولِّدة عن ذلك الإيمان بالاسم الدال على ثبوت تلك الأوصاف ودوامها في الموصوفين ثبوتاً مؤكداً ، فهم (خاشعون في صلاتهم – معرضون عن اللغو – فاعلون للزكاة – حافظون للفروج – راعون للأمانات والعهود) على الدوام ، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ هذه الصِّفات أساسية للمؤمن ، وأخلاق لابد أن تكون ملازمة له ، لا تنفك عنه ، فهي ديدنه ، ومن ثم فقد استحقوا وراثة الجنَّة بمداومة الثبوت على الاتصاف بها ، ولا شك في أنَّ الأُمَّة في هذه الآونة التي تكثر فيها

الشدائد ، والأزمات أشدُّ احتياجاً إلى إحياء هذه الصِّفات والأخلاق ؛ لكي تنجو مِمَّا هي فيه .

١٨- عُبِّر عن المُحافظة على الصلوات في قوله تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} بالفعل المضارع (يحافظون) ، لأنَّ الصفة المذكورة تقتضي استمرار وتَجدُّد أدائها في أوقاتها ، وإقامة أركانها ، كلما حان وقتها .

١٩- تبيَّن أنَّ الصِّفات المذكورة (خاشعون – معرضون – فاعلون .....) كُلُّ صفة منها (مشتملة على معان شرعية ، وآداب حُكمية ، تزيد على الحدِّ وتفوق على العدِّ" [١] ، مِمَّا يعني أنَّ كُلَّ صفة منها مبنية على ما يُعرف عند البلاغيين بـ (إيجاز القِصر) .

٢٠- جاء الإيمان في لفظة (المؤمنون) في قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} مُجملاً ، أعني أن الإيمان الذي تضمَّنته تلك اللفظة، تفصيله ليس وارداً في الآية الكريمة نفسها ، بل في مواضع أُخر من النصوص القرآنية التي حدَّدت دلالة الكلمة المذكورة ، وتم استيحاؤها من تلك النصوص .

٢١- الاقتصار على الصِّفات المذكورة على نحو ما وردت في مطلع السورة الكريمة ، دون غيرها من الإيمان بالشهادتين ، وبالغيب ، وبالملائكة ، وبالبعث ، وبالصراط ، وباليوم الآخر ....الخ، إنما كان – ذلك الاقتصار – باعتبار أن (الخشوع في الصلاة .... وما تبعه يصلح معياراً يتميَّز به المؤمن المفلح من غيره ، ومن ثمَّ فقد أُخرجت الصِّفات – التي هي محل الدراسة – مخرج الوصف لهؤلاء المُفلحين بذكر علاماتهم ، وأماراتهم المُطرَّده ، ذلك بالإضافة إلى أنَّ الاتصاف بهذه الصِّفات المذكورة ، يستلزم الاتصاف بغيرها من الصِّفات التي لم تُذكر معها ، ومشروط بذلك الاستلزام ، وقد وضح لنا ذلك

(١) الطراز للعلوي جـ ٢ ، ص ٨٩ .

جليًّاً من خلال الحديث عن المطلب الخاص بالتلازم بين صفات المؤمنين في موضوعاتها .

٢٢- ومن الظواهر البلاغية الأخرى - التي تُطلعنا على عظمة القرآن الكريم وجلالته - في الآيات المُتضمِّنة لصفات المفلحين في السورة الكريمة تقديم المعمول في كُلِّ آية على عامله ، أعني تقديم الجار والمجرور (في صلاتهم) على الخبر (خاشعون) ، و (عن اللغو) على (معرضون) ، و (للزكاة) على (فاعلون) .... الخ ، باعتبار أنَّ المُقدَّم هو المحور الذي يدور عليه الحديث ، ولأنه المقصود بالالتفات إليه ؛ لأنَّ الصفات المذكورة تتعَّلق به ، ذلك فضلاً عن أنَّ المُقدَّم له دلالة شعورية خاصة ،فمثلاً قوله (في صلاتهم) حينما يطرق السَّمع ، يستحضر قوى النفس المؤمنة؛ لتري ماذا تصنع ؟ وماذا تكون صفتها في هذه الحالة ؟ فإذا ما جاء الخبر (خاشعون) ، والنفس مستشرفة لمعرفته ، استقرَّ لديها وتأكَّد أنَّ ما عليه النظم الكريم يؤذن بأنّ الصَّلاة هي مصدر الخشوع ومكانه ، وهذا المسلك الأسلوبي من وسائل التشويق التي يستخدمها القرآن الكريم في كثير من آياته .

٢٣- تبيَّن لنا أنَّ النَّصِّ الكريم يُقرِّر بعضه بعضاً ، وأنَّ كُلَّ صفة لازمة للتي تليها، وأنَّ قوله تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [(١)] بمثابة التلخيص لما سبقه من آيات ؛ لأنَّ الإيمان أمانة ، والخشوع في الصلاة أمانة، والإعراض عن اللغو أمانة ، وفعل الزكاة ، وتزكية النفوس أمانة ، وحفظ الفروج على غير الأزواج ، وعلي غير ملك اليمين أمانة ، بل عدم حفظها على الأزواج ، وملك اليمين أمانة ، والمحافظة على الصلوات من أشد أنواع

(١) الآية ٨ من سورة المؤمنون .

الأمانات ولذلك جاء قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[١] عقب قوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} " وفوق ذلك كلِّه مراعاة الأمانة هي أصل خصائص الإنسان التي يتميَّز بها عن غيره من مخلوقات الله ، وكأنَّها مناط إنسانيَّته "[٢] .

٢٤- دلالة اللفظ القليل على المعنى الكثير ، بحيث يكون اللفظ عبارة عن لمحة دالة ، وإشارة خاطفة ، فمثلاً إذا نظرنا إلى قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} وترتيبه في السياق الوارد فيه ، لتبيَّن لنا أنَّ هذا الترتيب أومأ إلى أنَّ المُحافظة على الصلاة لا يمكن أن تتمَّ إلَّا بالمحافظة على أداء الأمانات ، ومراعاة العهود ، وذلك لا يكون إلَّا عن طريق حفظ الفروج ، وحفظ الفروج لا يمكن إلَّا بتزكية النفوس ، وتزكية النفوس لا تتم إلَّا بالإعراض عن اللغو ، والإعراض عن اللغو ، سببه الخشوع في الصلاة ، والخشوع هذا متوقِّف على الإيمان بالله جلَّ وعلا ، وفي النهاية تكون النتيجة بفلاح المؤمنين ، ووراثتهم الجنَّة ، وبذا تكون قيمتنا في التحلِّي بالصِّفات المذكورة لا بأضدادها إذ إن الأولى منبع الأخلاق الفاضلة .

٢٥- قامت كُلُّ كلمة في الآيات المذكورة بأداء دورها الوظيفي على أكمل وجه ، بحيث لا يمكن أن تحل غيرها محلها ، حتي لو كانت متقاربة معها في الدلالة وفي المفهوم ، فمثلاً : اصطفاء الفعل (أفلح) في قوله تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} على (فاز) ، وإن كانا متقاربيْن في الدِّلالة وفي المفهوم ، إنما كان هذا الاصطفاء ؛ لأنَّ الفوز الحقيقي للمرء إنَّما يكون في الآخرة بدخوله الجنَّة وتمتُّعه فيها – على نحو ما مرَّ بيانه في هذا البحث ، والفوز مرهون بالفلاح

(١) الآية ٩ من السورة نفسها .
(٢) من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبي موسي ص ٢٨٦ .

في الآخرة ، والفلاح في الآخرة مرهون بسعي الإنسان إلى الاتصاف بالصِّفات المذكورة من خشوع في الصلاة ، وإعراض عن اللغو ...الخ)، وذلك في الدُّنيا، ومن ثم أوثر لفظ(أفلح) على لفظ(فاز).

وكذلك اصطفاء (خاشعون) على لفظ (خُشَّع) مثلاً ؛ إنما كان لدلالة الأول على ثبوته ولزومه للموصوفين ، ذلك فضلاً عن أنَّ اسم الفاعل فيه دلالة على أنَّ المراد هو الخشوع الباطني الذي يظهر أثره على الجوارح ، ذلك بخلاف صيغه جمع التكسير ، فإنَّ المُراد منها : هو المُبالغة في الخشوع الظاهري ، وفقط ، وليس هذا مقصوداً على نحو ما تبيَّن لنا في موضعه من هذا البحث .

٢٦- كشف لنا هذا البحث عن الآدب العالي في عرض صفة (حفظ الفروج) - {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} ، حيث إنَّ كلمة (فروج) جيء بها على سبيل الكناية عمَّا يَستبشع التصريح به (كالسَّوأة ، أو العورة ، أو العرض) ؛ رعاية للذوق الذي يستهجن ذكر مثل هذه الألفاظ صراحة ، من حيث إنَّ الكلمة المستعملة لا تمسُّ عفافاً ولا تجرح حياءً ؛ لأنها تجنيب ما تمُجُّه الأذان ، وتنبو عنه الأسماع ... مما يدُلُّ على روعة التعبير القرآني .... ونزاهة ألفاظه السامية وشرفها ... فرُبَّ صمتٍ هو أنطق بالحكم ... ورُبَّ حذف هو أزيد للإفادة .

٢٧- برز لنا دور أسلوب الشرط في قوله تعالى : { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} ذلكم الأسلوب الذي يربط السبب بالنتيجة ، والذى أوثر فيه الإجمال على التفصيل ؛ إعراضاً عن كل زيادة ، البيان ليس في حاجة إليها ؛ حيث إن الفعل (ابتغى) يتضمَّن معنى : (ابتغى مجاوزة الحدِّ باستمتاع غير مُباح ، سواء أكان بكشف عورته ، وعدم حفظ فرجه على ما لا يحل له ، أم بغير ذلك) ، ولكن اكتُفي بذكر الفعل (ابتغى) مع حذف المفعول ؛ ذلك

للاختصار والإيجاز ، وفى الوقت نفسه للإبهام ، استهجاناً للتصريح بذكر ما حُذف مع علم المُخاطب به من خلال الآية المذكورة قبلاً : { إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ... الآية }.

أضف إلى ذلك أنَّ وجازة الأسلوب القرآني أيضاً تتمثل في أنَّ كلمتي (وراء ذلك) أغنت عن تفصيل يعلمه المُخاطبون ، حيث إنهما يَعُمَّان كُلَّ من هو ليس من الأزواج ، أو ملك اليمين ، فكلمة (وراء) وإنْ كانت لفظة واحدة ، إلَّا أنه يدخل تحتها كُلُّ مسلك من المسالك المُحرَّمة الممنوعة شرعاً لقضاء الشهوات، ونيل الأوطار كالزنا واللواط ، والسحاق ، والاستمناء باليد ، ومواقعة البهائم ....

ولك أن تتصور البنية التركيبية التي جاء عليها جواب الشرط (فأولئك هم العادون) ، حيث إنه جاء حاسماً وقاطعاً في بيان الجزاء من ناحية مجيئه جملة اسمية ، ذلك بالإضافة إلى كونه مصدَّراً بـ (الفاء) التي تؤكِّد كون اللاحق نتيجة مباشرة للسابق ترتيباً وتعقيباً ، وعلى وجه السُّرعة يستحق المُبتغون في الحرام الحُكم بما أخبر به عنهم من وصفهم بالمعاداة ، ومجاوزة الحدِّ ، دون أن يستدعي هذا الاستحقاق زمناً ممتداً ، وأنَّ هذا الحكم لا يتخلف عنهم البتَة ... وبخاصة وقد كان مجيؤه في بنية أسلوب القصر المبني على تعريف الطرفين (أولئك)، و(العادون) ؛ للإيذان بالإبلاغ في إفادة حصر صفة (المعاداة ومجاوزة الحد) في هؤلاء المبتغين في الحرام ، والذين تجاوزوا حسن الأدب الذى رسمه الشرع الحنيف لهم ؛ وفي ذلك كُلِّه دلالة على أنَّ هؤلاء بابتغائهم هذا متناهون في التَّعدِّي ، وفي الخروج عن حدود الإيمان .

ومما يزيد الأمر توكيداً مجيء الطرفين مُكتنفين ضمير الفصل (هم) لإفادة تقوية الحُكم ، وللإشعار بملازمة هذا الحُكم المبتغين ، وعدم انفكاكه عنهم؛ إيذاناً بالإبلاغ في حقارتهم .

ولا يخفى أيضاً ما في التعبير باسم الإشارة (أولئك) من إيذان آخر بأنَّ مثل هؤلاء (المبتغين قد بلغوا مبلغاً لا مثيل له في الحقارة ، وأنَّ منزلتهم في الشَّرِّ والفساد لا تدانيها منزلة ، وأنَّ عدوانهم المرذول بابتغائهم تكثُّر بدرجة تُجسِّمُهم محسوسين نصب نظر النَّافرين منهم .

٢٨ – اتَّضح لنا أنَّ قوله تعالى : { أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون } جاء بياناً لمنزلة المؤمنين المُفلحين عند الله – عز وجل – ذلك عقب وصفهم بالخصال الحميدة التي تميَّزوا بها في الآيات المذكورة .

وقد جاء قوله تعالى : { أولئك هم الوارثون } في بنية أسلوب القصر الذى طريقه تعريف الطرفين – على نحو ما سبق منذ قليل – مما يعني حصر وراثة الفردوس في هؤلاء المفلحين ، تعريضاً بغيرهم ممن لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ، ولم يخشعوا في صلاتهم ،ـ ولم يُعرضوا عن اللغو ، ولم يحفظوا فروجهم عما حرَّم الله ، ولم يراعوا عهودهم ، ولم يحفظوا أماناتهم ... مع ملاحظة أنَّ وراثة الجنَّة ليست جزاءً على عمل ، ولا هي استحقاق ، وإنما هي فضل من الله – عز وجل – ومنة منه على عباده – وقد سبق تفصيل ذلك ، وما يعنينا هو أنَّ قيمتنا في إيماننا ، وفي خشوعنا في صلاتنا ، وفي إعراضنا عن اللغو ، وفي فعل الزكاة ، وفي حفظ فروجنا ، لا في سفور نسائنا ، ولا في فجور بناتنا ... الخ .

وقد جاء القول الكريم { أولئك هم الوارثون ...} مفصولاً عمَّا قبله على سبيل الاستئناف البياني الذي يفيد أنَّ هناك صلة وثيقة بينه وبين ما قبله ...

لبيان أنَّ هؤلاء الموصوفين هم المستحقون للفوز بوارثة الفردوس ؛ بسبب ما تقدَّم من اتصافهم بالإيمان ، وما تبعه من صفات ... مع ملاحظة أنَّ المشار إليه بـ (أولئك) هم ذوات الموصوفين بالصفات السابقة من أهل الفلاح من المؤمنين، مما يعني أنَّ اللفظ المذكور جئ به للاختصار ، فهو أغنى عن تفصيل كثير ، وحلَّ محلَّ ألفاظ كثيرة ، مع وضوح المعنى ، وسلامة الأسلوب من التكرار ... وبذا يكون المشار به من البلاغة والإيجاز بمكان ... مع مجيئه بصيغة الجمع الموضوع للبعيد ؛ للدلالة على بعد منزلة المشار إليهم في الفضل ؛ بسبب حسن مثوبتهم المتمثِّلة في إرث الفردوس المترتب على ما سبق ذكره من أوصاف كانوا قد تحلَّوا بها ... وفي مجئ الخبر (الوارثون) معرَّفاً بـ (أل) الجنسية ، إشارة دالة على أنَّ المُشار إليهم بلغوا حدَّ الكمال في صفة (الإرث) ... وفي توسيط ضمير الفصل (هم) بين كُلٍّ من المسند إليه والمسند مزيد من التأكيد على ما يفيده التعريف من حصر وغيره .

كما أنَّ قوله (الوارثون) استعارة تصريحية تبعية لا يخفى دورها في الأسلوب ، حيث إنَّ حقيقة الميراث في الشرع ، هو ما انتقل إلى الإنسان من ملك الغير بعد موته على وجه الاستحقاق ...

ثم إنَّ قوله تعالى بعد ذلك { الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون } جاء بياناً للقول السابق ، وتوضيحاً وتفسيراً لنوع المثوبة الذي دلَّ عليها لفظ (الوارثون) ، وتقييداً لها بعد إطلاقها ... وجاء القول المذكور مفصولاً عمَّا قبله على سبيل ما يُعرف بـ (كمال الاتصال) بين كُلٍّ من الجملتين .

وفي تقديم الجار والمجرور (فيها) على الخبر (خالدون) إشارة إلى عظم هذا الجزاء الذي يناله هؤلاء المفلحون ؛ إذ إنَّ خلودهم ثابت في الفردوس لا في غيره .

وفي تكرار الضمير (هم) في الآيتين زيادة إيضاح وتقرير لهؤلاء المفلحين وجزائهم ، وتمييزاً لهم على غيرهم ، فكما ثبت لهم التمييز بوارثة الفردوس ، ثبت لهم أيضاً تمييزهم بالخلود فيها ....

٢٩- آيات النَّص الكريم وإن كانت إخباراً في اللفظ إلَّا أنها طلبية في مقصدها ومُرادها ،حيث إنَّ المقصود هو لازم المعنى ، وهو الحثُّ على الخشوع في الصلاة ، وعلى الإعراض عن اللغو ، وعلى فعل الزكاة ، وعلى حفظ الفروج في غير ما أحل الله – سبحانه – وعلى الانتهاء عن الابتغاء في الحرام ، وعلى الحث على حفظ الأمانات ومراعاة العهود ، وعلى المحافظة على الصلوات .

ولاشك في أن إبراز الطلب في صورة خبرية من روافد التأكيد الذى يتضمَّن حثَّاً على الإسراع بتحقيق ما أخبر عنه ؛ ذلك ليكون العبد على حسن ذكر ربِّه ، فيُسارع بإيقاع ما أُخبر به [١] من خلال ما توحي به الصورة المذكورة من أنَّ المأمور بفعله شيء يؤدِّي بصاحبه إلى الفلاح في الدُّنيا والآخرة ، وبالتالي يكون فاعله محبوباً لدى المولى – عز وجل – وإذا أدرك المؤمن الوعيُّ ذلك استشعر مدى فضل ذلك الفلاح عند الحق – تبارك وتعالى – وقام بالإقدام على فعل ما يؤدي إلى ذلك الفلاح ، وهو مطمئن القلب قرير العين .

٣٠- وأخيراً وليس آخراً : إن سياق الآيات يدُلُّ على السُّموِّ بالإيمان إلى درجات الكمال ، بما ميَّز الله – عز وجل – به المؤمنين من النُّعوت والأوصاف ، بوضع كُلِّ لفظة في موضعها اللائق بها ، وقد جاءت مفردات الآيات فصيحة ، خالصة مما يشوبها ، فلا غرابة ولا غموض ولا استكراه ، في جمل فصيحة التعبير ، جميلة الإيقاع مُنغَّمة الفقرات ، لا يُتوقَّف في فهم معناها ؛ لوضوحه

(١) ينظر : دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ٣٤٣ .

وصفائه ، وتمكينه في النفوس ، وقد جاءت " أطراف الآيات متآلفة ، لذَّت على الأذان لتوافق فواصلها[١] ، ولين معاطفها " [٢] ، بـ " ألفاظ مسجوعة حلوة المذاق ، رطبة طنَّانة صافية على السَّماع ، حُلوة طيبة رنَّانة تشتاق إلى سماعها الأنفس ، ويُلذُّ سماعها على الأذان " [٣]، لاشك في أنَّ حلاوة المذاق وصف عام للقرآن الكريم كُلِّه ، وليس خاصاً بموضع فيه دون آخر ، فسبحان من قال : { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } .

وبعد :

فهذا هو جهدي ، وهو جهد المقل ، وما أبرِّئ نفسى من خطأ أو زلل أو نسيان ، فأن أك قد وُفقِّت ، فهذا من فضل الله ، وإن تكن الأُخرى ، فحسبي ثواب المُجتهد ، والكمال لله – عز وجل – وحده .

وختاماً :

أسأل الله أن يتقبَّل مني هذا العمل ، وأن يغفر لي ما وقع فيه من زلل ، إنَّه تعالى سميع لمن سأل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

د / إسماعيل محمد الأنور محمد إسماعيل

---

(١) حيث إنَّ فواصل الآيات جميعها متَّحدة في حرف (النون) المسبوق بحرف مد (الواو) .
(٢) ينظر : الطراز جـ ٣ ص ٢٣ .
(٣) السابق جـ ٣ ص ٢١ .

فهرس المصادر والمراجع

م	المصدر أو المرجع
	القرآن الكريم – جل من أنزله –
١	الإبهاج في شرح المنهاج للسُبكي – تحقيق / الدكتور شعبان محمد إسماعيل – نشر / مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م– نشر/ مكتبة العبيكان – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م ،
٢	الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي – نشر المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان سنة ١٩٧٣ م .
٣	أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بـ (ابن العربى) – تحقيق / على محمد البجاوى – ط دار الفكر العربى غير مؤرَّخة .
٤	أحكام القرآن لحجة الإسلام أبى بكر أحمد علىٍّ الرَّازى الجصَّاص– ط دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان – غير مؤرَّخة .
٥	الأدب المفرد للإمام البخاري – نشر / مكتبة الآداب ١٩٧٩ م.
٦	إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للإمام القسطلاني – نشر / دار صادر – ط / المُطبعة الكبرى الأميرية – سادسة ١٣٠٤ هـ .
٧	إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول للإمام الشوكاني / ١٧٩ ط / دار الفكر – غير مؤرخة.
٨	أساس البلاغة للإمام الزمخشرى – نشر / دار النفائس – بيروت – ط / أولي ١٤١٢ه – ١٩٩٢م .
٩	أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / تحقيق / ريتر – نشر / مكتبة المتنبي– ط/ ثانية ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

م	المصدر أو المرجع
١٠	أسلوب الدعوة القرآنية (بلاغة ومنهاجاً) للدكتور عبد الغني محمد سعد بركة – نشر / مكتبة وهبة – ط / أولي ١٤٠٣ه – ١٩٨٣م .
١١	الأسلوب الكنائي (نشأته – تطوره – بلاغته) – للدكتور / محمود شيخون – نشر : مكتبة الكليات الأزهرية– ط الأولى ١٣٩٨ه/ ١٩٧٨م .
١٢	أصول التشريع الإسلامي للأستاذ / على حسب الله – ط / دار الفكر العربي – السادسة ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ، .
١٣	أضواء البيان في إيضاح القرآن للشنقيطي – نشر / دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ١٤١٥ ه ، ١٩٩٥ م .
١٤	الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ للدكتور / محمد الأمين الخضري – ط/ مطبعة الحسين الإسلامية – أولي ١٤١٣ ه – ١٩٩٣م .
١٥	الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق – ط دار المعارف– ثانية ١٩٨٧ م.
١٦	إعجاز القرآن للباقلانى – تحقيق / السيد أحمد صقر – ط / دار المعارف – الخامسة ١٩٩٧م.
١٧	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للإمام / مصطفى صادق الرافعي– نشر دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ط / ثامنة ٢٠١٤ م .
١٨	إعراب القرآن المنسوب للزجاج – تحقيق / إبراهيم الإبياري – نشر دار الكتاب المصري – القاهرة ط / ثانية ١٤٠٢ ه ت ١٩٨٢م
١٩	الأقصى القريب في علم البيان للإمام زين الدين أبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخى– ط/مطبعة السعادة – أولى١٣٢٧ه.

م	المصدر أو المرجع
٢٠	الأم للإمام الشافعي مع مختصر المـــازني – ط / دار الفكـــر للطباعـــة والنشر والتوزيع – ثانية ١٤٠٣ ه ، ١٩٨٣م .
٢١	الإمام البقاعي (جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكـــريم) إعـــداد / الأستاذ الدكتور / محمود توفيق محمد سعد – بدون ذكر لدار النَّشر ط / أولى ١٤٢٤هـــ .
٢٢	إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقـــراءات لأبـــي البقـــاء العكبري – تحقيق / إبراهيم عطوة عوض – نشر / المكتبة العلميـــة – لاهور – باكستان – غير مؤرخة .
٢٣	الانصاف في مسائل الخلاف لأبى البركات عبد الرحمن الأنباري – نشر / دار الفكر – دمشق – غير مؤرخة .
٢٤	الإيجاز (دراسة بلاغية ورؤية نقدية) للدكتور / محمود شاكر القطان – (بدون ذكر لدار النشر أو الطبع) ١٩٨٩م .
٢٥	الإيضاح للخطيب القزوينى – ط صبيح ١٩٧٩م .
٢٦	الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية – نشر مكتبة نزار مصطفي الباز – ط / أولى ١٤٢٥ هـــ – ١٤٢٥ م
٢٧	البحر المحيط لأبى حيَّان الأندلســـي – نشـــر / دار الكتـــاب الإســـلامي بالقاهرة ط / ثانية ١٤١٣ هـــ – ١٩٩٢ م .
٢٨	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبى العباس أحمد بن محمد بـــن عجيبة – تحقيق / أحمد عبد الله القرشي رسلان – المُجلَّد الثالث / ٥٦١ (بدون ذكر لدار النَّشر أو الطبع) ط / ١٤١٩ هـــ – ١٩٩٩ م .

م	المصدر أو المرجع
٢٩	بديع القرآن لابن أبى الإصبع– تحقيق / حفنـي محمـد شـرف – ط / نهضة مصر – بدون تاريخ .
٣٠	البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزَّملكاني – تحقيـق الـدكتوران / خديجة الحديثي ، وأحمد مطلوب – ط / مطبعة العـاني – بغـداد /ط ، أولى ١٣٩٤ ه ، ١٩٧٤ .
٣١	البرهان في أصول الفقـه لإمـام الحـرمين (الجويـدي) – تحقيـق الدكتور / عبد العظيم محمود الديب – ط دار الوفاء للطباعة والنشـر – المنصورة – ثانية ١٤١٨ ه / ١٩٧٩م .
٣٢	البُرهان في تناسب سور القرآن) للفقيه (أبى جعفر أحمد بن إبـراهيم بـن الزُّبيـر الغرنـاطى) – (٦٢٧هـ – ٧٠٨هـ/ ١٢٣٠ – ١٣٠٨ م) دراسة وتحقيق / أ / محمـد شـعبانى – وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسلامية) بالمملكة المغربية ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .
٣٣	البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي تحقيق / محمد أبـو الفضـل إبراهيم – نشر / مكتبة دار التراث بالقاهرة – غير مؤرخة ،
٣٤	بصائر ذوى التمييز في الطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادى – تحقيق الأستاذ/ محمد على النَّجار– ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – ثانية ١٤٠٦هـ
٣٥	البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبـي موسـي – نشر/ مكتبة وهبه ط / ثانية ١٤٠٨ ه ، ١٩٨٨ م.
٣٦	بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ضـمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق / محمد خلف الله أحمـد ، والـدكتور / محمد زغلول سلَّام – نشر / دار المعارف ط – رابعة – غير مؤرخة .

م	المصدر أو المرجع
٣٧	تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض الملقَّب بمرتضي الزَّبيدي – تحقيق / مجموعة من المُحقَّقين – نشر/ دار الهداية – غير مؤرَّخة .
٣٨	التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للإمام الطيبي – تحقيق / الدكتور / هادى عطية مطر الهلالي – نشر / مكتبة النهضة المصرية ط / أولى١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٣٩	التذكرة في معاني النحو – للعالم الجليل الأستاذ الدكتور / محمود توفيق محمد سعد – بدون تاريخ .
٤٠	الترغيب والترهيب للمنذري – تحقيق / إبراهيم شمس الدين – نشر دار الكتب العلمية – بيروت – أولي ١٤١٧ ه .
٤١	التعبير البياني (رؤية بلاغية نقدية) للدكتور شفيع السيد – ط / دار الفكر العربي – ثالثة ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م .
٤٢	التعريف بالقرآن والسُّنة للأستاذيْن / عبد الحسيب طه حميدة ، شاكر محمود أحمد – ط / دار التأليف ١٩٦٧م.
٤٣	التعريفات للجرجاني – تحقيق / إبراهيم الإبياري – ط / دار الريان للتراث – غير مؤرخة .
٤٤	تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري – بحاشية سنن ابن ماجه – ط / دار المعرفة – بيروت – أولي ١٤١٦ه ، ١٩٩٦ م .
٤٥	تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – ط / الدَّار التونسيَّة للطباعة والنَّشر – غير مؤرخة .
٤٦	تفسير الحدَّاد المُسمَّى بـ (كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل) لأبى بكر الحدَّاد اليمنى – تحقيق / د / محمد إبراهيم يحيى – ط / دار المدار الإسلامي ٢٠٠٣ م .

م	المصدر أو المرجع
٤٧	تفسير الشيخ الشعراوي – (بدون طبعة) وبدون تأريخ .
٤٨	تفسير الطبرى المُسمَّى بـ (جامع البيان في تأويل القرآن) – تحقيق / أحمد محمد شاكر – نشر / مؤسسة الرسالة – ط / أولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م
٤٩	تفسير القاسمي المُسمَّى (محاسن التأويل) ـ ط / دار إحياء الكتب العربية – الحلبى – غير مؤرخة .
٥٠	تفسير القاضي البيضاوي ضمن (حاشية شيخ زادة) – ط / دار صادر – بيروت – غير مؤرخة
٥١	تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير – نشر : مكتبة التراث الإسلامي ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .
٥٢	تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأوى) – للإمام الأكبر / محمد شلتوت – ط / دار الشروق – الحادية عشرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٥٣	تفسير القرآن لـ (عبد الرَّازق همَّام الصنعاني) – تحقيق / د / مصطفي مسلم محمد – نشر / مكتبة الرُّشد – الرياض سنة ١٤١٠ هـ
٥٤	التفسير الكبير للإمام الرازي– ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – أولى ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م.
٥٥	تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان – لـ (عبد الرحمن بن ناصر السعدي / تحقيق / عبد الرحمن بن معلَّا اللويحق – نشر / مؤسسة الرسالة ط / أولي ١٤٢٠ ه ، ٢٠٠٠م
٥٦	تفسير المنار للشيخ / محمد رشيد رضا –الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣

م	المصدر أو المرجع
٥٧	تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي –ط / مطابع الشعب – غير مؤرخة
٥٨	تفسير حدائق الرَّوْح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ العلاَّمة : (محمد الأمين بن عبدالله الأُرمِى العلوي الهَرَرِىّ الشافعي)– إشراف ومراجعة: د/هشام محمد على بن حُسين ههديَ– ط/دار طوق النجاة – بدون تأريخ .
٥٩	تفسير روح البيان للشيخ / إسماعيل حقي – ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – سابعة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
٦٠	تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي – نشر / عالم الكتب / مكتبة النهضة المصرية – أولي ١٤٠٦ ه – ١٩٨٦ م .
٦١	تناسق الدُّرر في تناسب السور للإمام السيوطي – تحقيق / عبد الله محمد الدرويش – نشر / عالم الكتب – بيروت – لبنان – ط / ثانية ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .
٦٢	جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي – تحقيق / الدكتور / محمد بكر إسماعيل– ط / دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبى – غير مؤرخة .
٦٣	الجني الداني في حروف المعاني – تحقيق / د . فخر الدين قباوة – نشر دار الآفاق الحديثة – بيروت – لبنان ١٤٠٣ ه ، ١٩٨٣م
٦٤	جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبى الفضل عبد الله محمد الصِّديق الغماري – نشر / مكتبة القاهرة – بدون تاريخ .
٦٥	الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي الجوهري – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، ط رابعة ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

م	المصدر أو المرجع
٦٦	حاشية السيد الشريف على الكشاف – ط دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ١٤٢٨ / ١٤٢٩ ه ، ٢٠٠٨ م .
٦٧	حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الرَّاضي على تفسير البيضاوي) – ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – (غير مؤرخة) .
٦٨	حاشية الصاوي على الجلالين – ط / دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبى) – غير مؤرَّخة .
٦٩	حاشية الصاوي على الجلالين – ط/ دار إحياء الكتب العربية (عيسي البابي الحلبي) – غير مؤرخ .
٧٠	حاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي – ط دار صادر – بيروت .
٧١	حاشية على شرح الفاكهي لقطر الندي لـ (يس بن زين الدين الحمصي الشافعي – ط / مطبعة مصطفي البابي الحلبي – ط ، ثانية ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م
٧٢	الحديث النبوي (مصطلحه ، بلاغته ، كتبه) لـ (محمد بن لطفي الصَّباغ) – نشر / المكتب الإسلامي – دمشق ط / خامسة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م .
٧٣	خصائص التراكيب للدكتور محمد أبي موسي ص ٢٥٠ – نشر / مكتبة وهبة ط / ثانية ١٤٠٠ه – ١٩٨٠م .
٧٤	خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العظيم المطعني – نشر / مكتبة وهبة ط / أولي ١٤١٣ ه ، ١٩٩٢ م

م	المصدر أو المرجع
٧٥	الخصائص الفنية في الأدب النبوي للدكتور / محمد بن سعد الدُّبل – نشر / مكتبة العبيكان – الرِّياض ثانية ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .
٧٦	الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني – تحقيق / محمد على النجار – ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .
٧٧	خلاصة المعاني – للحسن بن عثمان بن الحسين المغني – تحقيق الدكتور / عبد القادر حسين – ط / دار الاعتصام – غير مؤرخة .
٧٨	الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي – تحقيق الدكتور / أحمد محمد الخرَّاط – ط / دار القلم – دمشق – أولي ١٤١٤ ه ، ١٩٩٣ م .
٧٩	الدُّرُّ المنثور في التفسير المأثور للسيوطي – ط / دار الفكر ١٤١٤ ه ، ١٩٩٣م.
٨٠	دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني – نشر: مكتبة وهبة – ط / أولي ١٤١٧ ، ١٩٩٦ م .
٨١	دراسات في الحديث النبوي للدكتور / عباس بيومي عجلان – ط / دار المعارف ١٩٨٤ م .
٨٢	دراسات قرآنية للشيخ / محمد قطب – ط دار الشروق – ثامنة ١٤٢٥ه / ٢٠٠٤م .
٨٣	دراسة فى البلاغة والشعر للدكتور / محمد أبى موسى – نشر / مكتبة وهبة – أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
٨٤	دلالة الألفاظ عند الأصوليين للأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد – ط / مطبعة الأمانة – أولي ١٤٠٧ه ، ١٩٨٧ م .

م	المصدر أو المرجع
٨٥	دلائل الإعجاز – تحقيق / محمود محمد شاكر – نشر / مكتبة الخانجي بالقاهرة – غير مؤرَّخة .
٨٦	دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي – نشر / دار الريان للتراث ط / أولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .
٨٧	روح المعاني – ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م
٨٨	روح المعاني للآلوسي – ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – رابعة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
٨٩	زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي – نشر / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط/ أولي ١٤١٤ه ، ١٩٩٤م .
٩٠	سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبى الحسن الحنفي المعروف بالسندي – تحقيق / الشيخ خليل مأمون شيحا – نشر / دار المعرفة – بيروت – ط / أولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م) .
٩١	سنن الترمذي – تحقيق / الشيخ / إبراهيم عطوة عوض – ط / دار الحديث – القاهرة – بدون تأريخ .
٩٢	سنن النسائي بشرح الحافظ / جلال الدين السيوطي ، وبحاشيته : الإمام السندي – ط / دار القلم – بيروت – غير مؤرَّخة .
٩٣	السياق وتوجيه دلالة النَّص للدكتور عيد بلبع – ط / بلنسية للنشر والتوزيع – أولي ١٤٢٩ه ، ٢٠٠٨م .
٩٤	شذرات الذهب (دراسة في البلاغة القرآنية) ، للعالم الجليل الأستاذ الدكتور / محمود توفيق محمد سعد – ط / أولي ١٤٢٢ه

م	المصدر أو المرجع
٩٥	شرح الكوكب المنير للفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار – تحقيق : د / محمد الزُّحيلي ، والدكتور / نزيه حمَّاد – المجلَّد الثالث / ٤٨٩
٩٦	شرح المُفصل لابن يعيش– توزيع مكتبة المتنبي – بدون تأريخ .
٩٧	شرح مُختصر التصريف للعزّي (في فن الصرف) لـــ (مسعود بـــن عمـــر سعد الدين التفقازاني) شرح وتحقيق / عبد العال ســـالم مكـــرم – نشـــر / المكتبة الأزهرية للتراث .
٩٨	شرح ومعاني جزء تبارك أ / محمد محمد عتريس – القســـم الثـــاني– صادر عن دار التحرير للطبع والنشر – بدون تاريخ .
٩٩	الصَّاحبي لابن فارس – تحقيق د / عمر فاروق الطَّباع – نشر / مكتبـــة المعارف – بيروت – لبنان – ط أولي ١٤١٤ ه ، ١٩٩٣ م .
١٠٠	صحيح البخاري مع كشف المُشكل للإمام ابن الجـــوزي – تحقيـــق د / مصطفي الذَّهبي – طبع ونشر / دار الحديث بالقاهرة – غير مؤرخة .
١٠١	صحيح مسلم بشرح النووي – نشر / دار صادر / ط / المطبعة الكبرى الأميرية – ببولاق – سادسة ١٣٠٤ هـــ
١٠٢	صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم للدكتور محمود توفيق محمد سعد – ط / مطبعة الأمانة – أولي ١٤١٣ ه ، ١٩٩٣ م .
١٠٣	طبقات القراء لابن الجزرى – ط / مطبعة السعادة ١٣٥٢ هـــ.
١٠٤	الطراز للعلوى تقديم د / إبراهيم الخولي – ط / الهيئة العامـــة لقصـــور الثقافة – بدون تأريخ .
١٠٥	عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى للإمام الحافظ ابن العربـــى المـــالكى – نشر / دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان ط / أولى ١٤١٥ه– ١٩٩٥م .

م	المصدر أو المرجع
١٠٦	العزف على أنواع الذِّكر للأستاذ الدكتور / محمود توفيق محمد سعد ، ط/ مطبعة دار الكتب الجامعية – شبين الكوم – أولى ١٤٢٤ هـ .
١٠٧	العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني – تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد – ط / دار الجيل ١٤٠١ ه ، ١٩٨١ م .
١٠٨	غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول – بحاشية التاج الجامع للأصول للشيخ / منصور على ناصف – ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – غير مؤرَّخة) ،
١٠٩	فتح الباري لابن حجر تحقيق / مُحِبُّ الدين الخطيب ، وهو بصدد تعليقه على الحديث المذكور ، وشرحه له –ط / دار المطبعة السَّلفية – ثالثة ١٤٠٧ هـ
١١٠	فتح القدير للشوكاني – تحقيق سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران – ط/ دار الحديث – القاهرة ط أولي ١٤١٣ه ، ١٩٩٣م
١١١	فتح المُنعم شرح صحيح مسلم للدكتور موسي شاهين لاشين – ط / دار التراث العربي – بدون تاريخ .
١١٢	الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثاً النووية للشيخ / إبراهيم الشبرخيتي – ط / الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٤١٨ه / ١٩٩٧ م .
١١٣	الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري – بتحقيق / حسام الدين القدسي – نشر / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – غير مؤرخة .
١١٤	الفصول المفيدة في (الواو المزيدة) – للإمام الحافظ / صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي – تحقيق / الدكتور حسن موسي الشاعر ص ١٣٠ – نشر / دار البشير للنشر والتوزيع – عمَّان – الأردن – بدون تاريخ .

م	المصدر أو المرجع
١١٥	في ظلال القرآن الكريم – ط / دار الشروق / السابعة والعشرون ١٤١٩هـ – ١٩٩٨ م .
١١٦	فيض القدير شرح الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير – للعلاَّمة محمد عبد الرؤوف المناوي – ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – أولي ١٤١٥ ه ، ١٩٩٤م .
١١٧	كتاب سيبويه – تحقيق / عبد السلام محمد هارون – نشر / مكتبة الخانجي ط/ ثانية ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م .
١١٨	الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي – تحقيق د / صالح بن نمران الحارثي ، وآخر– ط / دار المنار – السعودية – أولى ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م ،
١١٩	الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي– تحقيق / الإمام أبي محمد بن عاشور– نشر / دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان – ط / أولي ١٤٢٢ه ، ٢٠٠٢م
١٢٠	كفاية المعاني في حروف المعاني – تأليف / عبد الله الكردي البيتوشي – تحقيق / شفيع برهاني – ط / دار اقرأ للطباعة والنشر – سورية – دمشق – بيروت – لبنان ط / أولي ١٤٢٦ ه / ٢٠٠٥ م .
١٢١	كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال – لـ (على بن حسان الدين المتَّقي الهندي) – نشر مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٩ م .
١٢٢	اللامات للزجاجي– تحقيق د / مازن المبارك – ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ط ثانية ١٤٠٥ ه ، ١٩٨٥م

م	المصدر أو المرجع
١٢٣	اللباب في علوم الكتاب لأبى حفص سراج الدين على بن عادل الحنبلي الدمشقي – تحقيق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود والشيخ / على معوض – نشر : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٩ ه / ١٩٩٨م.
١٢٤	لسان العرب لابن منظور– ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – أولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م .
١٢٥	لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل صالح السَّامرائي – ط / دار عمَّار للنشر والتوزيع – عمَّان – خامسة ١٤٣٠ه ، ٢٠٠٩ م .
١٢٦	اللمع في العربية لابن جني– تحقيق / فائز فارس– نشر / دار الثقافة – الكويت ١٩٧٢ م .
١٢٧	المتشابه اللفظي فى القرآن الكريم للدكتور / محمد ماجد العطائى – نشر مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان ١٤٣١ ه – ٢٠١٠م.
١٢٨	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لـ (ضياء الدين بن الأثير) – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد–نشر/ المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٥ م
١٢٩	المجازات النبوية للشريف الرَّضى (تقديم وضبط / طه عبد الرؤوف سعد) – ط / مصطفي البابي الحلبى ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .
١٣٠	مجمع البيان في تفسير القرآن للإمام الطَّبرسي – منشورات / محمد على بيضون (دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان) ط / أولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧ م.
١٣١	مجمع البيان للطبرسى – منشورات / محمد على بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – أولي ١٤١٨ ه ، ١٩٩٧م .

م	المصدر أو المرجع
١٣٢	مجمع الزوائد للحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي بتحرير الحافظين الجليلين / العراقي وابن حجر – ط / دار الفكر – بيروت ١٤١٢ ه ، ١٩٩٢م .
١٣٣	المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي – تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد – ط / دار الكتب العلمية – بيروت – غير مؤرخة .
١٣٤	المُحلَّى لابن حزم الأندلسي – نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بدون تاريخ .
١٣٥	المُختار من شرح البيجوري على الجوهرة المُسمَّى (تُحفة المريد على جوهرة التوحيد) – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤١١ هـ / ١٩٩١م .
١٣٦	المختار من كنوز السنة – للدكتور / محمد عبد الله دراز – ط دار الاعتصام .
١٣٧	مسند الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق / شعيب الأرنؤوط وآخرون – نشر مؤسَّسة الرسالة . ط / ثانية ١٤٢٠ه ، ١٩٩٩م .
١٣٨	مصاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعى – تحقيق د / عبد السميع محمد أحمد حسنين ١ / ٢٠٩ – نشر / مكتبة المعارف – الرياض – أولى – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .
١٣٩	معالم التنزيل في التفسير والتأويل للإمام البغوي – ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٢ ه /١٩٩٢ م .
١٤٠	معاني الحروف للرماني – تحقيق الدكتور / عبد الفتاح إسماعيل شلبي – ط / دار نهضة مصر للطباعة والنشر – بدون تأريخ .

م	المصدر أو المرجع
١٤١	معاني القرآن لأبي زكريا يحيي بن زياد الفراء – تحقيق ومراجعة أ / محمد على النجار – نشر / الدَّار المصرية للتأليف والترجمة – غير مؤرَّخة .
١٤٢	معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق د / عبد الجليل عبده شلبي – ط / دار الحديث بالقاهرة.
١٤٣	معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي – تحقيق / على محمد البجاوي – نشر / دار الفكر العربي بالقاهرة – بدون تاريخ .
١٤٤	مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري – تحقيق د /مازن المبارك ، ومحمد على حمد الله – نشر / دار الفكر – بيروت ط سادسة ١٩٨٥م.
١٤٥	المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – نشر / مكتبة نزار مصطفي الباز – الرياض – طـ / أولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م
١٤٦	المقتصد في شرح الإيضاح للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق / كاظم بحر المرجان – ط / دار الرشيد – العراق ١٩٨٢م
١٤٧	المقتضب لأبي العباس يزيد المُبرَّد – تحقيق / محمد عبد الخالق عظيمة – نشر / عالم الكتب – بيروت – لبنان ١٤٣١ ه ، ٢٠١٠ م .
١٤٨	ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التزيل – للإمام الحافظ ابن الزبير الغرناطي – تحقيق / سعيد الفلاح – ط دار الغرب الإسلامية
١٤٩	من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) للدكتور محمد أبي موسي ص ٩٨ د / دار الفكر العربي ١٩٧٥م .

م	المصدر أو المرجع
١٥٠	من أسرار حروف الجرّ في الذكر الحكيم للدكتور / محمد الأمين الخضرى– ط / مكتبة وهبة – أولي ١٤٠٩ه ، ١٩٨٩م .
١٥١	من عطاء نظم القرآن الكريم (دراسة تحليلية لسورة الأنبياء) للدكتور / عبد الحميد محمد العيسوي– ط / مطبعة أبناء وهبة حسان – أولى ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .
١٥٢	من هدي القرآن الكريم تفسير بلاغي لسورة (المؤمنون) للدكتور / بسيوني عبد الفتاح فيود – نشر : مطبعة السعادة – ط الأولى ١٤٠٩ ه / ١٩٨٩م .
١٥٣	الموافقات في أصول الشريعة للإمام (أبى إسحاق الشاطبي) – شرح وتحقيق فضيلة الشيخ / عبد الله دُراز – نشر / دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط / أولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م .
١٥٤	موسوعة أخلاق القرآن للدكتور / أحمد الشرباصي – ط / دار الرائد العربي – بيروت – لبنان – ثانية ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .
١٥٥	نتائج الفكر للإمام السُّهيلي تحقيق / الدكتور محمد إبراهيم البنا – ط/ دار الرياض للنشر والتوزيع– بدون تأريخ .
١٥٦	النصائح الدينية والوصايا الإيمانية – تأليف / السيد عبد الله باعولي الحداد – ط / مصطفي الحبى ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٩ م .
١٥٧	النظم الفني في القرآن الكريم للشيخ / عبد المتعال الصعيدي – نشر مكتبة الآداب ١٩٩٢م .
١٥٨	وجوه الاستبدال فى القرآن الكريم " دراسة لغوية وصفية تحليلية " للدكتور / عز الدين محمد الكردى –نشر / دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط / أولى ١٤٢٨ه / ٢٠٠٧م .
١٥٩	الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني تحقيق / محمد حسن أبو العزم الزّفيتي – صادر عن المجلس الأعلي للشؤون الإسلامية ١٤٣١ ه ، ٢٠١٠م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	مقدمة	٧٢١٣
٢	النص الكريم الذى هو محل الدراسة	٧٢٢٠
٣	تمهيد (بين يدي البحث : ويدور حول أربعة مطالب :	٧٢٢١
٤	المطلب الأول : التعريف بسورة (المؤمنون) في القرآن الكريم	٧٢٢١
٥	المطلب الثاني : الغاية من ذكر أوصاف المؤمنين في القرآن الكريم	٧٢٣٢
٦	المطلب الثالث : علاقة صفات المؤمنين الواردة في مطلع السورة الكريمة بموضوعاتها	٧٢٣٥
٧	المطلب الرابع : التلازم بين أوصاف المؤمنين في موضوعاتها	٧٢٣٩
٨	الدراسة والتحليل لصفات المفلحين كما صورتها سورة (المؤمنون)	٧٢٤٥
٩	المبحث الأول : المعنى العام للآيات التى تضمنت تلك الصفات	٧٢٤٦
١٠	المبحث الثاني : تأملات فيما تضمنته تلك الآيات من أسرار بلاغية .	٧٢٥٣
١٢	١. فائدة تصدير الصفات بقوله تعالى : { قد أفلح المؤمنون } ودلالة مفهومه على العبرة بإيمان المفلحين والقصد من فلاحهم .	٧٢٥٣
١٣	قوله تعالى : { قد أفلح المؤمنون }	٧٢٥٤
١٤	قوله تعالى : { الذين هم في صلاته خاشعون}	٧٣٠٥
١٥	قوله تعالى : { والذين هم عن اللغو معرضون }	٧٣٤٠
١٦	قوله تعالى : { والذين عن للزكاة فاعلون }	٧٣٥٥
١٧	قوله تعالى: { والذين هم لفروجهم حافظون ... غير ملومين }	٧٣٦٦
١٨	التحذير والترهيب من الابتغاء في غير ما أحل الله (عز وجل)	٧٣٨٧
١٩	قال تعالى : فيمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون }	٧٣٨٨

م	الموضوع	الصفحة
٢٠	قوله تعالى: { والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون }	٧٤٠٦
٢١	قوله تعالى : { والذين هم على صلواتهم يحافظون }	٧٤١٦
٢٢	٣. التعقيب الختامي بالثناء على هؤلاء الموصوفين المفلحين وبما يترتب على وصفهم .	٧٤٣١
٢٣	٤. أسلوب القرآن الكريم وإن كان خبريَّ اللفظ إلَّا أنه طلبي المراد والمقصد	٧٤٤٦
٢٤	خاتمة البحث وأهم نتائجه .	٧٤٤٨
٢٥	ثبت بأهم المصادر والمراجع .	٧٤٦٧
٢٦	فهرست الموضوعات .	٧٤٨٤